المجلس
الأعلى
للثقافة

إدريس على

انفجار جمجمة

رواية

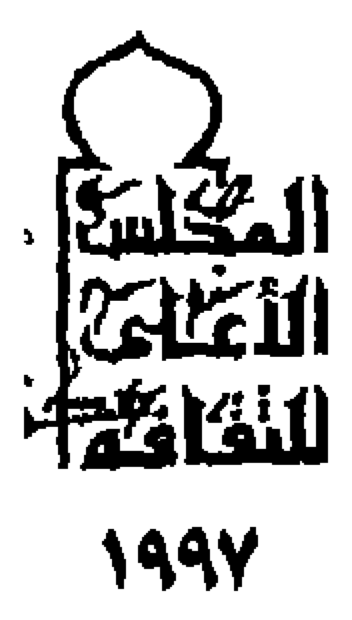
انفجار جمجمة

المجلس الأعلى للثقافة

إدريس على

انفجار جمجمة

رواية



١٩٩٧

الاشراف الفنى والغلاف : محمود القاضى

تنويه

أحداث هذه الرواية ؛

ليس لها علاقة بأمور أو وقائع مشابهة جرت فى هذه المدينة أو تلك ، ولا قراءة لحوادث نشرت فى الصحف أو تناقلتها وكالات الأنباء ؛ لأنها ، من نسج الخيال ، وأى تشابه بين أسماء أبطال الرواية ، وأسماء أخرى معروفة أو مغمورة ، هى من قبيل الصدفة .. وزمن وقوع الأحداث في توقيت معين ، ليس له أى دلالة أو تعمد مقصود ... سوى أن أى أحداث ، لابد أن تقع فى زمن ما .. ولذا ، وجب التنويه .

أهداء

إلى
هذا الرجل
المهندس
عصام عباس
تقديرا
ووفاءاً

إدريس

مقدمة

هذه الرواية . انفجار بكل معاني الكلمة ، من انفجار الدم إلى الميل عن الحق والانحراف وارتكاب الخطأ . وهي ليست «انفجار جمجمة» فحسب ، بل هي أيضا انفجار في مجال الرواية العربية ، في جرأتها في الحكي الذي تمتزج فيه دماء الجثة بجغرافية مصر ، من المدينة إلى الريف ومن الريف إلى الصحارى . ولقد كان توفيق الحكيم يكتب كمحقق يبحث بين الفلاحين عن المجرم ويسعى إلى مقابلة الشهود ليستمع إلى شهاداتهم ، لكنه انتهى في يوميات نائب في الأرياف إلى استحالة القبض على المجرم وسماع اعترافاته أو كسب ثقة الشهود ليدلوا بشهاداتهم . وبعد حوالي ربع قرن كتبت روايتي الجبل وفيها استطاع المحقق أن يحصل على اعترافات وأن يسجل شهادات لكنه كان مثل توفيق الحكيم - محققا قادماً من المدينة كغريب عن أهل الجبل . هنا في «انفجار جمجمة» شهادة عن الجريمة والجثة ترفض المحقق وتتهم كل المحققين ، ويعلن صاحب الشهادة عن ضعفه وقوته ، وسوء سلوكه ونصاعة صدقه وهو يجوب مصر من أقصاها إلى اقصاها لايتردد في الاعتراف بخطاياه متحديا الذين يحاصرون أو يراقبون . واعترافاته انفجارات تنطلق فيها الكلمات شظايا جارحة ، لكن ما الذى تنتظره من انفجار هو أحد ملامح هذا العصر . إن المشاهد تتتابع في ايقاع سريع ، والحوار حاد يفضح ما تسمعه في أعرق الأزقة والدروب وينقل إليك صدمة الانفجار التي تختلف تماما عن الانفجارات التي تعودت أن تقرأ عنها في الصحف أو تشاهد لقطات لها على شاشة التليفزيون . ولاشك أن الأستاذ إدريس على كان وهو يكتب هذه الرواية يتحدانا فقد بجس نفسه فانبجست ليختبرنا ويختبر رؤيتنا لبلادنا . ولاشك أنها تختلف من عدة وجوه عن رؤيتي لكن يظل انفجاره ملمحا رئيسيا من ملامح أيامنا ووجودنا سواء في مصر أو العالم . ولن أتراجع أمام هذا التحدى لأنه صريح وقوى وصادق ، وهو رغم وقاحتة وأحيانا بذائته يكشف عن موهبة وأصالة . وكم أتمنى أن نواجه هذا التحدى بالعناق ، ونقدم هذه الرواية إلى القارىء الذى تبحث عنه ، وهو قارىء جديد وصاحب الأغلبية التي لاتقرأ لأنها مازالت تنتظر كاتبا مثل إدريس على يكتب عنها لها .

إننا لانستطيع أن نتجاهل هذه الرواية ولانستطيع أن نقتلها بالرقابة ، لأن الطريق الصحيح لمواجهة الصدق في أنفسنا هو الترحيب بهذا الانفجار الذى يهدم أحيانا ولكنه ضرورى عندما تفكر في مشروعات البناء ! .

فتحي غانم

الجـــزء الأول

الهمج

لاتكن متفوقا فى عالم منحط ،
ستكون مثل بقعة عسل
وسط عالم من الذباب .. ستفنى
ويبقى الذباب .

محمد الماغوط
عن جريدة أخبار الأدب

؛ – ١ –

قبل الفجر بقليل ، علي غير المألوف ، يقتحم أحلامك ، كوابيس نومك ، موتك المؤقت ، عزلتك .. ؛ رنين هاتفي متواصل ، ملح ، تنزعج ، تتقلب بتكاسل ، تتثائب ، تنتبه ، تستعيــــد نفسك .. والرنين لايكف ؛ تنظر للهاتف بضيق ، تمد يدك مترددا ، ترفع السماعة متوجسا ، يخدش أذنك صوت أجش مجهول تسمعه لأول مرة ؛ يعيدك لعالم الحركة الصاخبة دون إرادتك ، كل أصدقائك المشاكسين تحفظ نبرات أصواتهم ، آلو .. آلو .. من ! من المتحدث ؟ تعيد التساؤل مرتين .. لعلك تكتشفه ؛ فربما أخطأ صاحبه الرقم ،المرجح أنه صديق يلون صوته ليخدعك ، لا يفصح ، تقلق ، تعتدل ، تركز ، تسلم مصيرك لحاسة السمع ..

- **أريد الأستاذ بلالاً ؟**
- **من المتحدث ؟**
- **حضرتك ؟**
- **أنت من ؟**
- **فاعل خير**
- **أعرف من تكون أولاً ؟**
- **اسمعني لو سمحت .**
- **اتفضل ..**
- **قبضوا على شادى**
- **من شادى ؟**
- **صديقك .. الصحفى اللبنانى**

- قبضوا عليه ؟!

- ضربوه .. أهانوه .. رموه خارج الحدود

- ماذا تقول ؟

- كاد يموت بين أيديهم

- أنت تهلوس ؟

- الدور عليك يا بطل

- كن شجاعا واكشف أوراقك

- احترس

- تحذير هذا أم تهديد ؟

- اعتبرني صديقاً

- لا أخاف

- لِمْ نفسك أفضل

تقوم تغادر فراشك . تغادرك السكينة ، تفتح النافذة ، ظلام ؛ بين الفجر الوشيك والليل المقيم . ترنو حزينا علي مدينة الصمت والمآذن والأهرامات وأبي الهول المسخ ، تطل ، تستغيث بالفجر .. ولافجر ، وكأن الظلام قاعدة وأساس ، والنهار مجرد حالة عارضة ، تدخن علي الريق ، تنفخ دخانك في وجه الفراغ . تدور في غرفتك كالتائه . تشرب براندي علي معدة خاوية . الخواء . تحاول استعادة توازنك . تعيد تقدير الموقف ؛ هذا هاتف كان يرن . هذه شقتك ، هذا أنت بكامل لياقتك وصحوتك ، سمعك سليم وقد حادثك شخص ما ، حاورك صوت بشري مازال يملؤك، لخبط سلوكك .. صوت جاد ، حازم ، خشن خشونة الواقع

وما سمعته ليس مزاحًا ولا لهوًا أو مجرد وخزة ، فمن يكون المتحدث ؟ لأي سلطة ينتمي ؟ لحساب أي شيطان يعمل ؟ تنشط ذاكرتك .. تحاول الوصول جاهداً إلي صاحب صوت ما قبل الفجر ، توقيت مقلق . صوت همجي. تهديد سافر . تستعيد كل النبرات ، حتي من لقيتهم صدفه ؛ لأنك حسن الإنصات ، جيد الالتقاط ؛ أصوات الأصدقاء ، الأقارب ، الحاقدين ، ضباط حرس الدولة ، حراس الأشباح ، شياطين المدينة ... فلا تسعفك الذاكرة . أنت والبراندي والفجر الذي تأخر والتوتر . تشرب . تدخن . تتنقل بين أشيائك المبعثرة . تصطدم بكتبك تشوطها بعصبية ، تدخل دورة المياه وتفشل ، تتجه للمطبخ ولاتأكل . تفتح الثلاجة وتقفل بابها بعنف ، تجلس فلا تستريح ، تستنجد بالمذياع .. فلا تسمع سوي شوشرة ، صفير ، تراتيل ، ابتهالات ، وثمة مؤذن يبشر بأن الصلاة خير من النوم .. فتغلق باب الريح ؛ لأنك حين تنام ، تشعر بالخير ، الطمأنينة الأمان ، الراحة ، تنفصل عنهم لحظتها من خيرهم القليل وشرهم الوفير ، والآن .. اقتحموا فراشك ، سرقوا لحظتك الجميلة . أفسدوا ليلك ، انتزعوك ، قذفوا بك للأرق ، للتوتر ، للبراندي الذي يتسرب إلي دمك نارا فتشتعل ، تلتهب .. تحترق .. ولا أحد سينجدك حتي تتفحم ، لأن أهل المدينة ، في هذا التوقيت ، بين مستسلم لغيبوبة النوم وأحلام فجر لايهل .. وساجد يبتهل للسماء أملا في جنة ما بعد الحياة ، وساهر منتش يداعب سرة راقصة ، أو جندي فقير أمي يمسك ببندقية محشوة ويجهل عدوه الذى سيرديه ، سيضرب من يدنو حتى لو كان معتوها أو ضالاً أو جائعا سرق غطاء بالوعة ، وبين لص كبير حصل علي عدد

كاف من الأهداف في الوقت الأصلي ، وثري يتنقل بين محطات العالم عبر الدش وجهاز الفاكس يتكتك بجواره ، ينقل منه وإليه .ونشال صغير يركض في الدقائق الأخيرة من الوقت بدل الضائع .. يحاول ، يسابق الزمن .. قد يفوز بهدف يتيم من ضربة جزاء مشكوك فيها أو تسلل لم ينتبه إليه الحكم عن عمد ، والجماهير تزأر : « .. كوسة .. كوسة » ، يرجمون الجميع بالطوب ، يشعلون ورق الجرائد من الغضب .. لكن المباراة حسمت ، فلا زئير يعدل القرار ، ولاحريق يسترد ما ضاع .. في آخر دقيقة . فاز . حظ . ربك يريدها هكذا .. عندك مانع ؟ لم يبق أمامك سوي البراندي ، تشربه وتشتعل ، دخانك يتصاعد . يعبيء غرفتك . تسعل تبص من نافذتك ، تود لو تصرخ . شادي بالذات ؟ المسألة مقلقة ، لن ترتاح حتي تتيقن . والفجر يدخل بحياء ، فهل يتراجع ؟ ينكص ؟ ويظل الظلام قدرا ؟ شادي بالتحديد ؟ تتصل بشقته .. رنين ولامجيب . أحيانا ينام كالقتيل ولايرد . أحيانا يبيت حيث قضى سهرته . تتصل بحارس المجلة .. لا يفيدك . تتصل بعشرات الأصدقاء، تنتزعهم من سراديب الهرب الليلي ، تقلقهم بهواجسك ، تسألهم وأنت تسعل ، تتساقط منك الحروف . شادي أين ؟ شادي عبد السلام صاحب المومياء ؟ يا ابني صح النوم .. هذا مات من زمان . يا أخى لأ .. شادى اللبنانى . صباح الفل ياجدع .. أنت شارب ؟ وحياتك لاعلم لي بمن تسألني عنه : « يا حبيبي جمّع .. شادي مين ؟ بيشتغل إيه ؟ وبعدين يعني بذمتك دا وقته ؟ » نم وكف عن فوضويتك . يسخرون منك ومن سؤالك المبهم . يعودون للنوم وأحلام الهروب .. ولن تستريح . تلجأ

لدفتر تليفوناتك .. تتوقف عند رقم سري محدد .. رقم لم تستخدمه أبداً .. رقم حين تراه تركبك عفاريت الدنيا . وحتي الآن تجهل سبب احتفاظك به مع أنه يسبب لك إرتكاريا، لكنك الآن .. مضطر . صاحبه يملك مفاتيح المدينة .. يعرف أنك علي نار . مرات تدير القرص ، تتراجع . يدك ترتعش جسدك كله يتراقص . هذا الرقم أين موقعه ؟ في بيته أم .. هناك في البناء الذي بجوار الميدان ؟ تتهور ، تهاتفه . استضافك مرات في قبوه الهمجي .. حاول كسرك وأنت حديد، حاصرك ، ضايقك وأنت صامد . حاول شراءك وكسب ودك باسم الوطن ولديك مفهوم للوطن يختلف ، منحك رقم .. هاتفه السرى ، انتظرك واثقــا فخييت أمله . سموت ، تمسكت بوطنك الذي تحلم به ، والآن تلجأ إليه تحت ضغط الموقف والتوتر لإنقاذ شادي من مخلبه ، تنقذه ولتقم القيامه بعد ذلك ..

- آلو

- أهلا يا بطل ..

- صباح الفل يا باشا

- أخيرا !

- أسف لإزعاجك ياباشا .

- كم ساعتك - ياه .. بالتأكيد لديك خبر هام

- إنما أسألك عن شادى ؟

- شادى ؟

- أرجوك . دعه وخذني مكانه .

- فدية يعني .. ؟!

- أرجوك ..

- موضوعه خرج من يدي .

- يعني سعادتك ..

- أمره يمس سلامة الوطن .

- ياه ..

- لا تتدخل ..

ليس هذا ما كان يتوقعه . أعطاك رقمه السري لتقدم إليه الرقاب وليس لإنقاذها،أن تقلق رجلا بهذا الحجم ، في فجر مدينة كهذه لتستفسر عن شادي .. جنون ، يسألك منزعجا أنت شارب ؟ ويسألك متوجسا عن أهمية شادي بالنسبة لك ؟ ويؤكد لك جهله التام بملابسات هذا الموضوع ، لأن جهة أخري ، أكبر ، أهم ، هي التي تتبعته واقتنصته، ويسألك : متي تشرفه وتشرب معه فنجان قهوة مع الدردشة الخفيفة كأصدقاء ؟ مكتبه مفتوح لك .. وأهلا بك وسهلاً . وأنت لاتصدقه .. تقف معه عند شادي ، تسأله بحدة تحت تأثير البراندي : ماذا فعل ؟ وماذا فعلتم به ؟ يمتص حدتك ، يؤكد للمرة الثانية ، بسعة صدر أن موضوعه خارج نطاقه .. يتعلق بسلامة وأمن الوطن . والوطن علي العين والرأس يحيا الوطن . بلادي .. بلادي .. لك حبي وفؤادي ؛ لكن بماذا هدد شادي سلامة المحروسة ! تود لو تسأله عن مفهوم الوطن ؟ تود لو تسأله عن أمور تحيرك ، تقلقك ، تشوش عليك ، لكنك تتحاشاه تخاف من الانزلاق وقول مالا يجوز لرجل قفاص للكلمات . تغتم ، تسكت يستمر بينكما الصمت . أنت بدأت المكالمة ولن تقدر علي إنهائها ، يقول

لك بثقة لاحدود لها : عموما .. أسعدتني بصوتك وإني انتظرك .. وستأتي .. وتصبح علي خير . وأنت لن تذهب إليه لأنك تعرف جيدا ما يريد وتفضل قبوه الخانق عن مكتبه الأنيق ، لأنك مخلوق للغضب والمناكفة . لأنك بلال . يحرضك البراندي فتثور ، تسبه ، ملعون أبوه وأبو الـ.. ؛ لأنك تعشق وطنا آخر غير الذي شيدوه بالأغاني ، الأناشيد ، الأكاذيب ، الصوت الواحد ، الزعيم المعجزة . وطنا جديدا جميلا لايستند علي ماكان ، يعطي ظهره لأهرامات الرق وشواهد الفاتحين ، وطنا ليس به شارع سليم الأول وطومان باي وكل همج التاريخ . وطنا يسع الجميع ، لافضل فيه لأحد علي آخر . ويستفزونك حين يغنون : « المصريين أهمه .. في الدنيا أحسن أمة .. » طيب ..ولماذا التطبيل ؟! بهذا السؤال المحرج تتوجه لمن يناقشك . تسأل : أين الأدلة لأنه يصعب اختزال الوطن في ملاعب الكرة ويستحيل الدمج بين أمن عدة أفراد وأمن الوطن كله .. لهذا تبتعد عن رجل يريد منك الجلوس في زهرة البستان والأتيلية والانضمام لحزبي التجمع والناصري .. تنقل له .. فينكل بهم ، يشتتهم .. أهذا هو الوطن ؟! لكنك ستظل تبحث عن وطنك الخيالي حتي تفني ، مثلما فني قبلك مئات الحالمين وسيلحق بك المئات . لكن شادي .. أين هو ؟ كلهم يهوِّنون عليك الموضوع ؛ مجرد ترحيل لانتهاء الإقامة ، أو لنشره خبرا محظورا .. أو الشك في مصادر تمويل المجلة . مسائل بعيدة عنك . وأنت موسوس ، تعاودك الهواجس .. فتشرب ، تتسرب الزجاجة كلها إلي جوفك ، تكوي معدتك الخاوية . والكون كله أمامك خواء ، سراب فوضي ومبان غامضة محاطة بالحراس

والأسلاك والكلاب المدربة. أكف تصفع . أقفية تتلقي . تعطي إنذاراً للأفواه فتسكت ، خمرة علي الريق يا متخلف ؟ هذا انتحار.، موت مع سبق الإصرار . ولابديل أمامك .. فالشبح الهمجي يطاردك ، ينغص عليك ، يدفعك لشرب حتي ماء النار والذي «يدلّعه» العامة ويسمونه «هوب هوب أو كنفر» . تشرب كـــل ما يُشرب ويغيِّب حتي تنساه ، لكنه ماثل أمامك يكون حيث تكون وكأنه الإله الذي يقدسونه في كل مكان وزمان ، يطاردك يحرك الجميع ضدك . يحاول تدميرك . سحقك .. دفعك لحافة الجنون فتشق هدومك ، هدوءك ، تشد شعرك ، تنازله ، تندفع نحوه كالثور الهائج وتصطدم بالفراغ . لا أحد . لاشيء . لأنه شبح همجي ، جبان ، لاتعرف له عنوانا ولا اسماً ولاموقعاً . والليل ينسحب ، تزقزق العصافير ، تطير ، تتنقل بين الأشجار والفضاء الفسيح ، تحلم تتمني لو كنت عصفورا من نوع فريد ، تطير ، لاتنالك نبال الأطفال أو بنادق الهواة المترفين ، تطير لاتلحق بك الجوارح .. ثم تسكن آخر الليل فوق غصن شجرة محصنة ضد الأفاعي . ياه ... طيران متواصل من بلد لآخر دون عوائق لا قوانين لاحدود أو موانع تكبلك ، تضغط عليك ، تزهق روحك ، الفضاء الرحب الفسيح كله لك . لامناورات ومطاردات تحولك إلي ملف فى سجلات مباني القمع وملفك حافل بما كتبته وأنت متوهج وما قلته وأنت سكران وهذا الشبح المجنون لن يخلصك منه سوي الرجل صاحب الرقم السري . تزوره ، تشرب قهوته ، تحكي له القصة بدقة سيشملك برعايته وحمايته ويعطيك كارنيهاً خاصاً تدخل به عين أكبر رأس وتتسيد عليهم كلهم ؛ مصالحك كلها ستمشى وتُفتح لك

الأبواب ؛ فتهرب من شبح وهمي لشبح حقيقي يطلق عليك لقب عميل ، مرشد ، مصدر معلومات ، سيأخذ منك كل شيء .. حتي وطنك الجميل الذى حلمت به وحاربت من أجله ، ثم يرميك يوما ملوثا ، فاقدا لقيمتك .. مشوها . وأنت لن تفعل هذا حتي لو طاردك ألف شبح ، حتى لو تكتلت عليك الدنيا كلها ؛ لأنك قيمة موقف ، رمز .. لو سقطت ، هوت بعدك المدن واستسلمت لهمج الداخل والهمج الذين علي أبواب رفح والهمج الذين يحلبون البقرة ، لكن الشبح يعوقك ، يستنزفك ، لايدع لك وقتا تواصل فيه كتاباتك النارية وحروبك وأنت تجهل سبب مطاردته ولاتعرف من أى موقع ينطلق ؟ وعلي أي جهاز جهنمي يسيطر ؟ وقد استبعدت تماما ذلك الإله الوثني الذي معبده هناك في الميدان الشهير ، لأنه شجاع يتعامل معك وجها لوجه لكن في مدينتك معابد كثيرة وآلهة بلا حصر .. مبان سرية وعلنية ، تدخل أحدها ماشيا .. تخرج منها في نعش لو خرجت ، وكلها تختفي خلف لافتة أمن الوطن وتحسد أبا قردان لأنه المخلوق الوحيد في وطنك الذي يحظي بالحماية الرسمية والشعبية حتي لو تبرز علي السيارات الواقفة بجوار حديقة الحيوان . ولأنك لست أبا قردان المقدس .. فالشبح وراءك وراءك لو عرفته ربما تستريح ، تفاوضه مادمنا في عصر المفاوضات والتنازلات .. لكنك تجهل من يكون ؟ وللمرة الألف تراجع أسماء السادة اسما اسما : المشاهير ، النجوم ، الذين لهم نفوذ ، آلهة المعابد الوثنية الوزراء ، القادة ، المحافظين ، رؤساء المدن ، أعضاء المجالس الذين عندهم حصانة في الدنيا والاخرة ، أبدا ليس بينهم من عطلت مصالحه بقلمك أو فضحته

فجرجروه للمحاكم ، قلمك الذي يتمنون قصفه وقصفك . حتي أمك كانت تناديك بمقصوف الرقبة ؛ تضربك ، تحبسك تشد شعرها من الغيظ ، تصرخ ، تلم عليك الجيران : « يعني أعمل فيك إيه ؟ أولع فيك ؟ أسيب لك البيت ؟ مالك ومال الناس ؟ ما تسيب الناس في حالهم .. هو أنا ناقصاك .. والله لأقصف رقبتك يا ابن ستين كلب » تبرُك فوقك ، فتخبط رأسك بالبلاط .. تكاد تقتلك ، فيخلصك منها الجيران وينصحونك بسماع كلامها ولاتسبب لها المشاكل . منذ طفولتك ورقبتك مطلوبة حتي من أمك . من يومك وأنت شقي تحب الاشتباك ولاتتركهم لحالهم . وكنت تفعل هذا مع نوع معين من الناس ، النوع الهمجي . وأنت ماتزال غلاما اكتشفتهم ووقفت في طريقهم ، رأيت اللبّان وهو يضيف الماء للبن ففضحته ، فجري وراءك وضربك وشكاك لأمك فضربتك وشكاك لأبيك فعلقك ومدك وأدمي قدميك .. لكنك فضحته وكشفته .. فتنبه الناس وبارت بضاعته . وكان الباعة وأصحاب الدكاكين وطوب الأرض يشكونك لها « الحقي ابنك يا أم بلال . حوشي ابنك بلال . أبعدي ابنك يا أم بلال » وهي تسب بلالاً واليوم الأسود الذي ولدت فيه بلالاً ، تضربك بقسوة وتسألك بحنق « عاوز إيه من الناس ؟ فهمني علشان أفهم .. يا هتموتني ناقصة عمر يا هتجنني .. عاوز إيه ؟ فتقول لها موضحا وشارحا : يا أمي .. رأيت كذا وكذا . لكنها لم تفهمك ولاغيرها فهمك. تحبسك لكي ترتاح من شقاوتك فتتغافلها وتنط من الشباك ، تذهب إليهم ، تقوم بغاراتك الجريئة ، رأيت زوجة بائع الكفتة الذي في أول الحارة تطارد القطط وتضعها في شوال أكثر من مرة فراقبتها وعرفت

السر ولما رأيت أهل الحي يتزاحمون حول عربته طلبا لكفتته الرخيصة اللذيذة . جريت تصرخ : لحم قطط .. لحم قطط .. فركض البائع خلفك بالساطور وكاد يذبحك لولا سرعتك وهروبك واختفاؤك عند خالتك لمدة شهر ، لأنه حلف بالطلاق ودين النبي أن يقتلك لو ظهرت في الشارع ، ولم يصدق أحد كلامك ، استمروا يتزاحمون ، يأكلون كالعادة ، حتي قبضوا عليه ، وطلعت كذابا لأنها لم تكن لحم قطط .. وإنما كلاب ورأيت بواب المستوصف وهو يغري ابن جيرانك بالحلوي ويصحبه للداخل فتسللت وراءه ورأيته يسحبه لدورة المياه فوقفت حائراً مندهشا لاتدري معني ما يدور حتي سمعت الولد .. يتأوه صارخا : أي .. أي يا ماما . فأسرعت مستنجدا بالناس في حالة فزع : « الحقوا .. الحقوا .. عم علي بيموت الواد في الكابنيه » .. كبسوا عليه ، ضربوه بالشباشب ، بالعصي ، بصقوا عليه ، جرّسوه ، وأمك ثارت ، تفلت عليك ، شتمتك « يا فضحي يا ابن الوسخة .. ماشي تدور علي الوساخة » . لكنك كنت سعيدا منشرحا لإنقاذك الولد قبل أن يذبحه الرجل ويسلقه ، أو يفرمه ويبيع لحمه لمحلات الكفته . وكان أصحاب الدكاكين يتحاشونك ، يطردونك لايبيعون لك لأنك تدقق ، تراقب الميزان تشم الأشياء المعفنة ، تردها لهم . وبائع الجاز كان يريك الجالون قبل سكبه في وعائك قائلا : « شايف .. للآخر آهه .. ما أنت وش مشاكل ". وكان عشماوي أفندي المدرس في الإلزامية يقف بعيدا عن الأولاد ولايقبلهم أو يربت علي خدودهم لما يلمحك متنبهاً ، فهو يخشاك منذ ضربته قلما عندما أمسك حمامتك ، والجارات كن يصمتن حين يجدنك واقفا ، يقلن لبعض محذرات : « بس

يا وليه يا هايجه .. لحسن الولد دا .. فضايحي .. » وكانت أكبر مشكلة قابلتك وبسببها .. كادت العاصفة تطيح بالأسرة كلها يوم رأيت أباك يتسلل لغرفة الجارة التي زوجها في السجن ، فقلت لأمك : « الحقي يا ماما .. دا بابا باين عليه اتجوز مرات الراجل الحرامي » وأمك كانت عاقلة ، حكيمة ، لم ترفع بالصوت ، وإنما ظلت واقفه تنتظر حتي خرج أبوك وهو يسوي ملابسه ويمسح عرقه ، فبصقت علي الأرض .. وشتمته بصوت خفيض : « إخص عليك راجل دني وواطي » . ثم جمعت ملابسها وذهبت عند أهلها ، مصممة علي الانفصال .. فصالحها بغويشه ذهب . والمرأة الأخري خجلت ، انتقلت لبيت آخر ، وأبوك عرف بعد ذلك اسم المتسبب فأخذ ينتهز أي فرصة ويضربك حتي الهلاك ، فتحملت قسوته لأنه صار مخلصا لأمك الطيبة المسالمة التي تكره المشاكل وتتمني لنفسها وللناس الستر .. وتحبك علي طريقتها ، وأنت تناكفها وتسألها عن أشياء كثيرة تود معرفتها بإلحاح وكشف الستار عنها ، أمور تحدث وتحيرك ، أشياء يفعلها الناس ولاتجد لها تبريرا يقنعك فترد عليك بإجابات صغيرة لاتريحك : « ربنا قال كده ، وربنا عاوز كده ، وربنا يحلها ، وربنا يفرجها وربنا يهد القوى ، يوه بقي .. فلقتني .. مش عارفة .. هي كده وخلاص .. » . وتخيلت ربنا هذا رجلا كبيرا ضخما جبارا مخيفا حسب ما صورته لك بردودها الساذجة . ومرة سألتها عن كنه هذا الشيء الذي تصنعه بالسكر والليمون ولايؤكل وتدسه بعيدا عنك .. وتصورته مخصصا لأبيك وحده مثل الحمام المحشي ليلة الخميس ، فسألتها :

- « **إيه دا يا ماما ؟** »

- « **مالكش دعوة** »

- « **والنبي يا ماما ..** »

- « **يا حبيبي أسكت** »

- « **وغلاوتي عندك** »

- « **عاوز تعرف إيه دا ؟** »

- « آه .. »

- « **طيب .. افتح بقك** »

فكورت هذا الشيء وحشت به فمك فالتصق حنكك بلسانك بشفتيك فبكيت فقالت جملتها الخالدة : « علشان تبطل تسأل » . وأنت أبدًا لم تكف عن السؤال . كبرت وكبرت معك الأسئلة ؛ بدأت من الأرض ثم صعدت إلي السماء ، فصار سماؤك غير سمائهم، هم في جانب يؤمنون بما جاء وأنت في المقابل تسأل : من قال هذا ؟ وأين الدليل ؟ فضاقوا منك ومن أسئلتك ، وأنت تقول .. وتقول ولا أحد يسمعك ، وسميك كان يؤذن في مكة وأنت تؤذن في مدرسة الصم . والجميع نائمون في العسل وكل همك أن ينتبهوا ، أن لا يحملوا هذه الصخور مرة أخري ليبنوا بها تربة للفرعون ، أن لايبنوا مجري عيون آخر لحاكم القلعة إلا إذا كانت ستمد القري والكفور والعذب بالماء وليس للحاكم ومماليكه . وتقول لهم بحدة : هذا عبث يا جماعة ورق أن يبدد شعب طاقته ، وجهده لمدة عشرين عاما لبناء مقبرة وليس لتشييد قلاع وحصون في وجه الغزاة . وتصرخ ، تثور ، تخرج عن حدود المسموح ، فيحذرك أحد المرعوبين حتي لا ينشوك مثل فرج فودة . ويدنو منك همجي تراه لأول مرة ، يقدم

لك نفسه كمراسل لمجلة كذا ، يطلب صورة وتسجيل حوار ، يراك شجاعا لأنك تحدثت عن مجرى العيون وتنتقد ، فتعتذر عن إجراء الحوار فى هذا المكان الصاخب ، فيعزمك علي أي مكان هادئ تفضله وعلي حسابه ، تسحبه للجريون ، وتطلب كبابا وبيرة وتشرب ، تأكل ، تتجشأ ، تسلّك أسنانك وهو ينتظر بالورقة والقلم والتسجيل ، تطلب المزيد ، تراوغه ، تضحك عليه بالنكات الجنسية والسخرية من النساء المشعرات من تحت وتختلق له قصصا ملفقة عن مغامرات ولقاءات كلها أكاذيب ، تضحك وتضحكه عندما تحدثه عن نوع من النساء في بلاد صحراوية بعيدة ، يلزقن بالرجال ، تماما مثل أنثى الكلب وقد يفيض روحك وأنت تحاول الخلاص منهن ، وعندما تحس بالاكتفاء والضجر من مجلسه ، تدعى السكر ، تزوغ منه واعداً بلقاء للحوار في أقرب فرصة . لأنك تعلم جيدا أنه مندوب أحد الشبحين الوهمي أو الحقيقي .. واخترع مجلة ليس لها وجود في قبرص أو لبنان ، وتذهب للمقهي كالعادة وتنتظره حتي تستكرده من جديد ، تستهلك مصاريفهم السرية لأنها من الضرائب التي تدفعها فلا فضل لهم عليك . تنتظر ولا يأتي ، لأنه اكتشف مدى دهائك وثلعبيتك بعد أن تعشيت وسكرت علي حساب الدولة . ولو جاء ، سيكتفي بالجلوس بعيدا عنك والانتقام منك ويسجل عليك قولك : « ملعون أبوه وأبو الـ » مع أنه كلام عادي جدا يقوله أي مأزوم في شوارع المدينة ، يقوله سائق سيارة الأجرة الذي يضايقه عساكر المرور ، وتقوله المومس التي يمسكها بوليس الآداب . وتقولها الراقصة التي يطالبونها بالضرائب . ويقوله العساكر الفقراء الواقفون

الجريون : مطعم وبار فى وسط البلد .

أمام فنادق الثراء ولا يتفضل عليهم أحد بزجاجة مرطبات ثمنها قروش يبلّون بها ريقهم الناشف . لكنك لو قلته ، في لحظة زهق يأخذونه عليك .... لأنك بلال .. والشبح يطاردك ، يسد أمامك كل منافذ النشر حتي أبواب بريد القراء . جمّدك محلك سر . لا نص ينشر ولاحتى خبر من سطرين ، ولا الإذاعة تستضيفك أو تطل مرة من الشاشة الصغيرة أو الكبيرة أو حتي المتوسطة ، كان الحصار جزئيا في الماضي لكنك منذ كتبت روايتك المزعجة وحاولت نشرها والحظر تناولها وتناولك وتتعجب من قوته الأسطورية ، وكيف بسط نفوذه علي هذا الاتساع والمدي . حتي السلاسل الأدبية الخاصة وصحف المعارضة تعتذر لك ولاتدري كيف استعداها عليك ؟ .. هل سرب إليهم أنك عميلهم أو عميل لهمج الحدود ؟ أو بالضغط وحجب الإعلانات ؟! وكيف أزعجته رواية من ورق لن يقرأها سوي الأصدقاء والحالمين بالكتابة والمجانين ، رواية لامخالب لها ولا أنياب . وأنت عنيد ومصمم علي نشرها حتي لو دفعت حياتك ثمنا . وهم لن يكفوا .. يرن جرس الباب ، تفتحه فتجد مخبرا يسلمك ورقة استدعاء لمكتب الباشا ، وكأي جنتلمان ، تذهب إليه في الموعد ، فيلطعك يوما بطوله تقضيه فوق دكة خشبية في حالة انتظار .. وتجهل سبب الإستدعاء ، جئت ، بنفسك ولن تنصرف إلاّ إذا صرفوك .. والساعات تمر عليك بطيئة ، مملة ، ضاغطة .. تزهق ، فتسأل :

- **ماذا عني ؟**

- **الباشا مشغول .**

- **من فضلكم ..**

- الباشا في اجتماع هام .

- وهل علم بوجودي هنا ؟

- الباشا طلبه الوزير ..

- يعني أنصرف أم ماذا ؟

- عندما يأمر الباشا

ويأتي عليك الليل وأنت قاعد فوق الدكة ، تنتظر ، لا أحد يتحدث معك ، يعبرك ، يفسر لك ما يجري ، تحتج بشكل مهذب ، تحادث ضابطا تسأله إن كان هذا يصح ، تستدعون مواطنا وتسمرونه فوق دكة طوال النهار والليل ، فينظر إليك باستعلاء ويرد ببرود : « احمد ربنا إنك قاعد محترم .. أحسن منك ومرمي في الحجز مع الحرامية .. تحب سعادتك تشرف تحت .. ماعنديش مانع ... يا عسكري .. خده يشم هوالغاية ما الباشا يرجع .. » .. تعتذر له آسفا ، تندم علي تهورك فأنت هنا ، تصير رقيقا لايحق لك حتي مجرد التضجر .. ويمر عليك يوم آخر طويل .. طويل . تفرك .. تنفخ .. تدخن . تلعن اليوم الأسود الذى عرف فيه أبوك أمك .. تلعن الحظ النكد الذي أوجدك في هذه البقعة من خريطة الكون ، تلعن قوانين الهمج التي تحمي أبو قردان ولاتحميك . تتمرد ، تقوم لتنصرف ومهما كانت العواقب ، فيمنعك عسكري برشاش واقف علي السلالم ويقول لك بحسم : « دورة المياة هناك .. ولوسعادتك عاوز أى حاجة من برة .. نجيب لك » . إذن .. أنت رهن الاعتقال . لكن لماذا ؟ في

اليوم الثالث يأتي من يصرفك لحين إشعار آخر ، لأن الباشا سافر في مأموريه عاجلة وهاتفنا مشكورا بأمرك . ثلاثة أيام فوق دكة حتي تقرحت عجيزتك ونالوا من صمودك درجة . فتعود لبيتك وتنتحر بالبراندي ، تحاول القراءة وتتوقف أمام بيت شعر : بلادي وإن جارت عليّ عزيزة ، وقومي وإن ضنّوا عليّ كرام ، فتتأرجح بين حالتي الضحك والبكاء .. أي شاعر هذا .. وأي شعر قاله ، إن جارت .. تذهب في تسين داهيه غير مأسوف عليها ، وإذا ضنّوا ، تعطيهم ظهرك وتتفل عليهم ؛ فهذا الكلام يثيرك بسذاجته لأن قائلة لم يجلس ثلاثة أيام فوق دكة ، ولا أكل علقة همجية ، ولا طارده شبح . وعندما سألت شاعر وطن المستقبل والمواقف ، الذي سجنوه شهرين عن تجربة الحبس ، حكي لك كيف قيدوه وعصبوا عينيه ، فرأيت آثار القيد الحديدي حول معصميه ، ورأيت حفرة غائرة في رأسه من عقدة المنديل ، ورأيت أوسمة الكي والضرب بالأسلاك ، ثم انفعل وقام ثائرا وأطلقها كصرخة احتجاج وسط رواد زهرة البستان : أيها الناس .. هل توجد أمة متحضرة في الدنيا تعذب شاعرها ؟! كلهم خرسوا .. وأنت أيضا ، لأنك تعلم جيدا أنها حضارة أهرامات تماثيل ، مومياوات ، ورق بردي .. وأغان .. فعلوا هذا كله بشاعر له اسم وتاريخ وصوت مسموع . ولم يخشوا عرائضكم وضجتكم الإعلامية .. فماذا عنك ؟! تتذكر هذا الشاعر والدكة الخشبية

والقبو المنتن والأكف الهمجية ، فتتبدد عنتريتك ، يحتبس زئيرك ، تتحول إلي فأر .. مجرد فأر . تخشي حتي رنين جرس الباب ، تنظر من العين السحرية خائفا ، فتري رجلا يحمل مقطفا .. تدقق في وجهه ، تشك ، فلا هذا بزبال العمارة ، ولا هذا وقت جمع القمامة . وبالتأكيد ليس لصا متنكرا لأنك لاتملك ما يغري ، كراكيب وكتب وزجاجات بيرة وبراندي فـــارغة ، فيرتفع صوتك من الداخل ،حادًا، متوترًا : من أنت ؟ ماذا تريد ؟ .

- **« أنا الزبال يابيه » ؟**
- **الزبال ؟!**
- **عندك زباله ؟**
- **أنت الزبال ؟ وأين الآخر ؟**
- **زبالكم مريض**
- **شكرا .. لا .. انتظر .**

تفتح الباب ، ترمقه فاحصا ؛ شعر رأسه منسق ، لحيته كأنها منتوفة ، حذاؤه جيد لامع ، حتي الجلباب المتسخ الذي يتنكر به ، تحته منطال يفضحه .. تبتسم فيسألك متغابيا « في حاجة يابيه ؟» . تبتسم مرة أخري ، تربكه ، تأتيه بسلة القامة شبه فارغة ، تقول له ساخرا : قمامتي لن تفيدكم لأني أحرق أوراقي حتي لايقرأها متطفل . يستعبط عليك قائلا : « كده حضرتك بتحرمنا من الرزق ، لأن الفايدة كلها في

الورق .. » فتجادلة : الفائدة يا أخ في الزجاجات الفارغة وبقايا الأطعمة لمزارع الخنازير .. يا خنازير يسمعها ، يفهمها ، لكنه يبلعها وينصرف تستعيد شجاعتك .. تتأسد ، تنزل خلفه بمنامتك وشبشبك ، بحذر تراقبه تسير خلفه ، من حارة لزقاق .. حتي يخرج للشارع الرئيسي ، ويقف ، تمر عليه سيارة بوكس بأرقام ملاكي ، تلتقطه .. فتبصق علي الأرض ، خنازير فعلا . فكم جهة تسعي خلفك ياتري ؟ وقد صرت مغرما بكشف أساليبهم ، تفرح حين تلمّح لهم . وأحيانا تقولها « علي البلاطة » وتغيظهم ، ولهذا يكثفون مناوراتهم ليغيظوك ويتلفوا أعصابك ويرغموك علي ترك الكتابة أو البلاد أو حتي الانفجار . تنفجر في لحظة ضيق ، تتناثر عجينة مخك ، فيستريحون منك ومن قرفك ، يرن جرس الباب كالعادة وتري وجها جديدا تحت ستار النور أو الغاز أو ضرائب العقارات أو معلن عن معجون أسنان . وقد تتركه يرن ، تكركب لكي تشعره بوجودك ،لكنك لن تفتح ، وقد تستقبله صامتا ، متجهما فيكلم نفسه كالمجانين . ثم تقذفها خلفه حين ينصرف : « هو حضرتك من الإدارة ؟ ولاّ روكسي " ..أظن من حمامات القبة ؟ .. عموما ما تفرقش وسلم لي علي الباشا » . وقد يكون من جهة سرية أنشئت خصيصا لأمثالك . وربما تهلوس من شدة الحصار فيرد عليك مصححا : نحن يا افندم مكتبنا أو شركتنا أو مصحلتنا – حسب الأحوال طبعا – فى

شارع كذا . وفي كل الظروف تنبسط من قدراتك الشرطية الفذة والمكتسبة من خلال قراءاتك القديمة لأرسين لو بين وشارلوك هولمز . من يومك شقي مناكف ، لاتريح ، فتسرّب إليهم مايربكهم ويشتت عقولهم وجهودهم ، وأحيانا تكتب كلاما فارغا وترميه في سلة القمامة عن عمد ، تستفزهم . وأحيانا تسكر في البار وتقول ما يحتمل عدة تأويلات . فيتضخم ملفك ويسعون خلفك فلا يجدون شيئا ذا بال ، فتخرج لهم لسانك وتلعِّب لهم حواجبك ، لأنك قرأتهم جيدا علي امتداد السنين ، وحفظت قوانينهم ، بدءًا من عصر حامورابي ومحاكم التفتيش وسي الأمير وحدود النص ووصولا إلي قوانين الهمج . وأحيانا تقوله علي المكشوف وسط رواد البار : ملعون أبوه الذي علمنا الصمت وملعون أبوه من يري ولايقول ، وملعون أبوه من يسمع ولايرد ، وقد ضحكوا عليكم قديما ونسبوا السكوت للذهب .. مع أنه سبب البلاء ولا يساوي حتي الصفيح . ويأتى الجرسون ، يرغمك علي الجلوس غاضباً : « يا تقعد ساكت يا تّروح .. مش ناقصين دوشه ، هو كل واحد فيكم يقراله كلمتين فارغين يصدعنا بينهم .. هنا بار .. تشرب .. تغني ترقص .. تعيط .. ماشي ، عاوز تخطب.. تشوف لك حتة تانية » وأنت تعلم جيدا أن بعض العاملين في هذا البار؛ مجندين . ولهذا تقول حتي يصل إليهم. ذهب ماذا يا أولاد الأبالسة ؟ ولذلك ، كلماً رأيت ، قلت ، فيتمنون قطعه

لك .. لتسكت ، وربما يتهورون ويقطعون الثاني بالمرة حتي تتشوه وتتحول إلي مسخ ، فتنزوي وتتآكل والجميلات حولك .. ولاتقربهن . هذا الاحتمال الوارد.. أرعبك فتحادث عدداً من الأصدقاء ، وتحذرهم من احتمال اختفائك أو بتره لك ، تطالبهم بالسؤال عنك وإبلاغ منظمة العفو وجمعية الرفق بالحيوان وكتابة عرائض الاحتجاج وبيانات الشجب مثلما فعلتم ليلة القبض علي الشاعر ، مع أنهم أقوياء يستهينون بكم ، يلوحون لكم بالبنادق ، وقد منعوا مسيرتكم بالقوة وحبسوكم داخل حديقة الآتيلية لأنكم حاولتم التعبير عن غضبكم بعد الخنجر الهمجي الذي انغرز في رقبة رمزكم ، وأنت تذكر ما حدث لشاعر آخر ، تأسد وهجاهم بقصيدة رائعة ، فترصدوه وهو سكران يترنح ، عملوا له غسيل معدة وسكر في الطريق العام وحيازة آلة حادة وسب السلطات ومقاومتها ، وحكم عليه القاضي بالحبس ويقصي العقوبة وضميره مرتاح لأن الخمور محرمة شرعا وهو رجل مؤمن ويصلي ويعرف ربنا ، مع أن الشاعر أخذ يصرخ في القاعة : يا حضرة القاضي .. لقد شربت في البار ، والبارات مرخصة والحكومة تأخذ ضرائب علي الخمور ونوادي القمار .. ولو كنت عادلا .. حاكم الحكومة قبل محاكمتي . وفي السجن ، ضربوه ووضعوا له مصيبة في الماء ، شربه «وضَرب» وخرج بعد الحبس ، نصف شاعر ، ونصف مجنون ويجلس الآن في زهرة

البستان ، يقول شعرا عجيبا ، يتغزل في النصف الخلفي للمرأة .. فأراح ، ترك لهم جسد الوطن وانشغل بجسد المرأة . وأنت مرعوب هذه الأيام من احتمال قطعه لك . وحين سألوك عن سبب هلعك ، تحاشيت الحديث عن شيئك المعرض للبتر .. وإنمـا حدثتهم عن همك الرئيسي .. عن شادي الصافي ..

- **شادي من ؟**
- **القلم النبيل .**
- **كل النبلاء مصيرهم الموت هذه الأيام .**
- **أنا السبب .**
- **ياعمي .. اشتر رأسك .**
- **صدقني - رحّلوه بسببي .**
- **يا جدع بطل هلاوس .. فلقتنا ...**

كلهم أجمعوا علي توهمك ، لأن شادي الصافي مجرد صحفي محترف متعود علي هذه الممارسات الهمجية ومستعد لها ، ومنذ أن دمر الهمج بيروته الجميل ؛ زهرة مدن العرب ، وهو دائم الترحال . ما يكاد ينصب خيمته ويدق أوتادها في مدينة همجية ويغازل شعبها النائم متوسداً النص ومطمئنا علي آخرته ؛ ماداموا يستهلون يومهم .. بنويت أصلي الصبح ويختمونه بنويت أصلي العشاء وبين العبادات ، يتجادلون في هذا قاله الرسول وهذا قاله العباس وهذا من صحيح البخاري وهذا مدسوس ، تاركين أمر عقيدهم أو أميرهم أو زعيمهم لله : لأنه أمرهم بإطاعته وإطاعة رسوله وأولي الأمر منهم . مايكاد شادي

يغازل هذا النوع المتحفي من البشر ، حتي ينتبهون له ، ويقذفون به خارج الحدود زاعمين أنه بعد تخريبه لبيروت الآمنه ، جاء يخرب مدنهم الآمنة . وقد يطلقون عليه الرصاص أو يحرقون دار نشره أو سيارته ، ومرة حبسوه بتهمة الزندقة وكادوا يسلمونه للسياف الذي يقطع الأيدي والرقاب يوم الجمعة بعد الصلاة ، في ساحة المدينة أمام الناس الذين يشاهدون الأيدي وهي تبتر والرقاب وهي تطير ، والدم وهو يسيل ، ثم يعودون إلي خيامهم وبيوتهم ، يجلسون متربعين أمام أطباق الفتة « وهُبر» اللحوم .. ثم يلعقون أصابعهم ، ويقولون : بارك الله في الخمسة واللهم ديمها نعمة يارب .. وهذا النوع من البشر ، معرض للانقراض والخروج من التاريخ ، ويفلت شادي سالما وهو يتحسس رقبته بعد تدخل أعلي المستويات ، لكنه لايتوب .. يدخل مدنا أخرى ، يشاغب ، يتعرض لعشرات المآزق . شادي حكي لك هذا كله ونصحك بالالتفاف حول النص ومناوشة مفسريه من بعيد ، بعد تجربته الأليمه فى مدن الهمج ، التقيت بشادي وأنت مأزوم ، يحاصرك الأشباح والهمج . وكان قادما لتوه من آخر مدينة طاردة .. نصب خيمته وثبت أوتادها بقوة كآخر محطة ، زاعما أن مدينتك ، هي أفضل وأجمل مدن العرب . اكتشفك ، شجعك ، فتح لك أبواب مجلته بلا تحفظات ووقفتما معا في وجه الريح ، خضتما الأنواء ، نشر لك نصوصا ساخنة ، تحرِّك وتنبش الرؤوس ، وكدتما أكثر من مرة تتعرضان للمساءلة . لكنه حين قرأ روايتك ، رأي استحالة نشرها هنا ، لأنها دخلت المنطقة الحرام ، منطقة العسكر ، وتولي أمرها . أرسلها بالبريد المسجل والسريع فضلت طريقها ، تعجب وأرسلها مع مسافر ، وضعها بنفسه فى حقيبة ملابسه أوصله

للمطار وانتظر حتي إقلاع الطائرة .. لكن المسافر أبرق له بعد أسبوع بفقد الحقيبة ؛ المطار الذي هنا أكد شحنها مع الراكب ، والمطار الذي هناك أكد عدم وصولها مع الراكب .. لم يبق غير تفسير واحد ؛ سقوطها من الطائرة في السماء .. كيف ؟ طيب ماذا حدث ؟! عندها ، تأكد شادي من حكاية شبحك الأسطوري . وفي لحظة جنون ونزق ، قرر القيام بمغامرته الكبري ونشرها هنا ، خلع أوتاد خيمته ، جهزها ، سرب صورة من الرواية مع أوارقه الهامة لصديق حميم إليه ثم بدأ يجمع الرواية ، يذهب بنفسه لمكتب الجمع التصويري ، يتسلم الأصول والزنكات ، وقبل دفعه بالحلقه الأولي إلي المطبعة . اختفي ، رغم كافة الاحتياطات .. اختفي ، ياالشادي المسكين . كان يتباهي بمدينتك .. فماذا يقول الآن ؟ ولقد أبرقت ، كاتبت ، هاتفت ولم تتلق إجابة شافية . والسؤال الذي حيرك : هل خرج من هنا فعلا ؟! وكل اتصالاتك في العثور عليه مرمياً في قبو أو محتجزًا في معتقل .. فشلت . ولم يبق عندك سوي احتمال واحد .. أنهم باعوه إحدي المدن الهمجية التي تطالب برأسه . أنت وروايتك المشئومة والشبح . الآن عرفت حجم مطاردك وقوته . لقد بسط نفوذه علي دور النشر ، صناديق البريد ، حقائب المسافرين مصائر البشر ، وراءك .. وراءك حتي لو دخلت .. أمك إما أن تخضع وتضع « بلغة » في فمك وتسكت وتنسي الرواية والكتابة وتتجه لعمل آخر ، أو تحتمي بالشبح الحقيقي .. صاحب الرقم السري وتقول له شبيك لبيك ، لينقذك من الشبح الوهمي ، ويبقي أمامك سؤال : أيهما أكبر وأقوي نفوذا ؟ من هذا وذاك ؟ أيا كانت النتيجة ستكون في مأمن . لكن ما الثمن ؟ ستنجو مؤقتا ويهلك العشرات من كتيبة الدفاع

فتسقط أهم قلاع المقاومة ، وتدخل التاريخ من أقذر أبوابه .. لكنك لن تفعل ، وستظل وحدك في وجه الريح رغم حيرتك من أمر هذا الشبح المجنون الذي يطاردك من أجل رواية تدور أحداثها في زمن مضي .. عندما كنت عريفا في حرس الحدود وتسجل مشاهداتك عند هضبة السلوم التي ضاع فوقها مستقبلك العسكري حين دسوا عليك غلاما والشاهد البدوي الهمجي قال لوكيل النيابة بعد حلف اليمين : « الوليد هادا كان ماشى مغرِّب • يدور علي رزقه ، والشاويش هادا مسكه بحدا السلك وأخده للخيمه ، وأنا كنت ماشى ورا غنماتي ، لماّ رأيت اللي صار مشيت للشاويش وقلت له : يرحم والديك ياخوي الوليد هادا يتيم خليه ، وإن كان تريد تفتوفة • ، هاك ، لكنه حط الباروده في وجهي وقال لي امشي يا شيباني • يا جربوع .. ونحنا نخاف الحكومة .. مشيت قعدت بعيد أشوف إيش يصير ، وحق الله سمعت الوليد يصرخ : كنّك يا شاويش .. هادا حرام .. هادا عيب .. وأهه الوليد عنك .. اسأله ، إيش الله صار معاه ؛ لأني سمعت ، لكن ما رأيت » ، الهمجي ، حلف كذبا علي النص الذي ارتكزوا عليه في فتح الأمصار . لكن ما علاقة شبحك بوقائع الهضبة ؟ من كان في تلك الفترة ؟ تستبعد الجنود والصف ضباط والبدو ، فليس بينهم من يصل لمنصب رفيع ، لم يبق سوى ضباط تلك الحقبة ، النقيب مجدي قائدالسرية ، والملازم حتيته الزوام مسئول أمن الصحراء وآخرين وهذا اللغز المحير لن يحله سوي بطل روايتك وأسطورة الهضبة ؛ المساعد أول قناوي الشريف ، فأين هو الآن ؟ حتي

• مغرب : غرباً • الشيباني : الكهل • التفتوفة : الرشوة

قناوي بنقائه وتدينه حاولوا تلويثه بادعاءات مبروكة البدوية . لكنك في رحلتك الطويلة ومعاركك نسيت بطل روايتك ، كتبت عنه ونسيته ، خلدته نفضت عنه التراب ، أعدته لذاكرة التاريخ .. رغم اختلافك العقائدي معه وتحفظك علي أسلوبه البدائي في تأديب فقراء الهضبة كانوا يمتهنون التهريب اضطرارا وكان يؤدي واجبه التزاما . فلماذا لاتبحث عنه وتستعيد الأسماء والوقائع معا . أنت في حاجة لشاهد يساندك بعد أن دفعت بالرواية لمطبعة خاصة وعلي نفقتك ، قد يلجأ الشبح لنصوص القانون ، وقد يستن قانونا خاصا من أجلك ويحاكمك بتهمة إفشاء الأسرار العسكرية ، فيخرج لهم قناوي من جوف التاريخ ويصرخ أمام المدعي العام العسكري : أنا المساعد أول قناوي من قوة السرية السابعة سيارات حدود ، وكنت شاهدا ومشاركا لأحداث تلك الفترة . والكلام الذي كتبه الأخ بلال عثمان كله حقائق وأحلف بالله العظيم أنه قال الحق .شبحان يلتقيان بعد مايزيد عن ربع قرن . وأنت الآن في سباق مع الزمن بعد مراجعة البروفة الأولي . قناوي الشريف ، الذي من أشراف قبائل قنا .. في أي قرية أو نجع يسكن ؟ تتحري عنه ؛ من سجلات سلاح الحدود تبدأ رحلتك ، ثم تسأل بقايا دفعته ، وتجوب تجمعات عساكر الحدود في المطرية وعين شمس الغربية والشرقية والجبل الأصفر المحطة والمنشية : « ياه .. قناوي الترباس . أبو كرباج اللي كان عامل فيها نبي – اللي نشفها . اللي كان بيحرم الحلال . مش الحمار اللى سلم عشرة آلاف جنيه . جته داهية راجل مفوت . واللي ... واللي . يا راجل .. افتكر حاجة كويسة . تلاقيه قاعد هناك بياكل بتاو

وبصل .. وكل دفعته ربنا فتحها عليهم ، اللي بني بيت ، اللي اشتري أرض ، اللي اترقي ظابط .. قعد يزن لماً أدوله بالجزمة .. » تخرج من رحلتك البحثية مصدوماً ، مشوشا ، مصدعا . لكن بخيط ؛ هو من قنا المدينة .

- ٢ -

وأنت تهييء نفسك للسفر العاجل ، إلي موطن بطل روايتك ، باغتك رنين هاتف ما قبل الفجر ، نفس التوقيت الشائك ونفس الصوت المستفز ..

آلو .. من ؟

- صباح الخير يا أستاذ بلال .

- أنت ؟

- نهارنا لبن

- أتعشم ذلك .

- أسمعت آخر خبر ؟

- لا تقل أعدموا شادي ؟

- انتهينا من شادي .. إنساه .

- إذن .. أقالوا وزارة الغلاء !

- وهذا بعيد عن شنبك .

- انقلاب عسكري ؟!!

- لاتحلم بالمستحيل .

- وجدتها .. زلزال في تل أبيب ؟

- الزلزال عندك .

- عندى ؟

- مطبعتك تحترق .

- مطبعتي ؟!

- التي تطبع روايتك

- من أنت ؟

- راجع نفسك قبل أن ..

- أتهددني !

- لا مصلحة لي ..

- من تكون إذن ؟

- ستعرفنى يوما .

- والمانع الآن .. ؟

- تصبح علي نار ..

- انتظر .. ألو .. لو ..

تقذف بالسماعة . تتجرع سما علي الريق .. تركض في شوارع خالية كالمجنون .. فتجدها متفحمة وصاحبها يصرخ والناس يصبرونه : « قضا أخف من قضا .. أنت عارف كان هيحصل إيه .. الحمد لله إنك سليم والفلوس بتروح وتيجي » . وهو يلطم كالحريم : « قضا إيه يا ناس .. شقا عمري كله راح .. لكن ازاي ؟ قولوا ازاي ؟ فاصل مفتاح النور بإيدي . مابشربش سجاير ولاجوزة . وماعنديش أي حاجة

ممكن تولع لو حديها .. بس أعرف .. إزاي ؟ فهموني .. النار جات منين .. ؟! " حتي التفحم – ؟! فأي شيطان أحدث هذا الهول ؟! وأنت تشك ولن تصرح .. فالدليل ينقصك فتنصرف غاصبا . وقد تنفجر من الغيظ .. وهذا ثاني ضحاياك .. لكن منطقيا ... يستحيل اتهام الأشباح . وهذه المكالمات الهاتفيه ! أهي أيضا أوهام ؟ وهل وصلت فعلا إلي أبواب الجنون ؟! وكل من تخبره .. يؤكد توهمك .. حالة فوبيا : « رواية إيه يا جدع ! . وأنت إيه أنت ؟ ولّأمين أنت ؟ مغرور قوي وواخد في نفسك مقلب .. ليه يعني .. هتعملّي فيها ماركيز » . وهم علي حق .. فالإبداعات تزحم الأرصفة والمكتبات ، وحرائق القاهرة لاتلاحقها سيارات الإطفاء وقد يكون صاحب المطبعة انتهازيا يسعي وراء بوليصة تأمين . هكذا يبسِّطون يفسّرون . ويقولون لك ساخرين : ابحث عن طبيب نفسي ، أو جرب مطبعة أخري . وقد فعلت بنصيحتهم الأخيرة وأنت مشفق علي صاحبها ، لكنك أوصيته بالتحرز من المداهمات وأولاد الحرام والحرائق ؛ لأنها رواية مشئومة مثل لعنة أجدادنا ..

- ما الحكاية يا أستاذ ؟
- لاشيء ..
- كلامك لا يريح ..
- لاتقلق يا عمى ..
- الأرزاق علي الله . خذ روايتك ودعنى لحالى .

تتراجع ، تخترع له سببًا وهميًا ، تقول له عن كُتاب السيناريو الذين يسرقون النصوص قبل طبعها حتي يكون لهم الأسبقية القانونية في حالة الاكتشاف . هكذا تخلصت من المأزق وضميرك يؤنبك . لو قلت له عن الشبح ويده الطويلة الباطشه ، لاعتبرك من المجانين ، شادي حاول التأكد بالتجربة فدفع الثمن . رغم أنه صدقك بعد ضياع الحقيبة . وأنت الآن تحاول الوصول لليقين عن طريق هذا التعس ثم سافرت باحثا عن بطلك ، لو عثرت عليه حيا تكون الضربة . فكيف نسيته مع أنك خلدته مثل عنترة العبسى والهلالى وأدهم وشيخ العرب همام ؟ وكأنك تخلد به الآخر الذي مات بالقلب وتصلب الشرايين بعد عودته من المطار في ذلك اليوم الحاقل بالحوار العنيف مع الرؤساء الـ .. .... ، ذلك اليوم الأسود هل تذكره ؟ يوم الحزن القاتل ، يوم القيامة ، الرجال يبكون ، الأطفال يصرخون ، النساء يلطمن ويندبن . وأنت وقفت حائرا مندهشا ممزقا في البداية ، عودتك من سينـــاء ما شيا منكسرا كانت ماتزال ماثلة وضاغطة ، ثم انهرت ، بكيت ، زحفت مع الزاحفين ، سبقتهم إلي منشية البكرى ، قضيت الليل كله تبكى عندما تسمع نساء كوبري القبة وحدائق القبة يقفن في الشرفات والنوافذ يصرخن . مات فخلدت قناوى مكانه . كلاهما قاوم بطريقته . رموز لوطن تحلم به وتحبه وليس للوطن الملاكي أو العزبة ، والذي ترفضه كلمّا اشتد عليك ضغط الشبح ، وكلمّا رأيت

تلك السيارات المسلحة في ميدان سليمان ، وكلماً رأيت زحام ذي اللحى والجلاليب البيضاء في مسجد الدقي .. والخطيب .. يشحنهم ويكفر الجميع ، ويخطِّيء الجميع ويقول بصوته المنغم : اللهم خرِّب ديارهم .. آمين . اللهم شتت أولادهم .. آمين ، وهذا الرجل المجنون لايقصد بكلامه همج الحدود ، وإنما يعني كل الذين هنا ... وأولهم أنت وكنت تتمني لو تتفرغ لمثل هذا المجنون الذي يسعي لخرابها ويحلم بحفر الرجم وساحات قطع الأيدي والرقاب بالسيف ، لكن الشبح يشتت جهودك ، يفتح أمامك معركة جانبية ، وها هو مخبره الغبي يقف خلفك في طابور حجز تذاكر قطار الصعيد ، عرفته من ملابسه وتكشيرة وجهه وجنبه الأيمن المتضخم بالمسدس الميرى . ومثل هذا الرجل ، لايحجز أبداً في الدرجة الأولي ، ركبت ووجدته قد سبقك للمقعد الملاصق .. إذن ثمة تعمد ليكون بجوارك وكأنك رهن الاعتقال القطاري . قلت لنفسك : فرصة وجاءتك ولكن ودين النبي « لأطلع روح أمك يا ابن الدايخة » فبدأت تضايقه بالحركات الصبيانية ،تتصنع النوم، تشخر تميل عليه برأسك ، تسنده علي كتفه .. يعد لها لك ، فتميل بقوة وتواصل مضايقته ، حتى يقوم ويذهب في ستين داهية ، لكنــه مكلف ولن يذهب . وأنت لن تتركها له . ستتحمل هذا الجلف طوال الطريق بطبنجتــه وإحساسك بوجوده . فتواصل حركـــاتك فيحتج : « يا أستاذ .. فـوق بقي .. يا أفندى مش

كدة .. الله .. وبعدين » اعتراضه الحاد علي حركاتك ، إنذار بهجوم مضاد ، فتتحرز منه حتي لا يقلبها ميري . وتسأل نفسك : ما فائدة وجوده هكذا بجوارك إذا كان مكلفاً بمراقبتك ؟ تستيقظ هواجسك ، تحتضن حقيبة سفرك ، تتحسس جيوبك حتي لايدس لك شيئا . والمسافة طويلة وأنت صامت وهو يحاول سحبك للحديث ، يتودد إليك بكوب شاي فترفض بالإشارة . طيب سيجارة يا بك .. ترفض أيضا . يطلب جريدتك ، يقرأ ويحاول الاستفسار عن بعض العبارات والمصطلحات السياسية . فتلوي بوزك ، لا ترد . شيطان شقي حرضك علي تصنع حركات البكم ومحاورته بالإشارة ، بالأصابع والحواجب واللسان والشفتين ؛ مبارزة عجيبة في التمثيل الصامت ، وهو لا يكف عنك ..

- « تعرف يا أستاذ .. الجرايد دي كلها كدب فى كدب وبالذات جرايد الحكرمة .. »

تختلف معه بالإشارة ؛ تضم أصابعك ، تهز قبضتك رافعا إبهامك على طريقة أولاد البلد « يعني كدة .. مية .. مية » .

يستغرب من طريقتك المتقنة في لغة الإشارة ودفاعك عن الحكومة .. ويضيف :

- « دول خربوها يا أستاذ »

تشير إليه ، إلي نفسك ، للركاب .. يعني الكل مسئول .

- « دا أنت معاهم بقي ؟ »

ترفع سبابتك إلي السماء ، فيغير الحديث إلي اتجاه مختلف ويسأل عن رأى حضرتك في اتفاقية السلام والتطبيع ، فترفع أصبعيك بعلامة النصر ثم تضم أصابعك وتطرقع قبلة ، فيسكت لدقائق ثم يقذف بها علي المكشوف بسذاجة وغباء : « .. بس إيه رأيك يا أستاذ .. أنا ليه تصور تاني في المسائل اللي ما شيه .. العيال بتوع الصعيد دول .. والله العظيم جدعان .. مطلعين روح الحكومة .. » ولم يكن أمامك سوى الرد الحاسم الصادم .. فتتفل بشدة علي الأرض وبطريقة فجة ، وكأنك توجه الرسالة لهذا الغبي والأغبياء الذين وراءه وعلي عيال الصعيد والهمج الذين يحركونهم والمؤسسات المشبوهه التى تساندهم ، ويبدو أن الرزاز تطاير عليه ، مسح وجهه بيده والأرض بحذائه ، نظر إليك بغيظ وأنت تبتسم وتخرج له لسانك فيقول غاضبا : « أنا غلطان واستاهل .. في حد عاقل يكلم واحد أخرس وأهبل » . تصدمك كلماته ، تفوِّت ، تداري بسمتك لأنك مثلت ودخلت عليه ، ثم تلوم نفسك كعادتك ؛ فربما يكون الرجل مجرد مواطن عادي مأزوم يفضفض عن همومه مع راكب عابر وأن التضخم في جنبه الأيمن ناتج عن مرض أو فتق جراحى وليس من مسدس كما تظن ، وتفكر في الاعتذار ومعاملته بود . لكن

راكباً مارا من أولاد الذين .. يفسد حلمك ، يعيدك لمنطقة جحيم الهواجس ؛ حيا الرجل الجالس بجوارك قائلا : إزيك يا عوضين .. على فين كده ؟ » . وأنت تتخيل لغة العيون الصامتة المحذرة ، لأن عوضين هذا ، لم يرد .. والرجل مشى في طريقه وكأن ثمة خطأ أو تشابها ، فتنشغل بالجريدة موهما إياه بعدم افتضاح أمره ؛ مجرد صول نمطي من عصر غابر كرّموه بالملابس المدنية وكرنيه المباحث لتفانيه وإخلاصه في استدراج المأزومين وتفكر جديا في الانتقام وتخطط لتفجيره . وبمجرد اقتراب القطار من محطة سوهاج ، أستأذنته لقضاء الحاجة ، سلمته حقيبتك ، أوصيته المحافظة عليها خوفا من اللصوص ، موحيا له باحتوائها علي أشياء ثمينة . ولم يكن بداخلها سوي منامة وفوطة وشبشب ومعجون أسنان . وتركت جرائدك ومجلاتك فوق مقعدك . قلت هذا كله بالإشارة ثم نزلت من القطار وانتظرت حتي تحرك فركضت بسرعة حتي حاذيت النافذة ونقرت عليها – فقام فزعا يحثك علي سرعة الركوب وأنت تجري ، تضحك والقطار يجري وسبابتاك فوق رأسك تحركهما له كالقرون . وأسرعت بعدها بالخروج من المحطة وركبت أول سيارة بيجو في طريقك إلي قنا . وتتخيل ما حدث بعد ذلك ؛ حقيبة تركها راكب مع صول أهبل وهرب . ثم تسترد إنسانيتك من دنيا الهمج وتحزن علي هذا المسكين الذي أوقعه حظه

السيء في طريقك وسيظل طول عمره يلعنك ويدعي عليك فى مقام الحسين ، لأنك تسببت في عزله وإعادته للصفوف والبدلة الميري والحذاء اللعنة وفقد كرنيه المباحث الذي كان يرهب به الناس الغلابة ويتميز به عن خلق الله كواحد من المهمين . وهذه المناوشات والحروب الصغيرة والانتصارات الجزئية قد تريحك نفسيا ، لكنها لن تحسم معركتك مع الشبح . وهؤلاء الصغار التعساء .. ليسوا أعداءك وإنما يؤدون واجبهم مثل قناوي الذي خلدته تماما . وتفكر في النكوص خوفا من عواقب لعبتك الصبيانية واحتمال تعرضك لمتاعب جسيمة وسخافة فكرة البحث عن صول ترك الخدمة من زمن بعيد ؛ كبر وشاخ وذاكرته تآكلت . هذا لو كان له وجود ولم يسافر إلي الرحلة التي بلا عودة . ولو عثرت عليه ، لن يفهم معنى أن تكتب عنه رواية ، لأن ثقافته دينية ولا يفهم في الأدب ، وعرفك جنديا ثم عريفا تجوب معه الجبال وتأكل معه في الجروانه* ولم يسمع بك كاتبا ، وهو شبه أمي حفظ القرآن والأحاديث بصعوبة ويتشبه بعمر بن عبد العزيز وجده ، وكان كلماً رآك تمسك كتابا غير القرآن ، يتعجب من مسلم يقرأ ولا يتجه لكلام الله وينصحك بالعودة قبل الفوات .. وتندم حيث لا ينفع الندم ، فتقول له يا عم قناوي ، قال : اقرأ .. ولم يحدد ماذا نقرأ وتركه لنا مفتوحا – فلا يقتنع

الجروانة: تعبير مطلق على أوعية طعام الجنود

وبالتالي لن يفهم معني فتح ملف تم إغلاقه .. فهذه حربك ومجدك وهوايتك ولاناقة له فيها وربما فقد حماسه القديم وتوهجه وخلع ماضيه مع بدلته العسكرية ، ربما تدروش ، ربما تأجج واشتعل من شدة الإحباط والفقر والتأويلات المحرَّفة وتحول إلي همجي يقود فرقة مخدوعين يخوض بهم حرب اليأس والدمار والثأر وسكة الخراب . فكرت في هذا كله وأنت علي أبواب محافظة قنا يحيط بالسيارة كمين أمني في وضح النهار . والضابط يسألك مرتابا عن موطنك ، وظيفتك ، مقصدك ، أوراقك . يسألك عن هذا كله وأنت مواطن ، داخل خريطة الوطن . تتأزم ، تتضايق من أسلوبه .. فلا تريحه .. وتقول له ساخرا : وظيفتي الكتابة عن الناس ، مقصدي التعرف علي بلادي .. سياحة داخلية ، قاهري المولد والنشأة ، مصري الهموم ، جنوبي الأب ، شمالي الأم وأعبد الكون كله بصرف النظر عن المكتوب بالبطاقة في خانة الديانة ، عربي اللسان بحكم الضرورة والواقع . فيقاطعك بنفس سخريتك المرة وعلي طريقة يونس شلبي : « .. بس .. بس .. إيه داكله .. آ .. أنا منصور ابني .. أنا منصور البتاع .. بتقول إيه أنت ولاعاوز إيه أنت ؟ إنجليزي دايا مرسى ؟ » يضحك فيضحك معه الواقفون وينظرون إليك وكأنك قادم من كوكب آخر وبنادقهم موجهة نحوك ، وتشم رائحة البارود تهب من مزارع القصب ، واحتمالات الشر واردة ..

- قلت ماذا تعمل سيادتك ؟

- كاتب ؟

- في أى مخبز ؟!

- يا باشا كاتب .. يعني أديب .

- الأخ كاتب « كتابه » يا جماعة .

ها - ها .. ها « ظريف والله يا مضروب .. كاتب كتابه قال .. »

- وقلت قادم للفرجة ؟ سائح يعني ؟

- كلك نظريا باشا .

- الأخ « سايح » علي روحه يا جماعه .

ها .. ها .. ها .. « وبعدين معاك بقى » ولماً وجدك تضحك مثلهم ولم تفقد أعصابك كما توقع ، نظر إليك من فوق إلي تحت بازدراء ؛ فملابسك لا توحي بالثراء وليس معك كاميرا ولا حقيبة ولاتلبس قبعة ونظارة شمس . فحـــاول تجريحك : « أول مرة في حياتي أشوف سايح جربان ومقّيح .. سياحة إيه يا جدع .. بالذمة دا وش سياحة .. واللاّ فاكرنا بريالة ؟ وما فيش في قنا غير الجرب والقلل وروس محشية جذم .. وجـاى تخمنى يا حتة بتـاع أنت .. تلاقيك منهم وجاى ناتف دقنك وهربـان .. مـا هـو يا تصارحنى ، يا ألففك كعب داير وأطلع .. أمك .. » .

تنظر إليه بغضب ينذر بهلاكك وهلاكه .. لكنك تمسك أعصابك ، تفرمل بآخر قوتك ، فالبنادق تحيط بك .. تنفعل .. تموت فطيس .. كلب

وراح . فترد عليه بأدب : حذار يا سيدي لأن جذوري جنوبية وأحترم الصعيد وأهله ، فمنهم العميد ورفاعة والعقاد وقناوي والزعيم رغم أنفي وأنفك .. ذلك الذي أضاء وقاوم ثم مات قهرا ومرضا .. فيمط شفتيه ، يضرط بفمه مستهينا بك وبكل هؤلاء القمم ويسب الحظ الأسود الذي حدفه بين هؤلاء المتخلفين .. تخرس ؛ لأن الحكاية سخنت وطيور الموت السوداء تنعق ، فتترك مصيرك بيده وكأنــه الواحد القهار ...... إن شـــاء عفــا ووضعك مع المبشرين بالجنة وإن غضب أخذك تحرِّي وأوصي عليك الشياطين لوجودك غير المبرر في هذه البقعة المشتعلة وفي توقيت حرج . وربما لا تفلت من هذه الدائرة الجهنمية أبداً . فتقولها له : يا سيدي لاتغضب هكذا .. إن أبيت .. رجعت ، وإن سمحت واصلت .. فالأمر لك والملك لك . ينتفخ ، يتضخم ويحس كأنه إله فعلا وبيده الأمر ويعفو عنك « .. اتفضل وما تبقاش غلباوى وتتفلسف وتقول أبي جنوبى وأمي شمالية وهمومي مصرية .. أمّال أحنا بنيِّل إيه هنا ؟ ما علشان همومنا زفتية .. ولا شايفنا بنرقص ديسكو .. روح يا شيخ بلا كتّاب بلا هباب » فتسرع بالرحيل قبل تراجعه وتهوره .. وطظ فيك وفى كتاب العرائض وفي اتحاد كتابك الذي لايحرك أو يتحرك ونادى قصتك الذي أحيل للمعاش مبكرا ومسئول ثقافتك الذي مع الحكومة ولا يغيث إلاّ المرضى المشرفين علي الهــلاك ويرسلهم للخــارج لكى يموتوا على

حساب الدولة . وحزب التجمع الذي يكرس جهوده للدفاع عن الرفاق القدامي . ولا يعترف بتقدمي إلاّ إذا دخل السجن . وفي حزب الزعيم الذي يسعي لانتزاع الحكم . وفي حزب الباشا الذي يصفى حساباته مع الناصريين ، وفي حزب العمل الذي يرفع شعار الحل في الإسلام ، مع أن اليابان استطاعت حلها بدون شعارات . وطظ في كل حكومات العالم المسمي بالثالث والتي تسلم أوراقها لوزراء الداخلية والدفاع محتمية بهما . تقول هذا كله وتواصل رحلتك العبثية بحثا عن رجل مجهول ، وتشعر بأقدام خلفك ؛ لأن الضابط مازال مشحونا ضدك ويتمني الإمساك بك متلبسا ولن يجد شيئا .. لأنك جئت باحثا عن قناوي في مدينة قنا . ومهمتك تشير الشكوك ، تفتح شهية المتابع ، يتخيل وقوعه علي صيد ثمين . وأنت لا تعرف للرجل نجعا ولا شارعا ولا وصفا دقيقا لشكله الآن . فيقودونك لأحد بطون قبيلة الأشراف . رحبوا بك ، قادوك لمندرة كبار الضيوف لكن البنادق والهراوات كانت علي بعد خطوات منك لأنهم شكوا في أمرك حين وجدوا من يتابعك فطاردوه وابعدوه عن دائرة نفوذهم.. ومملكتهم التي زحفوا عليها واقتنصوها من أهلها أيام الفتوحات . وتسأل نفسك : أشراف علي من ؟ لأنك تشجب التمايز والتفاخر والانتساب لغير هذه الأرض وأهلها . جاءوا هاربين من التصحر والجدب والجوع. أهلا وسهلا. لكن لماذا يحتفظون بألقابهم ؟

وأنت أحببت قنـاوي وخلدته في روايتك .. لا لأنه صعيدي من أشراف قنا ، إنما لدفاعه عن البقرة . مثلما فعل الذي مات بالحسرة وهو يدافع عن البقرة الأم . خلدته رغم اختلافكما الفكري ، فهكذا هو ، فأحببته علي فطرته وبساطته وتدينه ، لأنه لم يرفع سوطه لإرغام الناس علي الصلاة وإنما ليكفوا عن حلبها بهمجية ويموت صغارها جوعا .

والرجال يتكاثرون .. « أهلا يا سيد خالك .. مرحبتين يا عرب نورت البلاد .. شاي يا بنت .. قهوه كمان .. جهزوا الغدا يا جماعة .. » وأنت توضح لهم أنك تبحث عن الصول قناوي الشريف الذي من قنا والعرق يتصبب .. فالبنادق تثيرك بصرف النظر عن الأيدي التي تمسك بها والعصي تذكرك بالمعارك الهمجية في بولاق وباب الشعرية وسوق الخضار .. وحيث يتجمع ويتكتل أهل الهراوات .. ومهمتك مريبة بين قوم متوترين بحكم الظروف والتكوين وضيق الأفق . هفوة لسان وينتهي أمرك . يسألك أحدهم مداعبا عصاه وشارية : «وجاي وجايب وراك البوليس ليه يا خال ؟! » لا تجيب . خرست خوفا والعرق ينزلق إلي عينيك ، تحس بملوحته في فمك « وكمان قهوة .. زيادة ولا مظبوط يا خال ؟ » تغمغم .. مراقبا الوجوه ، الأيدي ، الساحة الخارجية : « أي حاجة .. أي حاجة » . وهذا الموقف المعقد ، الملتبس ، المريب ، سيحله ظهور قناوي ، ولن تعرف عن مكانه ما لم يتبينوا حقيقتك وسبب بحثك

عنه بعد أكثر من ربع قرن . فتبدأ معهم من الأول ؛ منذ كنت جنديا والعريف قناوي حكمدارك بين مواقع سيناء الشمالية والجنوبية . مرات علي بعد خطوات من الخطر وأحيانا في مناطق موحشة شديدة الجدب والقسوة . ثم سافرتما معا لمساندة السلال وبعد المهمة عدتما معا وشحنوكما بسرعة إلي « التمد»* أيام حرب الخسارة والفجيعة .

ثم تفرقتما والتقيتما معا فوق هضبة السلوم وخضتما معا حرب الأغنام والحمير . وهذا الكلام السردي ، لا أبهرهم ولا أفادهم . فينظرون إليك في حيرة وكأنهم يتساءلون : وماذا تريد ؟ دائن أم مدين ؟ طالب مساعدة مادية أم هارب تنشد الحماية ؟ صديق أم عدو ؟ ماذا وراءك يا تري ؟ أسئلة كهذه بالتأكيد وردت إلي أذهانهم . فتبين لهم مدي اشتياقك إليه ، ووجدت لديك وقتا بعد طول نسيان وانشغال للسؤال عنه ولابد من تبرير منطقي لسبب حبك الكبير ، فتحكي لهم عن مواقفه دون ترتيب ؛ الذي يأتي في بالك ، تحكيه لهم : أثناء حرب اليمن ، كنا ضمن قول عظيم لفتح طريق وادي علي الذي قطعه المتمردون علي قواتنا . طابور طويل من الدبابات والمدرعات وسيارات الظل ومدافع الهاون والـ آر . بي . جي . طابور كالذي يمر أمام منصات العرض ، أوله عند قبائل عبسي .. أهل عنتره . وآخره عند تهامة . وكان اليمنيون المارون بالطريق يفرون مذعورين عندما يشاهدون هذا الهول المتحرك . حتي

* للتمد : منطقة حدودية فى سيناء الجنوبية

الأطفال وقفوا بعيدا ولم يعودوا يركضون خلف سياراتنا كالعادة صائحين : بسكوت يا مصري أعطني علبة حوت* . أعطني بقشة أو هللة . وكنا نحبهم فنقذف لهم بعلب البسكويت وعلب السردين و « البقشات والهللات » * . وهذا الطابور المخيف ؛ أرعبهم وأبعدهم . وظن القائد ، أن الذين قطعوا الطريق ويكمنون فوق الجبال ، مثل من شاهدناهم علي طول الطريق وقال عنهم مستهينا : « دول شوية بتاع » ولذلك لم يطلب معاونة جوية للتمهيد قبل الهجوم . وعند مدخل الوادى ، نصبنا الهاونات ووجهنا مدافع الدبابات وال ،. م . ط .وهات ياضرب » ثلاث ساعات من التمهيد المدفعي المكثف حتي تداعت الصخور ، ارتجت الجبال ،اشتعلت الرمال، فرت الكائنات مذعورة تطلب الملاذ ولاملاذ . وخلال هذا العرس النيرانى لم نسمع طلقه واحدة من الجانب الآخر ، فتأكدنا تماما بأنهم فعلا « شوية بتاع » .. ودخلنا ببطء وحذر إلي وادي الموت ؛ الدبابة كاسحة الألغام في المقدمة وأمامها أفراد سلاح المهندسين بالمجسات اليدوية وباقي الدبابات وراء ها . والوادي طويل ضيق والصمت مريب . ساعة كاملة نسير ، بنادقنا ورشاشاتنا ومدافع الرباعي كلها موجهة لقمم الجبال في وضع استعراضي جميل والقائد مثل عظماء التاريخ يمسح الجبال بنظارة الميدان وأكمام قميصة مشمَّرة . ولا عدو ولا يحزنون ، فبدأنا ننكت ونغني : الله أكبر فوق كيد

---

* الحوت : الأسماك المعلبة *البقشة والهللة : عملات يمنية صغيرة

المعتدي ، ونلتقط أنفاسنا ، ثم «هوب» سمعنا انفجارين هائلين ورأينا دخانا وغباراً وصراخا وأجسادا تطير في الهواء ؛ كاسحة الألغام نفسها - للعجب - انفجر في جنزيرها لغم حديث فتعطلت ، حاولت دبابة أخري تفاديها .. فواجهت نفس المصير وانسد طريق التقدم ، والجبال التي كانت صامتة والصخور التي ذابت ، كلها تحولت إلي شياطين ، مئات البنادق ومدافع البازوكا أمطرتنا بوابل من الهول . هم فوق مختبئون، ونحن تحت مكشوفون وحدثت فوضي وتقهقر ارتجالي ، كله مارش دير للخلف في وضع مأساوي محزن ، السيارات تصطدم ببعضها وأطقم الدبابات يفرون من فتحات الطوارىء السفلية . هذا يوم يصعب نسيانه . ووجدت نفسي عاجزا ، مجروحا ومرميا .. أصرخ ولا منجد .. فجهزت البندقية لأضرب بها نفسي لو باغتني الهمج حتي لا يمزقوني بالخناجر كعادتهم أو يأخذوني أسيرا ويربطونني بالسلاسل كالقرد وتأتي القبائل تتفرج ويملأوني بصاقا وسبابا .. لكن قناوي سمعني أنادي فطمأنني .. وكان صامدا في مدخل الوادي يستر المنسحبين ، ووجدته يجري نحوي وسط احتمالات موت مؤكد ، ويلتقطني بسرعة ويخرج بي من الوادي ، فأعطوه شريطا وصار بعده الرقيب قناوى .

- **الله .. الله يا فارس .**

- **يا شريف**

- **يا جبل**

- **يا سيد الرجال**

- **ربنا يشفيك يا بطل**

فيأخذك الحماس ، وتروى المزيد وكأنك حكاء سير ، تحكى .. والأشراف يتقاطرون من القرى والنجوع وشوارع المدينة وتزاحموا حولك وبت فى حاجة لمكبر صوت حتى تصل حكاياتك للأطراف، وماتزال فى اليمن : كنا نعسكر فى منطقة اسمها زهر أبو طير قبل سوق الأمان تتبع محافظة حجة . وأمامنا أكبر جبال اليمن علوا تسكنها واحدة من أشرس القبائل ، رفض شيخها الانضمام إلينا وظل مفسدا . وحولنا قبائل اختارت السلام خوفا من قنابل الطائرات ودانات المدفع الساحلى الرهيب . فأخذت ريالات الورق وسكتت . ونشأت بيننا وبين الرعاة والمزارعين علاقات ود ؛ يجوعون فيأتون إلينا طالبين « الحوت » والمكرونة والبسكويت ، نحتاج للدجاج والبيض فنذهب إليهم . وقناوى كان شيخ عرب بصحيح يحل كافة المشاكل الناجمة عن اختلاف العادات ، فيقصدونه شاكين من العساكر الذين يستحمون واقفين فى مجرى الماء وعوراتهم مكشوفة ، ويخدشون بذلك حياء الفلاحات اللاتى يزرعن فى المدرجات الجبلية ، أو من الذين يتبولون « سناب »* واقفين وهذا عندهم حرام . وكان يذهب إليهم وأحيانا أرافقه ، فيجلس متربعا

* سناب : وقوفا

ويحكى لهم عن قبائل الصعيد ، ولسمرته ونحافته مثلهم اعتبروه من قبائل يمنية هاجرت فى زمن الفتوحات فأطلقوا عليه قناوى الجعفرى لأن قبائل عندنا وعندهم تحمل هذا الاسم . وكان يجمع أطفالهم ويعلمهم الدين رغم اختلاف المذاهب ؛ فهم زيود وشوافع وقناوى مالكى . وأحبوه لأنه رجل وكلمته واحدة ولايرفع عينيه فى نسائهم ذوات الأثداء المكشوفة من الأجناب لأنها ليست عورة عندهم ومن « حق الطفل » وتمادى في علاقته بهم فأكل معهم « اللحوح والبسباس »* وجرّب القات وصار كأنه منهم . وأكثر من مرة دعا شيوخهم وأولم لهم بمباركة من القائد . لكن طائرات الأليوشن القاذفة أخطأت مرتين وألقت حمولتها عليهم ؛ فى الأولي جاءت سليمه وفي الثانية مات ابن أحد الشيوخ المهمين فحرض القبائل وأفسدت *كلها بين يوم وليلة . وانضموا للقبيلة الأخرى وزحفوا علينا جميعا وحاصرونا من كل الاتجاهات هذه ليلة القيامة العظمى . نحن والموت ولا ثالث . فى ومضة من الزمن ، قد نشتبك فى معركة همجية تكون الإبادة مصير المهاجم قبل المدافع لتفوق أسلحتنا ؛ من مدافع ، قاذفات لهب ، دانات هاون مضيئة تكشفهم لنا ، وقد نصمد حتى طلوع النهار فتأتى طائرات الميبج لتلعب أكروبات فى السماء والأليوشن حاملة الدمار . وهم بكثرتهم واندفاعاتهم الهمجية

---

* اللحوح والسيباس: خبز أسود بالشطة

* الأفساد : التمرد

المجنونة وكأنهم فى صدر الإسلام يواجهون قوما من المجوس ، كاد هذا يقع لولا حكمة قناوى ، فهو بالنسبة لهم ؛ الشريف ، الجعفرى ، العربى ، اليمنى الأصل كما يظنون ، وكانوا قد تسللوا خفية متسترين بالظلام والأحراش والوديان ووصلوا لأقراب نقطة ، فقد سمعنا صوتا من فوق ربوة عالية ينادى علينا ويحاول لفت أنظارنا إليه للتمويه والخداع .. لأن الزحف الرئيسى ، كان قادما من خلفنا بطريقة .. تصعّب علينا الدفاع ،وتتيح لهم الاندفاع السريع والتلاحم اليدوى . وأخذ الصوت يشق السكون : « سلموا يا مصاريا .. سلموا الحين ... يا كفار .. يا فراعين .. » والقائد أدرك الخدعة فلم يصدر أوامر الضرب وترك الفرصة كاملة للبديل وقناوى بدأ مهمته بمحاورة الصوت :

– « يا إخوان .. عيب عليكم .. نحن فى وجوهكم »

– « لك الأمان يا قناوى يا جعفرى .. »

– الأمان لى ولإخوانى »

– « أنت في وجوهنا* .. نحن نشتهى *المصاريا »

وظل هذا الحوار العجيب يدور في صمت ليل شديد السواد ، شديد الوطأة . والقائد أراد تعضيد مفاوضات قناوى ، فوجه دانات الهاون المضيئة للخلف ، للجبل المخيف المنحدر ناحيتنا ، بحيث لو

---

* فى وجوهنا : فى حمايتنا

* نشتهى : نريد

ركضوا ، سيكونون بيننا فى لحظات ، .. كانت رسالة القائد واضحة ؛ انكشفتم .. وأنتم الآن تحت السيطرة .ولو أصدر الأمر فورا ، لتحول الجبل بمن عليه إلى رماد . وبالتأكيد كان سيفعلها لو نفدت الدانات المضيئة .. لكنه تماسك وفتح جهاز اللاسلكى بينه وبين قناوى وقيادة المنطقة التي شجعت الحوار طلبا للسلام .. وكسبًا للوقت حتى يطلع النهار وتتولى الطائرات المهمة . والحوار مازال والتوتر يكوى الأعصاب والليل . يتوغل .. يتوغل . ونحن ننتظر ؛ أيدينا على الزناد والقلوب ، أن تموت هكذا ، بعيدا عن وطنك ، أرضك ، أهلك .. مهزلة وقناوى طلب محادثة شيخ يعرفه ، تحاورا بصوت عال واتفقا على لقاء في الفجر . واستمر يتنقل بيننا وبينهم ، مساومًا ، مفاوضاً ، مقرباً لوجهات النظر ، والطائرات جاءت تحوم ، تستعرض ولا تقصف وفى المرة الأخيرة ، جاء ومعه الشيوخ فأولموا لهم وتصالحوا على المزيد من الريالات الورقية ودية لابن الشيخ . ووضعنا المشمع فوق المدفع الساحلي الذى كان يقلقهم واكتفت الطائرات بالزيارات الودية . والقائد ترقى ، وقناوى حصل على شهادة تقدير موقعة من قائد القوات المصرية شخصيا وحصل على شريط آخر وصار بعده ، الرقيب أول قناوى ، وأنت ماتزال متربعا فوق دكة ، بجوارك أعيان أشراف قنا والزحام يزداد ولا أحد يتثاءب ، يطالبك بالكف . وإنما ترى إنصاتا وإعجابا ونشاطا احتفائيا

بالشاى والسجائر ورأيت خروفا يذبح ومائدة أرضية تجهز وملامح الوجوه تبدلت من الريبة إلى الثقة .. وأقصى حدود الترحيب . فوصلت بهم إلي سيناء « والتمد » وعام سبعة وستين : منذ انتقالنا للخط الأمامى ونحن ننتظر . من الجبال إلى الجبال والرقيب أول قناوى حكمدار موقعنا المتقدم كنقطة إنذار وقليل ، من مهام القتال ونشاهد ، نراقب ، نرصد ، نحرس ، وإن أمكن نعطل القوات المعادية المتقدمة ، نعرقل سرعتها ، ومعنا مرشد بدوى يتسلل للداخل ، يأتينا بأخبار التحركات فنرسلها بالشفره وننتظر ، نترقبهم ، نتخيلهم ، نشتبك معهم حتي الفناء لكن أحلام قناوى كانت أبعد من حدود الموقع ؛ هيأ نفسه للزحف شرقا .. لعمق مدنهم . لا لكى يفوز بالسبايا من نساء تل أبيب مثلما حلم الأغبياء أو تلبية لهاجس ديني ، إنما طلبا للثأر مما وقع له عام ستة وخمسين وأرغم أيامها علي الخلف در سيرا ، ويتمنى منازلتهم وجها لوجه ، رجلاً لرجل . ولبثنا صابرين بجوارنا المذياع ، خلفنا قوات الأمل . وقناوى شاخص للأمام رابض خلف الرشاش الجرينوف ، يأكل ، يشرب ، يحلم بجواره يجز بأسنانه ، يتآكل ، يتحسر ، يكاد ينفلت ، يعدو للأمام .. طالبا النصر أو الشهادة . ولماّ بانت العلامات القاتلة مساء خمسة يونيو .. قناوى جن ، أخذ يطلق الرصاص على عدو، وهمي لانراه ولايرانا ، يغير الشرائط ، يضرب والمذيع يصرخ ..

ابشروا يا عرب .. أسقطنا وأسقطنا . وهو يصدقه ويضرب . وبدأنا نشك ونغير مؤشر الراديو للاتجاه الآخر ، وسمعناهم فى صباح ستة يونيو يقولون إنهم وصلوا لحافة القنال وسيطروا علي معابر بور توفيق والجناين ونمرة ستة والقنطرة شرق وهولا يصدق ، ثار علينا و « كسَّر الراديو بالجزمة » . مسحنا المنطقة كلها بنظارة الميدان فرأينا إحدى سياراتنا تسرع غربا . والولد المرشد البدوى اختفي ، ومر علينا شارد من جنودنا ، صاح فينا « يا للا ياجماعة .. خلصت » وعسكرى اللاسلكى التقط ما يفيد هذا المعني .. فجرجرناه بالقوة مع أنه الحكمدار الذى يعطي الأوامر .. وسرنا .. وسرنا ورأينا آثار المصيبة علي الطريق . وقناوى ينزف داخليا ، لايصدق عودته منكسرا بنفس طريقة عام ستة وخمسين .. وينظر بشك للسماء ، مراجعا ذاكرته عن الآيات التى حفظها والنصر الذى للمؤمنين ويشتم المذيع .. يسميه أبو لمعة ، ويشتم بلدياته الذى من المنيا ويسميه بتاع برلنتنى ، وهدأ قليلا بعد يومين وقادنا بنجاح عبر صحراء لا ترحم ، وبدو يقايضون الماء بالسلاح . وهزيمة ثقيلة تهد الجبال ، حتى وصل بنا إلى منطقة الشط وكدنا نعبر بسلام .. سباحة عندما باغتتنا داورية كبيرة ترافقها سيارة تليفزيون للتصوير ، رموا إلينا بزمازم الماء وعلب البسكويت ، أرغمونا على خلع الفانلات والتلويح بها علامة للاستلام والسلام .

وأخذوا يصورونا ونحن على هذا الوضع المؤسف لكن قناوى لا أكل ولاشرب ولا خلع فانلته ، كان واقفا مثل مسلة لا تؤثر فيها عوامل الزمن .. قال لهم بشموخ : اسمي الرقيب أول قناوى الشريف ورقمي العسكرى كذا ولم يضف . زغدوه بالدباشك ، شتموه بالعربى والعبرى والإنجليزى ، صوبوا نحوه الرشاش ، فلم يضعف وأدار ظهره لكاميرات التصوير ، ولو كان معه الجرينوف لأهلكهم وأهلكنا . حتى أسلحتنا الشخصية كنا قد خبأناها تحت الرمال ونحن نستعد للعبور . وكنت أنطر إليه مشفقا من تعريض نفسه لموت مجانى ، لكنه قناوى يموت ولا ينكسر . فأخذوه معهم وتركونا نعبر . وكنا على يقين بأنهم سيقتلونه . وبعد ذلك علمنا أنهم أعادوه «للقسيمة» وتركوه هناك حتي يقطع المسافة سيرا ويهلك تعبا لكنه عاد . ووجد حقيبة نقود وسلمها ، فرقوه وصار بعدها الصول قناوى وصمم على البقاء غربّى القنال لكي يثأر .

حكيت لهم كذلك عن صموده الفريد فوق هضبة السلوم . صمود لايقدر عليه سوى الأنبياء وأصحاب الرسالات النبيلة في زمن ندر فيه النبل واختتمت النبوة ، أول رجل فى بر مصر يدير ظهره لفلوس سهلة تتساقط كالمطر . حكيت لهم كيف قاوم وقاوموه . أنت تحكى والرجال حولك مندهشون ، مذهولون وأحدهم يرتفع صوته ملتاعا : « وفى الآخر طلّعوه حرامى أولاد الحرام » .

وأنت تعلم كيف تم هذا ؟ وكيف حاولوا تحطيمه بالأساليب الهمجية ودسوا عليه البنت مبروكة . كما نالوا منك بتلفيقة الغلام ورموك في نقطة «الملفا» التى أنشأوها خصيصا لك لكي تتآكل وتفنى ما رأيت فى حياتك العسكرية منطقة فى ربوع مصر بهذه القسوة والوحشة – بين سيوة وواحة جغبوب ؛ أمامك بحيرة هائلة من الماء شديد الملوحة وأحراش تمرح فيها الثعابين السامة وكل أنواع الهاموش والناموس والذباب المتوحش . لانوم ليلا ولانهارا وكشك من الصاج يحيل النهار إلي سعير ، والذبابة تندفع نحوك بحجمها الغريب .. تعض ، تدمى ، تموت في يدك ولاتتركك . وأسراب الناموس تشوه ساعات الليل . لا ينفع معها هش ولا نش ولا مبيدات ولا دخان . والضباع تحوم حول الكشك ، تتحين فرصة للانقضاض . والحمر الوحشية تعطش ، تأتى لمهاجمة فنطاس المياه تحاول زحزحته ونجحت مرة فى قلبه فقعدتم يوما بطولة حتي جاءكم المدد من الجيران علي بعد ثلاثين كيلو مترا . ومجرد المشي وقضاء الحاجة مشكلة ؛ فأنت لا تدرى فى أى رقعة من الأرض تنتظرك « الطريشة » .. تنط . تلدغ . تموت . وكنت تتجول وترى خنادق وتحصينات الحرب العالمية فتسأل نفسك : أى جنون أتي بأولئك القوم إلي هذه القفار ؟ ولأى سبب ما توا هنا ؟ ثلاثة رجال وأنت رابعهم ؛ انتهت الحكايات والأكاذيب والمشاجرات وصار الطريق للجنون ممهدا

والبحيرة من بعيد تبدو رائعة تدنو منها فُتصدم ؛ آثار غزلان وحيوانات جاءت راكضة وارتدت خائبة . فلا هذا بماء للشرب ولا لترطيب أجساد التهبت من نار الشمس . فلماذا انبثقت وهى لن تفيد ؟ وكنت أيامها ، تلوذ بالكتب المتاحة لتقيك من الضجر والترك والفناء . وأحيانا تكتب . ثم يهاجمك اليأس فتخايلك البندقية وتزين لك النهاية .

تنتبه لنفسك وهم يدعونك لوليمة الترحيب ، وهولاء القوم البسطاء الطيبون ، أسعدتهم حكاياتك عن رجلهم . فتتوسط أعيان القبيلة ، تأكل بينهم ثم تتفرج على فنون التحطيب ورقص الخيل ، ويستأذنك كبيرهم فى كلمتين ، يختلى بك ويسألك صادقا : « شوف يا خال إذا كان ليك عند قناوى دين .. إحنا سدادين ، وإن كان له إحنا مسامحين .. ولو كانت ليك مشكلة مع الحكومة .. جبالنا وقصبنا وبيوتنا تحت أمرك ، ولو كنت مزنوق فى قرشين .. قول ، ولو حد مضايقك فى مصر وعاوز مدد .. أشحن لك القطر حالا .. بس قناوى بعافية .. ربنا يشفيه ..من عشرين سنة وأكثر نزل مصر يدور علي حقه ويشتكي وشتم واحد كبير قوى .. قوى قالوا عليه مجنون وحطوه في الخانكة من يوميها .. لا عاوز يخرج ولابيكلم حد ربنا يجازيهم .. » . وأنت تغضب .. وتتخيل ما حدث ؛ كيف ثار وتهور ودخل المنطقة الشائكة . وكيف حقنوه وشوهوا ذاكرته . وبكيته وبكيت نفسك . فالشبح المجنون نال قناوى قبلك . ورغم إلحاحهم ، أبيت البقاء وتتعجل الوصول إليه ؛ لتراه وتحادثه . فأوصلوك لمحطة القطار ورافقوك حتى المحطة التالية من باب التكريم .. وجلست فى القطار تفكر .. طوال الطريق تفكر .

- ٣ -

ودخلت بيتك متعبا ، جمجمتك تكاد تنفجر ، لأنك نفضل الموت عن التشويه وتدمير الذاكرة . وكنت فى ذات الوقت ، ممتلئا سعيداً من حفاوة تلك القبيلة . ونمت قليلا وقمت فزعا على الرنين المشئوم ، تريثت وأيقنت أنك بكـامل صحوتك وكفاءتك الذهنية .. وهذا هاتف يصدر منه جرس حقيقى وليس وهمـا كما يحاولون إيهامك . ترفع السماعة وتسمع صوتا بشريا .. فى نفس التوقيت المبرمج ، لاقبل ولا بعد .. آلو .. آلو ..

- نعم .. افندم .
- أين كنت يا أستاذ ؟
- في داهية .. طلباتك ؟
- حلمك ..
- يا أخى حل عني ..
- اسمعني أولا .
- ارحمني .. أرجوك .
- ألم يبلغوك ؟
- كل أخبارك كوارث .
- هذا قدرك .
- لا أؤمن بالأقدار .
- هذا شأنك .. لكنها تقع ..
- قلها وأرحنى .
- قبضوا على صاحب المطبعة .

- التي احترقت ؟

- الأخرى

- ماذا تقول ؟

- ما سمعته .

- لأى سبب ؟

- طباعة منشورات .

- تلفيق .

- اهرب حالا .

- بعدكم .

- ستندم .

- ندمي .. أني أسمعك .

- أنت حر ..

حر طبعا ولهذا يخشونك ، طظ فيهم .. أبداً لن يفرغونها . بهذه الطريقة الهمجية . لن تكون لهم وحدهم مطلقا . اقتنصوا البقرة وحلبوها .. هذا صحيح . لكن مازالت ثمة ألبان أقل جودة متاحة .. حتى لبن الأتان .. ولم لا ؟! استولوا على النهر بعذوبة مائة وشواطئه الجميلة وأسماكه وقناطره .. ماشى ، لكن مازالت المياه الجوفية والترع وأمطار السماء موجودة . وأنت ولدت هنا ولعبت فى حوارى وأزقة المدينة، حاربت ولعقت تراب الخنادق ، وعانيت كثيرا منذ طفولتك ؛ أكلت الفول صباحاً ومساءاً حتى تقرّح قولونك وعجز أبوك عن إطعامكم فتطوعت فى الجيش لكى تساعد وتساهم . وعانيت من قسوة القوانين العسكرية

لكنك كنت تقرأ . مرمطوك وتنقلت بين سيوة والسلوم وبرانيس والتخوم وسواحل البحر بلونيه . شربت مياه الآبار بديدانها وعفنها وآكلت مالا يؤكل . تكيفت مع العساكر الأجلاف ومع الصحارى الموحشة وتعذبت فى الخدمات الليلية وحراسة الدركات فى برد طوبة ولهيب أغسطس وكنت تجد ما يقرأ فترنو للغد متفائلا . فثمة بصيص ضوء وسط كثافة الظلام . وتعلو فوق الصغائر من وشايات وتفاهات وسادية صف الضباط . فقاومت وبقيت وخرجت من بين الركام والأطلال لتكتب . وكان قدرك أن تتحول معاناتك ومشاهداتك إلي مدافع وسهام . لقد تفجرت موهبتك من رحم معاناة شديدة في غابة البشر ؛ شدة حاجة ، سطوة أشباح ، فجاجة سلوك ، همجية همج .. فكان لابد أن تكتب عن هذا كله وليس عن ثريا .. غادة بولاق التي عذبتك أو زوجتك التي هجرتك أو عن بطولات أولئك المماليك الأغراب . ولهذا غضبوا وطاردوك لأنك مخلوق نارى ، ولن يكفوا حتى تزامل قناوى أو يشعلوا فيك النار كالمطبعة أو ترحل أو تتنصل من ما ضيك وتكتب عن بطل خارق لا وجود له .. وتغنى وترقص فى مواسم الحزن وتكتب شعرا قياسا على : « .. أهمه .. فى الدنيا أعظم أمة .. » . ولو قلت للأشراف فى قمة زهوهم وحماسهم عن الشبح الذى أودى برجلهم ويطاردك لاشتعلت ؛ لكنك تحبها ولا تريد بها السوء ، تحبها ولديك الاستعداد للذود عنها لآخر نبضة ويوم السادس

عشر من أكتوبر عام ثلاثة وسبعين ، تركت مشاغلك وعملك ونزلت للشارع تتزاحم وتصفق بحماس والرجل في سيارته المكشوفة واقف يحيي الشرقانين للنصر وهو فى طريقة لمجلس الشعب ، سموت ونسيت مراراتك وأحزانك ووقفت تصفق بجنون واندمجت مع النسيج وصرت أنت وهم صوتا واحدا مدويا يزلزل شارع رمسيس : الله أكبر .. الله أكبر .. ربنا ينصرك يا ريس . وتمنيت لحظتها لو أبقوك في الخدمة لتترك بصمتك فوق رمال سيناء ، وكنت تتخيل مشاعر قناوى الآن .. ثم سقطت مريضا تهذى حين تابعت الأخبار وسمعت عن خازوق الدفرسوار الذى دخل من تحتك واستقر داخلك يمزق أحشاءك والحمى لا تفارقك ترتعش وتنتفض منقطعا عن العالم فى غرفتك تهذى والهمجية العجوز تقول للمراسلين في غضب : إن العالم لا يريد لنا أن ننتصر ، كانت تقف لحظتها في وضع استعراض عند مصافي الزيتية . وأنت تضرب رأسك بقبضتيك ، بنفس الأكف التى صفقت بهما منذ أيام لكنك قاومت هذا كله وبرئت لتكتب وتقول : البوح أو الجنون . ومع ذلك ، لم تفهم معني اغتياله فى ذكرى يوم الثأر ؟ هذا التوقيت الهمجى أغاظك رغم خروجه شبه التام من ذاكرتك كرمز بعد شحنه الجميع للحبس وفتح الأبواب للأشباح والهمج ولم يكن باقيا لكم سوى هذا اليوم تفخرون به فلوثوه بدمائه . وهذا الشبح المجنون بالتأكيد خرج من مكمنه تلك الأيام

. وأنت تقدس وطنك رغم الشبح ورنين الفجر المزعج والهمج بكل أصنافهم وأقبية الاحتجاز .. تعبده ولا ترضى عنه بديلا . تشربها سادة وتغنى له ، يشوه قشر الفول قولونك وتحبه . تأكل الطعمية المقلية بالزيت المحروق القذر المسبب لأمراض السرطان .. ولا تستغنى عنه أبداً ، تأكل اللحم الفاسد وتشم الهواء الفاسد .. وتموت فيه ، تمشى فى شوارع بلا أرصفة ويعصرونك وينشلونك داخل أتوبيسات السردين .. فتنزل منها تسوى ملابسك وتنسى . لأنك من هنا وستظل . ومازالت لك أشياء كثيرة لم يصلوا إليها بعد ، هذه الشقة الصغيرة ذات الغرفة الواحدة ، وهذا الكم الهائل من الكتب ، ومقاعد زهرة البستان الكحيانة ، حديقة الأتيلية ، مقهى الحرية ، الخمور المحلية المتاحة ، الحدائق المجانية ، « وقدر» الفول الخالدة .، وأصدقاء بسطاء فقراء جدعان تجتمع بهم ، تثرثر معهم ، تنكتون على أنفسكم وعليهم وتضحكون . وهذه الشوارع كلها لك .. تتجول فيها علي راحتك .. فليس ثمة حظر تجول وأبواب المدينة مفتوحة .. تتنزه بين الأحياء ، تتفرج على الفاترينات والنساء والكتب. وتلك الأرملة الطيبة المعطاءة التى تواعدك بين وقت وآخر . تجلسان على ضفاف النيل تقزقزان اللب ، تتناجيان ، تتلامسان بالأيدى والأكتاف والأفخاذ وتتلاصقان كالعشاق والمراهقين وتذهب معك إلى شقتك كلما سمحت الظروف .. ترتبها لك ، تغسل

ملابسك ، تزيل عنك همومك ، تشبعك ثم تفتح حافظتك فتجدها شبه خاوية ، فتقول لك بود وحميمية « .. يوه .. دانت ما معكش .. خليّ دول معاك لماّ تفرج .. وإذا احتجت لحاجة تانية .. كلمنى .. » وأحيانا كنت تمرض ، فتمر عليك يوميا بانتظام تأتيك بالطعام والدواء وتخاطر بالبقاء أطول وقت ممكن ، تنام بجوارك وأنت مزكوم ولا تخشى العدوى وهذه المرأة العظيمة ، أليست من هنا ؛ بحنانها وعطائها وسموها ومن واجبك الدفاع عن موطئ قدميها لحظة الخطر . نعم .. مازالت هناك أشياء وأشياء ، صحتك قوية ، ذاكرتك متوهجة . ويوما ستنزاح الغمة .. لأن دوام الحال من المحال كما قالوا . وسيختفي الهمج بفعل قانون التطور والحركة ، فأصبر علي جار السوء حتى تأتية مصيبة أو يرحل . فكيف تتركه لهم ؟! مازال لديك أكداس من الكتب تستحق عناء القراءة . ومازال في جعبتك ما يكتب . والقطار أمامك .. الحق به ، تزوج وأنجب . انس ثريا المتعالية والمرأة التى هجرتك وهذه الأرملة ، جديرة بقلبك وحبك ، فهى وطنك وعشيقتك وأمك ومرفؤك وغدك ، أعطتك بسخاء دون مقابل فابذل مجهودا واكسب ود أولادها وحبهم حتى يتنازلوا لك عنها ، فهى أم ولن ترميهم من أجلك ومهما كنت . وهذه مدينتك ، دافع عنها واستمر ، وكان جبنا منك يوم ضعفت وسعيت للموت تخلصا من مطارادات الشبح ؛ كيف تموت هكذا وتتركها لهم ؟ قاوم ، انشر

ملابسهم للضوء ، لا تخف فليس لديك ما تخسره سوى الروح وقد هانت عليك يوما .. وبالمجان ، اخسرها في معركة بقاء مجيدة فيكتب لك الخلود أبداً لن تكون رواية واحدة نهاية مشوارك . عش ، تمتع بحياتك « واضرب أجعص من فيهم بالـ ... » وابحث عن قناوى ، اكتب عنه من جديد علي ضوء الأحداث المؤسفة المخربة .. تضطرب وأنت تلج مصحة الأمراض العقلية ، يد مشغولة بفاكهة وطعام وبالأخرى باقة ورد ، وقلبك تتسارع دقاته ، تتخيل لحظة اللقاء . تسأل عنه في العنابر المفتوحة والعنابر المسيجة ، وأحدهم يغافلك ، يخطف باقة الورد ، يجرى بها بعيدا و يلتهمها ، تبتسم بحزن ، تواصل بحثك فتجده ولاتجده ، موجوداً بالجسد ومسافراً بالعقل ، منكمشاً ، منزوياً مرعوباً ، تهزه فيرتعش ، تكلمه فلا يسمعك ، تدنو .. فيبتعد تمد له الطعام .. فيأبي ، تقشر له برتقالة ، وتغزيه .. فيزيح يدك غاضباً ، متوجساً ، هلعاً ، كأنك سجان في معسكرات الأسرى . تحاول إخراجه ، واستعادته .. فتفشل ، تريه أوسمة معركة وادى علي فوق كتفك وساعدك وفخذك .. فلا يرى . أبداً لا يستجيب ، يابطل ، ياجبل ، ياحاصد الأوسمة وشهادات التقدير وشرائط الترقيات الاستثنائية ، يارمز الرموز . لاشيء . تقمص أبا الهول . لا ينطق . يائسا تكلمه : اسمعني .. أنا بلال عثمان وأنت قناوى الشريف ؛ وكنا وكنا ، تسترجع الشريط كله من ... وإلي . تنفلت

أعصابك فتشد يده بالقوة وتعضها .. فلا يقاوم . بعد ثلاث ساعات من الأسى والحيرة والغضب والمحاولات تنصرف لكي تعود إليه غدا مع طبيب صديق يحلل لك الظاهرة علميا . فطوال مكوثك مع قناوى ، كان لديك شعور قوى ، بأنه ليس غائبا إلي هذا الحد ، أحس بوجودك ، عرفك ويتهرب منك لسبب تجهله ، فمن أين تولد لديك هذا الإحساس ؟! لا دليلاً مادياً تتملكه سوى البث الداخلي ودقة الملاحظة للحالة . كان رعبه هائلا وكأن شبحك يقف علي رأسه ، يتلفت ، ينظر للمجانين بهلع .. يتقنفذ كلما مر طبيب أو ممرض ، وأنت حائر ؛ كيف يتحول أسد إلي فأر ؟ كيف يتشوه ؟ كيف يموت وهو ينبض ؟ ثمة فاعل ؟ جريمة وقعت ؟ وأنت لن ترتاح .. إما أن تهز هذا الرجل وتستعيده أو تنضم إليه فتستريح مثله من الخارج كله بضجيجه وفجاجته وهمجة . فقد عانيت في وطنك كما يعاني حمير السباخ . فكتبت تدين وتعرِّى وتقول . فيرودن عليك بالحصار والتجويع والتهميش وحجب الجوائز وتخزين كتبك ووضع اسمك في قوائم الممنوعين ، وإهمال نصوصك لأنك تقولها . وينصحك المجربون باللجوء للرمز وحيل الحداثة وينصحك محترفوا الكتابة التربحية بالبحث عن مواضيع خفيفة سهلة الهضم : يا سيدى اكتب .. الزعيم فلان رائدا للتنوير الحضارى « وخدلك قرشين تفك أزمتك » اكتب عن أمين القومية الهمجية . اكتب عن جد المعارك . اكتب

عن أسد الحرمين وأمير الصحراء . دعنا من هذا كله .. اكتب عن سيرة الموهوبة التي حولت الهز الشرقي من مجرد وسيلة لإثارة الغرائز .. إلي فن راق يدرس في أكاديميات العلوم العسكرية . لكنك عنيد .. لا تبيع قناعاتك ولديك مناعة ضد الدنانير والريالات والدولارات . وكنت تفكر في الكتابة عن الزعيم ثم استبدلته بقناوى ... لأنك وازنت وجاءت الكفة في غير صالحه ؛ غلطة اليمن ، مهزلة يونيو ، معتقلات أصحاب الرأى ؛ وجملة قاتلة سمعتها من ضابط ليبي وأنت تحاوره بجوار السلك الفاصل بين الجهتين ؛ كان من المهووسين بالزعيم ويتمني مثله عندهم ، سألته بصراحة عن سبب إعجابه بالزعيم ، فقال جملته العجيبة : « هادا يا خوى والله عندى تريس* ، ويهدرز باهي* » . وتلك أم المصائب « الهدرزة حلاوة الحديث . التخدير . بلاغة الشعر . سحر الكلمة . وأنت نفسك كنت تسمعه وتنتشي . تسمعه وتسكر . تسمعه وتغيب . تسمعه وتنتصر ، قال لهم : وأما فرنسا العاهرة .. فردوا عليه بمفاعل ديمومة . وقال لهم : موتوا بغيظكم فوجدت نفسك مرميا في سيناء . وكانت كارثة .. واستمر يقول ، يخطب ، ومئات السكارى خرجوا يهتفون ؛ لاتتنح .. لا تتنح . بينما الألوف لحظتها كانوا معرضين للإبادة وهو يتكلم . وتعجب كيف استمر بعد ذلك ؟ . تراجع التاريخ ، فتكتشف أن العظماء

---

* تريس : رجل   يهدرز : يتكلم   باهي : جيدا (ومعان أخر)

حين ينكسرون ، ينهون حياتهم بالموت أو الانزواء . وكان فريدا بينهم وتشبث ، فقلده الآخر « بتاع جد المعارك » . كنت تحبه ومازلت .. لكنك لو كتبت ، ستقول هذا كله .. لأنك لاتجامل ولا تزيف قضيتك ، وقضيتك الإنسان . تهزم مرة فتعاود الكر بأسلحتك البسيطة ؛ الورقة والقلم . ورغم الليل الطويل .. ترنو للغد ، تتسكع في مدينتك وتعي جيدا حجم الأخطار المحدقة ، الهمج الذين علي أبواب رفح ، والهمج الذين يشحذون سيوف القطع وساحات الرجم ؛ والأشباح الذين يسودون ، ويحلبون البقرة ، وغطرسة الذين يواجهونهم بعد استبعادكم ، مع أنكم كتيبة الدفاع الأولي . رغم هذا الكم ، لم تمت كمدا . إذا تأزمت تقابل الأرملة الطيبة وتبوح لها . إذا جعت .. أكلت سطورا من كتاب وشبعت وإذا عطشت .. اكتفيت بماء الحنفية .. فالنهر لم يجف بعد . لقد خسرت الكثير ، لكنك ربحت نفسك ، وغداً تذهب إلي قناوى .. وتحاول .

- ٤ -

ـ لا تقفل السكة ..

- أنت ؟

- اسمعنى جيدا .. اهرب الآن .

- ملعونة أمك .

- **مقبولة منك .. لكن اسمع ..**

- **قل .. وخلصنى**

- **قناوى .. !**

- **حتي قناوى .. ؟ ماله ؟**

- **أهلكه المجانين ضرباً .. وهو ينازع فى المستشفى الآن ،**

- **القتلة .**

- **أنج سعد ..**

- **سأشكوهم ..**

- **لا تملك دليلا .. مجانين ضربوا مجنونا .**

وهذا رابع ضحاياك .. ضربوك يا مسكين حتي هلكت بعد محو ذاكرتك بجلسات الكهرباء . شوهوك وأرعبوك لأنك تطاولت علي كبير وشتمته .. فمن كان يا قناوى ؟ لا ترحل .. « أرجوك .. قل .. اكشفه فثمة خيط بين كبيرك والشبح . إنه مازال متواصلا متقمصاً أشباح الحاضر وشياطينه . تدنو منه ، تلتصق به . تحتضه . تبكي ، وحارس همجي .. يراقبكما ، تتحسس الشاش والأربطة والجبس وتبكي سنواته وسنواتك . ضربوه بعد زيارتك توجسا منكما ؛ مع أنه مجنون قانونا حتي لو قال . وأنت أعزل ؛ بضاعتك قلم لايؤثر في الخنازير والبلداء . كلب صوتي يعوى وقافله تسير محملة بكل نفيس وغال ، مرة تعبر البحار إلي روما وأثينا ولندن وباريس والأستانة ، ومرات تجتاز الصحارى في قوافل

منتظمة إلي الأمير والخليفة والوالي . ولماً خلعوه وكلّفوه بقيادة العسكر وغيره يحكم ، قال جملته المشهورة : أنا كمن يمسك البقرة من قرنيها ليحلبها غيره . هو الذى قال وكشف نفسه وكشفهم . الحلب . فأين كان أهل البقرة ؟ وأين هم الآن ؟! وهذا أحدهم جثة ينازع ... أنطق يا قناوى .. قل من كان ؟ لكن ما الفائدة . قلت وقالوا وما تحرك أحد . وبينما قناوى يموت بين يديك وبسببك ، احتل الأشباح كل المنافذ ، المشاريع ، الطرق ، المواقع ، العمائر ، الصحارى ، وسائل البث والنشر ، مصادر الطعام ، الأرواح ، المدن ولم يبق لكم غير الجعجعة التي بل بلا طحن . فاهرب بجلدك كما نصحوك . انج سعد .. هلك سعيد . اهرب ياولدى . وكونك خرجت سالما من مآزق سابقة لا يعني تكرار الفرصة ، صبروا عليك لا خوفا منك ومن كتاب العرائض ، إنما لأنهم يجهزون لك نهاية تليق بلسانك الطويل. اهرب يا بلال اهرب يا بلال عثمان . صوت من هذا ؟ أبداً ليس صوت رجل التوقيت المبرمج ولا ينبثق من داخلك .. يا كفران .. اهرب .الكفران ؟: هذا اللقب اندثر منذ زمان بعيد ، أطلقة عليك قناوى وناداك به .. فتقبلته راضيا . وأحيانا كان يسميك الشاعر المجنون ... ياه ... من زمان لم تسمع اللقلب ، كان حكراً عليه .. فهل تحلم ؟ أهي كوابيس ما قبل الجنون ؟ ترفع وجهك مندهشا .. مكذبا سمعك .. فترى شفتيه تتحركات بصعوبة .

- **قناوى**

- **اهـ .. ر. .. ب**

- **قناوى**

- **ازى ك .. يا كف ... ر . ا .. ن**

تهزه ، لا تسعك الدنيا من الفرحة ، تحتضنه بقوة .. لكنه خرس ، راح في الغيبوبة ، تسترجع ملابسات اللقب ؛ أبداً لم يكفرك عن دينك . لأنه متسامح ولا يحاسب الناس علي أقوالهم .. فله دينه ولهم دينهم كما يؤمن بعدم تكفير من ينطق الشهادتين ، كان للمسألة سبب آخر ؛ فكلماً سألك عن أحوالك .. كنت ترد ساخطا بجملتك المعتادة : « الواحد كفران خالص وقرب يطلع من ... » . مجرد كلام تعبر به عن حالتك وغلبانك الداخلي والقرف من الطقس العام ؛ لأن ظروفك وظروف رفاقك الجنود ، كانت بالغة السوء قبل زلزال يونيو ، فضباط ما بعد الثورة جميعاً صاروا أسيادا .. المائة أفرزوا المئات ، وحتي الذى كان في اللفة يمسحون له يدعي قيامه بالثورة .. يتخرج الملازم ثان ويقف أمام الطابور متباهيا متضخماً ويقول : « لولانا .. واحنا اللي .. » ويتصور أنها بلده دون غيره والباقي لاشيء ؛ رقيق وخدم وعساكر مراسلات . الواحد منهم يشتمك ويتطاول علي أبيك وأمك وأنت واقف انتباها ويدك في جنبك ولا تملك حق الرد أو مجرد الاحتجاج .. يصفعك علي قفاك ومطلوب منك الابتسام واعتبارها وساما . أما أن تسكت وتتآكل وتصاب

بأمراض النفس أو تثور فتهلكه وتلحق به . أو تتعقل وتسلك الطريق السليم ؛ تتظلم منه للرتبة الأعلي ، فيحاصرك الصولات وضابط الصف ويكسِّرون مقاديفك : « عيب كدة ومهما كان دا برضه ظابط ! .. « فتركب ، رأسك وتواصل نضالك العبثي وتدخل مكتب الأعلي منه ، فيطيب خاطرك بالكلام الفارغ وتخرج كما دخلت ، لا حاسبوا الذى أهانك ولا أعادوا لك كرامتك ، وقد تعاند وتستمر ، فيشكلون مجلس تحقيق فلا تجد شاهدا يعضدك رغم حدوث الواقعة جهارا أمام الجميع . وتحمد ربك لأنهم لم يحولوك من مظلوم إلى مذنب أو متهم . ثم تنفتح عليك أبواب الجحيم ، طوابير ذنب واحتكاكات ومنع تصاريح وتفتيش متواصل علي هندامك .. وتدخل مكتب يوميا بأورنيك ذنب . وما كان لمثل هذه السلوكيات أن تدوم . وبعد كارثة يونيو ، كان العساكر ، في جلساتهم الخاصة ، يشمتون ويقولون كلاما ثقيلا : « أحسن كده .. لو انتصرنا .. كانوا ركبونا أكتر وأكتر .. » ومثل هذه الأحاديث السوداء .. تستفزك .. فتحاول توعيتهم : يا جماعة .. هذا كلام خطير وخلط أوراق .. لأن الآخر .. لو جاء وركب .. لن ينزل أبداً ، هذا عيب يا جماعة .. إذ كيف تفرحون لهزيمة الوطن ؟ ! وأنت نفسك كنت ساخطا علي قلة من أفراد قابلين للزوال وليس علي الوطن كبشر وأرض و يوم مهزلة وادى علي ، وأنت جريح تنزف ، شتمت ضابطك وشتمتهم لأنهم استهانوا بالجانب

الآخر وقالوا عنهم « شوية بتاع .. وواجهوهم بطابور تخويف خالطين
بذلك بين الاستعراض وجبال اليمن ؛ لأن أغبي عريف لو أوكلوه
بالمهمة ، لقام بها أفضل من ذلك ، خمسون فردا راحوا في لحظات ،
ولولا جرحك ، وموقفك النفسي ، لأعدموك رميا بالرصاص ، لكن قائد
المهمة ، جاءت طائرة هليوكوبتر ونقلته إلي صنعاء ثم رحلوه إلي القاهرة
واكتفي القائد الجديد بمجازاتك أسبوعين ورماك في أعلي وأخطر
المواقع حتي استردك قناوى . وكنت تسمع عن أحوالهم بأذنيك ؛ تعيينك
وقوتك يباع لليمنيين تحت ستار المساعدات الإنسانية ، وأمنك مهدد
بالممارسات الغبية ؛ القنبلة اليدوية بخمسة ريالات . صندوق الذخيرة
بعشر ريالات .، البندقية الآلية 7 × 62 بأربعمائة ريال . المدفع الهاون
.. بثروة .. ولاتصدق .. تظنها من الشائعات حتي أكدها لك قناوى ؛ لأن
بعضهم طلب منه ذلك تلميحا . ويوم رجعتهم ، لم يكن معك ولا مع قناوى
إلا القليل ، بينما الباخرة تحمّل بصناديق من السلع المعمرة كالغسالات
والثلاجات وكأنهم قادمون من غزة ولم يستوقفهم أحد ويسألهم : ما هذا
؟ ومن أين لكم بها ؟ فتأكدت من تورط البعض في تلك السفالات لشراء
الهدايا من الحديدة وصنعاء ولماّ نصحت جنديا كان يتباهي بساعة يد
من نوع حديث لا يلبس مثلها رئيس الوزراء ، بالاستحياء واحترام
مشاعر العائدين صفر اليدين ، صرخ في وجهك محتدا : « جرى إيه يا

دفعة .. هو أنا سارقها .. شاريها بفلوسى .. » وحسبتها له : ثماني ريالات في عشرين شهرا وافترضت أنه لا أكل ولا ابتاع غيرها ، فكيف تكون بفلوسه ؟ فكاد يشاجرك واستفزك : « جاى تحسدني أنا الغلبان علي حتة ساعة .. الشنط قدامك أهيه ، مالية الباخرة لو راجل .. روح اسألهم ؟ » . وأنت لا تملك ولا تود محاسبة أحد ، وإنما تنصح : من ابتلى فليستتر ، لكن الأوغاد عيونهم بجحة ، تجد الولد منهم يتبختر بمرسيدس ثمنها مليون جنيه ، ويقول ببساطة إن « دادى » وعده بها بعد اجتياز الثانوية ، فبماذا سيعده حين يتخرج في الجامعة ؟! وقناوى كان يرى هذه المسائل ضعفا في الإيمان ويحاول هدايتك لأن داخلك نظيف كما يعتقد . وكانت مشكلته معك .. تركك الصلاة . فتقول له بعناد : انظر يا عم قناوى ؛العسكرى الذى يصلي هناك هو نفسه صاحب الساعة التى ثمنها كذا .. وتقول له : الدين المعاملة .. الدين السوق .. الدين للرب والوطن للكل . وكان يغضب منك ثم يصالحك .

وأنت ما تزال بجواره وتتمني لو ينتبه لكن الممرضة تسبل جفنيه وتواسيك ، فانسحبت تجرجر ساقيك وجلست علي الرصيف كالمتشردين تبكي وطنا ورجلا . ولو سألك عابر عن سبب بكائك لقلت له القصة كلها ، من البداية ووصولا لرابع ضحاياك . ثم قمت تمشي يائسا ، قطعت شارع رمسيس وسط الضجيج وجنون السرعة ، تعبر

الإشارات دون تحرز ، تتمني لو تدهسك سيارة فتستريح وتريح ولا ملاذ لك اليوم سوى بار المجانين لكي تنس ، جلست وحدك تشرب تدخن . توافد الكتاب والشعراء ، جلسوا حولك وأنت زاهد عن الدنيا لا تشاركهم أحاديث السمر ونكات التشنيع . هؤلاء هم أحباؤك وحصنك الآمن . بهم تلوذ ومعهم تشعر بالدفء والامتلاء . هؤلاء الفقراء العزل هم طليعة المدافعين عن البقرة وكتيبة شهداء الكلمة . آخر القلاع الصامدة أمام الأشباح والأوغاد والهمج . وهم الذين شيعوا صديقك الأديب البائس وأقاموا له سرادق العزاء علي نفقتهم . وأنت سعيد بهم ومعتد بنفسك لأنك قاومت إغراءات رجل الرقم السرى فحافظت علي رقابهم . وما تزال صامتا تشرب ، فسألوك عن أحوالك وأخبارك وإنتاجك وتقدم منك صديقك المثقف اليسارى الشهم .. مداعبا وفتح لك حافظة نقوده لكي تأخذ ما تحتاجه لو كنت مفلسا .. وكدت تحكي له لولا خشيتك من جرح وتخديش ذكرى رجل مثل قناوى بين سكارى .. لكنك قلتها لتجرب : يا جماعة قناوى مات ! لا شيء . لا أحد. أصوات متداخلة ، حوارات ثنائية ، كئوس تتبادل ، زجاجات تستبدل . ولم يسألك سائل عن قناوى الذى مات . انشغلوا عنك وعن حزنك بالترمس والجرجير والمش وأقراص الطعمية الساخنة وأنت انشغلت عنهم وعن قناوى باحثا عن الغريب الذى تقدم منك وحياك بكأس ممتلىء للحافة وانصرف . وكان

من المحتمل امتداد السهره لولا وقوع حادث عارض ، فتفرقتم مذعورين . وعدت إلي حصنك محبطا فلذت برواية قناوى ، رجعت مع فصولها للماضي ، هضبة السلوم وأولئك الرجال الشياطين الذين استباحوا كل شيء .

وكان قناوى بينهم ظاهرة فريدة ... كان أسطورة ..

الجـــزء الثانى

أسطورة قناوى

سـيرة غـير ذاتيـة ، تجرى وقـائعهـا فى زمن الهـزيمة ، فـوق هضبـة السلوم بين عـامي ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ .

-١-

يوم رحيل قناوى

ولد.. شقي من الرعاة ، سمع الخبر ، اندس خلف جنديين يتهامسان والتقطه ، ترك أغنامه وركض .. بكامل قوته يعدو ، يقطع المنحدر بسرعة الريح ، تتدحرج أمامه الحجارة والرمال ، تستقبله الكلاب نابحة ، وهو يصيح : أبشروا يا عرب .. قناوي ما شي ، يا عرب .. يا عرب ، والخبر ينتشر والناس يخرجون من البيوت والخيام ، يتجمعون عند السوق وموقف السيارات ، يتساءلون : « إيش في ؟ » والمدينة كلها دبت فيها الحياة ، تسترد الروح ، والأسئلة تطرح : « إيش صار ؟ » و« وين ما شي ؟ » والولد تذكر ثم صرخ : « غنيماتي » وعاد يركض من جديد ، صاعدا ، للهضبة ، وأهل الخبرة والعلاقات ؛ نشطوا، تلفنوا ، تلصصوا ، تأكدوا ؛ قناوي سيرحل اليوم غير مأسوف عليه ، حالا سيغادر ، في أول حافلة سيترك المدينة . والبدو جنُّوا ، الفرحة جعلتهم يتصرفون بحمق ، ذبحوا جملا وخرافا ، أقاموا عرساً همجيا ، والولد المبشر ، يتلقي الهبات ، يحملونه كالفاتح العظيم ، يرقصون ، يغنون ، هذا يوم النصر ، بركاتك ياسيدي العوام ، استجاروا بمقامك فلبيت النداء وبدأت سيارات الأجرة تجوب الشوارع الضيقة ؛ مظاهرة صوتية بالأبواق .. بيب . بيب .. راح .. راح . والأغاني الشائعة تحرف : « يرحم بوك السلطة

راحت .. يرحم بوك » و « كرباجك طار طرف عيني .. يا قناوي بإيش تداويني » والنساء يزغردن ، وبنادق الخرطوش تطلق والغلمان ، تفننوا ، ابتكروا ، جمعوا كل حمير المدينة والنجوع ، المملوكة للمهربين ، والشاردة ، ركبوها ، اصطفوا علي جانبي الطريق وبأيديهم ، قلل وحجارة يغنون في صوت واحد مدو : « القلل القناوي .. شغل الصول القناوي » .

كل هذه الأفراح والترتيبات ، كانت تنتظرك يا قناوي يوم رحيلك ، وكأنك محتل غاصب ، أو حاكم أبدي أسقطه ثوار الصدفة . وأنت الآن ترحل ، تترك جنودك وموقعك مرغما ، تسبقك الإشارات والتقارير السرية وملفات التحقيق ، مهزوما تغادر ، بعد حربك العبثية ترحل ، كنت تحارب وحدك ، تكاثروا عليك ، هزموك ، وحيدا وقفت في أيامك الأخيرة بعد إبعاد بلال عنك ، رموه هناك في نقطة « الملفا * » حتي يموت قهرا وغيظا ،ليحارب الطريشات السامة والناموس، والذباب الوحشي ، ليسف الرمال الحمراء ، يختنق بالريح السموم ، لكي يجن بعيدا عنك ، في منطقة الجدب والجرب والانتظار ؛ رموه هناك بعد تلويث شرفه ، قضوا عليكما منفردين ، أنت هزمت وحدك ، تغادر وحدك وبلال لا يودعك ، مرمى هناك يعد نجوم الليل ، ثلاثة من معاونيك؛ ورابعهم بلال ، عاقبوهم وأبعدوهم ، يصلهم الماء والطعام والرسائل كل شهر ، أبعدوهم ،حتي

الملفا : منطقة صحرواية سيئة بين سيوه وجغبوب

يكسروك . ومن قبل ... حالوا بينك وبينـهم ، لا يفصـلك عنهم سوي القنال ؛ هم فى البر الشرقى .. يمرحون ويسبحون فى قنالك ، وأنت في البر الغربى يأكلك الغيظ ، تراقبهم ساكتا ، مقهورا مقيدا بوقف إطلاق النار ، والنار في صدرك .. فكسرت الحظر وضربتهم ، فعاقبوك وجاءوا بك للسلوم لتحارب الحمير والأغنام . فحاربت . أنت تحارب حيث تكون وتنتصر ، لأنك محارب . لكنهم سرقوا نصرك وهزموك بقانون الهمج . تخرج الآن من رئاسة السرية بسوطك وحقيبتك تخرج ، لا ودعوك ولا أقاموا لك وليمة النقل كالعادة ، حتي حارس البوابة يستهين بك ، يقف « صفا » متراخيا ولا يحييك بوقفة الانتباه مع أنها من حقك ، فمازلت مساعدا أولاً بالقوات المسلحة ، ومع أنك لا تأبه للمظاهر ، إنما ضايقتك الاستهانة ، تعود إليه شاخطا ، زاعقا : « انتباه يا عسكري .. هي حصلّت . » .

والعسكري بتكاسل وقرف يخبط الدبشك علي الأرض وينظر إليك متحديا ؛ الكلاب . حتي السائق المكلف بتوصيلك ادعي عطلا لكي تقطع المسافة ماشيا .. فينقطع نفسك ، حرضوه مع أنه بلدياتك .. تفوا عليهم ، تقف علي أول الطريق .. تنتظر ، لعل السائق يراجع ضميره . وتشاور للسيارات العابرة ويدنو منك ولد مشاغب بحماره ، يستفزك : «هيا يا حضرة الصول .. اركب .. هادا علي قدّك .. » تلوّح له بالسوط ،

يبتعد ، يكركر ضاحكا ويغني « القلل القناوي .. شغل المهبول قناوي »
وتسمع خلفك فرقعة وتري قلة تتهشم ، وأنت تسير ، تهبط علي مهل ،
تشاهد حميرا وغلمانا يحتلون جانبي الطريق ، بأيديهم القلل يكسر ونها
خلفك ، والحجارة يرشقونك بها في مزاح همجي ويغنون ، : « القلل
القناوي صنع الأهبل قناوي » فمن الذي سرب إليهم نبأ رحيلك ؟ ومتي
لحنوا هذه الأغنية ؟ والغلمان ، يتسابقون أمامك ، لا يهابون سوطك ،
يحاولون خطفه منك ؛ ولابد أنهم ، في السرية خافوا من جريمة تقع ،
فبعثوا إليك بالسائق في آخر لحظة ، فالتقطك . آه يا قناوي من هذا اليوم
العصيب وشماتة الأعداء فيك ؛ وبالذات ، الرقيب أول الداهية عبد
الراضي جعلوص والرقيب السوداني حمد البخيت ، من السودان أيضا
جاءوا في زمن فاروق الأول ليحلبوا بقرتك ، همج يا قناوي من كل
البلاد ؛ الصحاري ، الوديان ، الصعيد ، ضباط وجنود .. كلهم يا قناوي
فوق الهضبة يحلبون . والسائق بلدياتك الخائن يتودد إليك ، ينقذك من
غارات الغلمان ، يسرع بالسيارة غالقا نوافذها . غلمان عفاريت ،
يقلدون الكبار ، يجلسون علي ركبهم يحاولون التنشين علي زجاج أبواب
السيارة صائحين : « حيط يا عرب » . والسائق .. يسرع .. بلدياتك
وخانك ، حتي لو دافع عنك في يومك الأخير . وعند محطة الحافلة ،
يستوقفك بدوي شاب ، يسألك جادا : « يا حضره الصول .. بدي

نشري[1] قلة قناوي .. وين هادي يبيعوها » ويمنعك السائق من الاشتباك به ، يودعك وينصرف ، والحافلة لا تأتي لتبعدك عن هؤلاء ومدينتهم ، وأنت تنتظر متوترا ، ترمق دماء الخراف التي ذبحت وبقايا القلل وحطامها ، وتري صاحب فندق السلوم يوزع المشروبات مجانا ، احتفالا برحيلك ، يدنو منك بصينية المشروبات ، يعزم عليك ليستفزك ، تنظر إليه مشمئزا ، فيسبك : « عنك ما طفحت » والبدو يقفون في جماعات يتفرجون عليك ، ولن يصدقوا حتي ترحل . ويصيح أحدهم في ناظر المحطة : « كنك[2] يا راجل .. وين المخروبة هادي . خلونا نرتاحوا ؟ » والغلمان ، يناوشونك من جديد ، يكر أحدهم ، يكاد يبطحك بحجر كبير ، يندفع نحو بدوي عجوز ، يمنعه ناصحا : حيد عنه[3] يا ولد .. هادا عبد عطيب » وعشرات الشبان ، يستعدون ، يحيطون بك ، يغنون : « القلل القناوي .. شغل الصول القناوي ..» .. خطوة خطوة .. يتحركون لإرهابك.. وأنت ثابت ، ترفع سوطك مستعدا ، أبدا لا تهتز . تثبت نظراتك علي عيونهم ، ومازالوا يتقدمون ، ثم يجلسون جميعا علي ركبهم في حركة مسرحية ويصيح ، محركهم : « حيط[4]يا عرب » .. ترتفع الأيدي بالحجارة ، تتوقف في الهواء ، ثم يقهقهون وهم في وضعهم القتالي ، يستهزئون بك ، ويفتتحون مزادا سوقيا وهم يشيرون إلي سوطك .

---

١ – نشرى : نشترى
٢– كنك : مالك
٣ –حيد عنه : ابعد عنه
٤ حيظ : حجر

-« من يا عربان يشتري كرباج قناوي ؟ »

-أنا بكيلو شاي »

-« والله ما يساوى .. أنا أعطيه زجاجة با رزتا »

-« وأنا بموسي ناست »

-وأنا أعطيه قلة .. »

-« وأنا أعطيه هادا ... .. »

-ها ها ها

-« من يا عربان يزيد »

-« وأيش نسوي بيه ؟ »

-« تهش به غنمك »

ويتقدم الرجل العجوز ، بحكمته ووقاره ، يهددهم بعصاه صائحا : « كنكم يا أولاد علي* .. تحشموا .. الكلام هادا ما يصير عندنا .. هيا .. هيا .. ملعون والديكم .. » . وينضم إليك مصاحبا ، مدافعا ، يرافقك حتي باب الحافلة ، معتذرا ، مودعًا : « في أمان الله .. مربوحة .. مربوحة » والحافلة تتحرك ثم تتوقف بعد البوابة الشرقية للمدينة .. زفة أخري ؛ أغان ، طلقات بنادق خرطوش ، أيد ترفع أعلام الوطن . وأنت حائر ، تسأل نفسك عن المناسبة ، تظنهم قد انزاحوا عن حافة القنال ، تسمع مذياعك الصغير بسرعة ؛ قامت طائراتهم .. تصدينا .. وقامت قواتنا .. وأغنية « طول ما أملي معايا .. معايا وفي إيديا سلاح » .. ولا جديد . ما الأمر إذن ؟! تنظر مستطلعاً من النافذة ،

أولاد على : قبائل تسكن الصحراء الغربية

فتشاهد قطيعا من الأغنام خارجة من الكرنتينا ، أغنام كالنمل ، تكفي لإطعام جيش القنال شهرا ، وكانت في طريقها لبطون أثرياء بلاد النفط ، أغنام حربك الخاسرة إنها نفس الأغنام التي ضبطتها منذ أيام .. وتخرج الآن في حماية القانون ؛ قانون الهمج . والبدو سعداء ، يخرجون لك ألسنتهم ،. وأنت تغلي ، دماؤك تثور ، وبلال هناك يتآكل مثلك في صحراء المنفي . والسائق يشاركهم العرس بالنفير المتواصل ، يصدعك ،. والركاب البدو يحييون مواطنيهم القادمين بآكاليل النصر .. « مربوحة ،، مدبوحة » . وأنت وحدك في الجانب المعاكس الخاسر . أنت ومخك الناشف وسوطك وحربك العبثية . حرب الأغنام والحمير . تتجاهلهم حتي لا تنفجر تنشغل عنهم بمذياعك وأنباء حربك الحقيقية ؛ تتابع كعادتك ، سير المعارك الحربية بعد شهور من ضرب المدمرة إيلات .. ثم القصف المدفعي العنيف وحرائق مصافى الزيتية ، الحرائق هناك تندلع وأنت هنا تحترق . ويستفزك بدوي بسماجة : « بالله عليك يا حاج .. دير لنا غنيوة مليحة .. وفكنا* من وجع الرأس» . تتحسس سوطك ، تزوم ، تتعقل لكبر سنه ، تكتفي بغلق المذياع ، لأنك لا تسمع سوي النشرات ، حتي الأناشيد الحماسية تنرفزك .. لأن الحرب في تصورك ، ليست أغاني وموسيقى وكلام ، إنها ثبات وخطط ورجال . وماتزال تنظر للأغنام بغيظ ، طعام جنودك وقوت أهلك ، يتسرب ، فيأكلون « هبرها » ويشربون « الشاهي اللي بالنعناعي»

---

* فكنا : خلصنا

« ويتكئون باسترخاء » « يهدرزون » يخططون للحرب دون خوضها والاكتواء بنارها ، وقد سمعت سخريتهم بأذنيك عند السلك ، في حوار عنيف بينك وبين ضابط مغرور من مدينة النفط والمال : « أنتوا يا مصاروة ما عندكم رأس ، وهادا من الفول ، وديما تردوا لورا .. يا ودي .. الحرب يبي تريس .. والمصاروة شنو .. كاريوكا وأم كلثوم وجوزة وكورة ، لكن شنو .. قالها زمان : رجالها من ورق وهي لمن غلب . كدة خلونا نمشي غادي ونوريكم كيف يكون الحرب .. والله ما نريد غير سيف مليح وحصان أصيل .. ووينك يا طارق ..ووينك يا خالد وأنت يا أخوي إيش السوط هادا .. سايب العدو غادي وجاي تحارب في البدو .. إيش دارو لك .. خليهم يرحم والديك يسترزقوا . » . قال لك هذا عند السلك .. لأنك كنت تؤدي واجبك ، وكدت يومها تشتبك معه في حرب أخري خاسرة ، لولا صوت الحكمة والعقل . يسخرون وهم يأكلون لحم خرافك ولحمك . أغنام أولها هنا ولا آخر لها . تضرب كفا بالأخري ، تحتد ، تطالب السائق بالتحرك لتبتعد عن هذا النزيف ..

- **تحرك يا أسطي**
- **نفرح مع الناس يا حاج**
- **والله ما أنت فاهم**
- **تكلمني يا حاج ..**
- **لا يا ابني .. أكلم نفسي ..**

---

* الهدرزة : الحكى
* تريس : رجال

كلم نفسك أو انفجر ، فأغنام حريك ، ستلتف وتجتاز الحدود وتتحول إلي « هُبر » بينما بلال ورفاقه يأكلون الفول المسوس والعدس وخبز « الصاجة » ولا صفيحة ماء ينقذهم من الجرب ، وعلي بعد كيلو مترات منهم ، في واحة جغبوب ، نقطة حراسة عصرية ؛ سيارة بكرفان مجهزة بمولد كهربائي ومكيفة ، وأطعمة من كافة أنواع المعلبات المستوردة . وكل عدة أيام ، تأتيهم سيارة باللحوم الطازجة والخضروات و« الدلاّع * » والرسائل . وبلال يتبرز في العراء ، يمسح مؤخرته بحجر توفيرا للماء . وأنت هنا يا قناوي تأكل نفسك . وجنود السرية يضحكون من غبائك وحريك البلهاء يتندرون بك حزينا تتذكر تصرفاتهم ؛ الرقيب أول جعلوص أساء إليك في طابور التمام ، قلب الصورة ، شوهك ، تحدث عن الذين يدعون التقوي .. و« يأكلوها والعة » والرقيب حمد البخيت .. البهلوان السوداني ؛ أشبعك تنكيتا ... ممثل خطير جاء من الجنوب ليشارك في حلبها . والجنود يتهامسون خلف ظهرك ، يخمنون عن حجم الأموال في حقيبتك . الأوباش ، حتي الدليل البشاري ضحك عليك وانضم إليهم ، وما كان في تصورك ، أن هذا الصحراوي ، الذي ينطق بالكاد ويتلعثم ؛ معجون بالدهاء تلعنهم جميعا ، بما فيهم النقيب مجدي قائد السرية ، والملازم حتيتة الزوام .. نائب قائد مكتب الأمن الصحراوي ، ورحومة السنيني .. السمسار ..

---

* الدلاّع : البطيخ

وضباط الصف والجنود والبدو . ستة شهور مجيدة قضيتها محاربا . طار خبر سوطك اللاسع شرقا وغربا ، الذي تناله ضربة أو ضربات .. يتوب مؤقتا .. يقاطع السلك لأيام . وبعد رحيلك .. استمرت أفراح المدينة حتي منتصف الليل ، أكلوا « الفتة » وشربوا « الشاهي اللي بالنعناعي » .

ولكل واحد منهم « حكيوة » معك ؛ يهربون منك عند السلك ، فيجدونك كالعفريت تنتظرهم أمام الدروب الهابطة للمدينة .. تعفو عن أحدهم أول مرة .. وتنذره ، ثم تتعرف عليه في المرة الثانية ومهما تخفي وتلثم .. وتخرب بيتّه . ورغم شدة كرههم لك ، احترموك في نفوسهم ، لأنك لم « تتفتف* منهم » . وكانوا يحتارون في أمرك ، يتساءلون : «هادا إيش ؟ نبي ؟ ولّي » لكن الأنبياء في عرفهم يساعدون الفقراء ولا يخربون بيوتهم واستفتوا خطيب المسجد .. يسألونه : « يا سيدنا الشيخ .. المهبول هادا .. إيش يدير ؟ وإيش أمر التجارة في كتاب الله بين المسلمين .. واللي نديره هادا .. في حرام ؟ » فيجاملهم وهو ضيف مدينتهم ، والمستفيد من هباتهم : علي بركة الله يا جماعة .. تسعة أعشار الرزق في التجارة .

والآن.. خرجت من حياتهم ، استراحوا منك ونشطوا لجمع المال ،الذي نذروه لمقام « سيدي العوام » الذي طردك ببركاته .

---

* التفتوتة : الرشوة

- ٢ -

وقائع ما قبل الرحيل

هذه المدينة يا قناوي ، قبل وصولك ، كانت أم الصحراء وبئر نفطها وبنكها المفتوح علي البحري ؛ منذ تفجر البترول في صحراء الإبل وهي تزدهر بالمطاعم والدكاكين والغرباء والأفاقين والمغامرين . أما أهل الصحراء ، بدءاً من العامرية ، فقد تركوا الرعي والزراعة والصيد والبحث عن مخلفات الحرب ، وزحفوا للمدينة ؛ يسيرون ليلا في جماعات لحساب التجار ؛ رحلة شاقة تستغرق الليل كله بين المدينتين ، لكنها مربحة ، أجرهم في الليلة ، يعادل نصف راتبك في الشهر ، وأنت صول في جيش الوطن . أما أهل السلوم ، فيعملون لحسابهم بحميرهم المدربة ، وعندما يذهب الشاب منهم إلى الإسكندرية ويدخل فنادقها وباراتها ومطاعمها .. تنتعش ؛ أفضل غرفة لشيخ العرب ، أحسن مائدة ، أجمل بنت ، أشهر راقصة ، مثلهم مثل أهل النفط .. حتي الإسكندرية كانت تعيش علي خيرات السلوم؛ من أغبياء ينفقون ، مهرِّبات تُباع ، لعاهرات ينتقلن بأجسادهن ويجتزن السلك . كان هذا كله قبل وصولك . ثم جئت إليهم كالقدر ؛ بسوطك واندفاعاتك وجسارتك ، وأقفلت عليهم باب الرزق السهل ولم تفرق بين فقير يسعي

لقوت عياله ، وصبيان التجار . لقد نسيت في حربك ، أمر الفقراء المعدمين ، كنت تحارب معركتك وتؤدي واجبك ، مستندا علي النص : من أخذ الأجر حاسبه الله بالعمل . هذه قناعتك وحدود ثقافتك ؛ فهذا وطن .. وأنت مواطن مكلف . أمّا هؤلاء التعساء ، الذين وجدوا في صحراء لاتنبت سوي الأعشاب والصبار ، الذين خاصمتهم الأمطار ، حتي الأرض أبت أن تضخ ما في جوفها من زيت . وخصت الجهة المقابلة بكنوزها ؛ مع أنها صحراء واحدة ممتدة ، والقوم الذين هنا ، وهناك ؛ دينهم واحد وإلههم واحد .. إذن ؛ ليس غضبا سماويا علي البعض .. وإنما مجرد ضربة حظ .. وهؤلاء الفقراء الذين ليست لهم صنعة ولا حرفة ، سوي الرعي ولامراعي ، سوي زراعة الشعير ولا أمطار . ولديهم البحر ويأنفون من حرفة الصيد ، وإنما يعشقون صيد الغزلان التي شحت أو أبادها المترفون الذين يأتون للتسلية ، فلم يجدوا غير « جرابيع » الصحراء يأكلونها مشوية . هؤلاء يا قناوي ، لم يكن أمامهم خيار ؛ الموت جوعا أو احتراف التهريب وأنت لم تفكر فيهم كبشر مثل أهلك الفقراء في صعيد مصر ، ونظرت إليهم كمهربين ، وبلال كان يجادلك وينصحك لكي تفرق بين صبي التاجر والأرملة ، بين حامل البضائع الثمينة وحامل صندوق الشاي . ويفكرك بصعيدك وفقرك . فترد عليه ، تسكته لأن أهلك يعملون في التراجيل ، يكدون ،

يعرقون ، يبنون ، وتلجأ للنص ، يا بلال .. ربنا قال : الأعراب أشد كفراً ونفاقا . وبلال يسكت ؛ لأنه يحبك وتدافع عن البقرة يجد فيك الأمل .. ويراك رجل مواقف . وقد زاملك في التمد ووادي علي وزهر أبو طير ، وعرف من تكون ؛ تؤدي واجبك ولا تتوقع شكرا . لقد منحوك الأوسمة والشهادات والشرائط لكنك لم تسع لهذا ، لأنك محارب ولا تسأل ، اهجم فلا تتردد ، امنع التهريب فتمنع. وكان بلال يتمني لو تعمل عقلك تتوقف لحظة وتسأل : تهجم علي من ؟ تقتل من ؟ تمنع التهريب ... كيف ؟! قالوا لك ربنا فوق .. فآمنت . كنتما تختلفان عقائديا وتتفقان أخلاقا وسلوكا . ولأنك قناوي . وهذه قناعتك .. فعلتها وقضيت علي المدينة ؛ مطاعم أغلقت ، متاجر أفلست ، مقاهي تشكو قلة الرواد ، وفندق السلوم يجلس صاحبه ينش الذباب وسيارات الأجرة لاتجد ركابا . تذمر شامل عم المنطقة ، كساد بوار ؛ لدرجة أن رحومة السنيني ، استأجر إسكندرانيا محترفا لتصفيتك جسديا .. لأنه كان مجروحا منك لدرجة الجنون .. يثأر منك أو يموت كمدا . مع أن إزاحتك والتخلص منك .. قتلا أو إبعادا .. كان حلم الجميع ؛ جيشا وشعبا . وصرت مصدر قلق للنسور الذين هنا ومن يساندونهم وأولاد الذين كلهم .

وفي مكان ما .. اجتمعوا ، تباحثوا ، تآمروا ؛ تجار المواشي الكبار وتجار الأشياء الأخرى والسمسار العجيب رحومة ومندوب

العسكر حمد البخيب .، ومن خلف الستار ؛ المحرك والمنظم والآمر والذي بيده مفاتيح الصحراء وابن الصحراء ضابط الجرابندية الملازم حتيتة الزوام والقائد الفعلي لمكتب أمن الصحراء دائما . وأحيانا يكون هناك قائد وهمي بالإسم وفي الغالب ، هو القائد بالنيابة ؛ ولد معجزة ، داهية وابن عفاريت ، أكثر من مرة يتم استبعاده بناءً على تقارير جهات أمنية أخري .. فيعود ، ومرة فصلوه من الخدمة ثم عاد . والكل يخشاه ويعمل له ألف حساب ، تقريره والقبر ، وكل مصائب الدنيا تتم بمعرفته ، يملك الصحراء برمالها وجبالها وبشرها . وهو الذي أمر بهذا الاجتماع .. لكن من بعيد ، فما من جهة أو أحد أمسك عليه فرصة أو دليل إدانة . يورط ولا يتورط ، ولد لم تأت الولّادات بمثله سوي معاوية وابن العاص .

وطرح كبير التجار السؤال الأول علي حمد البخيت : « إيش اللى صار وليش صار اللي صار وليش ما نبهتونا ، وليش المصيبة هادي ، ووين راحت قروشنا .. وتوا تحلوا لنا المشكلة وأغنامنا هادي المرمية في الجبال لابد تمر لأن أصحابنا غادي يريدون اللحم . وإن كنتم ما قادرين . إحنا قادرين نشيل المحافظ والسرية .. إيش قولك يا سوداني ؟ » وحمد البخيت ، يشرح ، يفسر ، يبرر ، ويعد برد مبلغ ثلاثين ألفا من الجنيهات هي إكرامية الصفقة المصادرة ، لكن النقود تم

توزيعهاويصعب جمعها وخصوصا من النسور : « لكن شنو .. كلمتي واحدة . وهاتوا ورقة وقلم .. أعطيكم كمبيالة .. شيك .. كيف ما تريدوا .. يازول نحن ولاد السناجك * » .

ويقتنع الكبير بكلامه : « هادا مليح .. ونحن بدو وتكفينا كلمة الشرف و نحب أهل السودان .. الفاتحة يا عرب .. ».

أما رحومة السنيني ، فقد عقدوا له جلسة حق عرب وحكموا عليه بالغرامة وتحميله كافة المصروفات الزائدة والتي أنفقت لإنقاذ الصفقة من المصادرة ؛ لأنه فشل في احتوائك أو نقلك أو تحييدك أو رشوتك ، رغم إدعائة الوصول إلي أكبر كبير وهو عاجز عن امتصاص « حتة صول » فقير مرتبه الحكومي ملاليم وأهله يأكلون المش والبصل والبتاو . وسأله الكبير متعجبا : « يا رحومة .. الصول هادا إيش يكون ؟ مهبول ؟ مجنون ؟ درويش ؟ قال لك ما يريد قروش ؟ شاف الورق الأخضر ؟ شاف الدينار ؟ قلت له هاك واشتر أرضاً وجاموساً مثل العمدة ؟ قلت له هادي فلوس حلال من التجارة ؟ طيب يا سيدي أعطيه هدايا ... صوف إمبريال .. ساعات . سجادة صلاة من الحرير سبحة كهرمان . إيش يار حومة ؟ وين عقلك .. وإيش تقول . نريد نسمعك ؟ » ورحومة يرد في جملة واحدة ناكسا رأسه : « هادا كله صار .. لكنه صعيب .. صعيب » .. ورحومة فعل الكثير من قبل .. رصد ألف جنيه

---

* السنجك : الفارس

لمن يساهم في قتلك أو نقلك ، وسلط عليك البنت مبروكة . تصور يا قناوي ، صار لك ثمن . وفي هذا الاجتماع التاريخي ، اتخذوا قرارات بشأنك ، جمعوا توقيعات كل مواطني الصحراء وأبرقوا باسمهم جميعا لكافة المسئولين ؛ مدير الحدود ، مدير الأمن ، المحافظ ، الوزراء ، وتصعيدا حتي رئيس البلاد ، ثم تطرفوا وتجاوزوا إلي الملوك والرؤساء العرب ، ثم عبروا البحار إلي الأمم المتحدة ؛ يحيطون الجميع علماً ، بأن داورية حدود ، يقودها صول مجنون ، تعدت علي النجع ، وأطلقت النار علي البدو المسالمين ، وصادرت ثروتهم الحيوانية ، وأن هذا الصول ، دأب علي ضرب البدو بالسوط ، لمنع تزاورهم وتواصلهم الإنساني بأقاربهم في مدن النفط . وأنه ، يهتك أعراض البدويات ، ولهذا كله ، يطالبون بالتحقيق الفوري السريع ، خلال أربع وعشرين ساعة ، وإلا قامت مواجهة دامية ، بين الأهالى وسرية الحراسة ، ويحمِّلون الجميع ، مسئولية التأخير .

- ٣ -

زيارة هامة

كل قوي الشر تتحد ضدك الآن ؛ قرورا سرقة انتصارك ، ليظل وسامك البرونزي مجرد ذكري . تصور يا قناوي ، بطائرة مروحية جاء

من أجلك ، وإن بدت الزيارة شبه تفقدية ، ومثل هذا الجنرال .. لا يتحرك سوي لأخطر المهام ، تخيل ما تشاء .. لكنك الهدف ، والرجل يا قناوي برتبته الكبيرة وزحام مرافقيه .. أتي لذبحك . أنت الآن . أهم من حافة القنال وحرب البقاء . لكنك تحلم ، تتصوره سيستدعيك لينصفك ، فتضرب له تعظيم سلام كما أنزل وتقف أمامه انتباها من حديد ، وتقول له بثبات : أنا يا افندم المساعد أول قناوي الشريف الذي شرف وطنه في سيناء واليمن وحصل علي ثلاث ترقيات استثنائية ووسام وشهادة تقدير من قائد القوات المصرية في اليمن ، وسلم عشرة الآف جنيه كانت مرمية في سيناء ، وأنقذ بر مصر من مجاعة محتملة بضبط كل هذه الأغنام ؛ وأنا يا افندم .. لا أريد شكرا علي واجب أديته ، ولكني أرجو سعادتك ، إعادة العريف بلالاً وثلاثة جنود منفيين في نقطة « الملفا » لكي يساعدوني في مهمتي الصعبة ، كما أرجو سعادتك . تطهير السرية من جعلوص وحمد البخيت وبالمره يا سيدي ، قائد السرية وحتيته الزوام « بتاع المخابرات » وأن تأمر سعادتك باعتقال رحومة السنيني ، تحلم بهذا كله ، ونتخيل رد الفعل ؛ سيأمر سعادته بجمع السرية ويقف أمامها متباهيا ويعلنها ؛ بصفتي مندوبا عن القائد الأعلي ، أتقدم بالشكر للمساعد قناوي وأوصي بترقيته إلي رتبة الملازم شرف ، هكذا كنت تفكر وغبار الطائرة يعبيء الجو ، تحلم وأنت محاصر في السرية

وممنوع من مغادرتها تحت حراسة شيخ المنصر جعلوص حتي انتهاء التحقيق ، ولماّ جمعوا رئاسة السرية ليمر عليها ، تجاهلوك ، فلبثت تنتظر حتي جاء ، وخرجت من غرفة الحرس ووقفت خلف الطابور .. ترفع يدك تطلب الكلمة ، .. تمام يا افندم . صوتك يضيع . يتبدد . تمام يا افندم . لاشيء لا أحد يسمعك أو يحس بوجودك . فتشرئب بعنقك ، ترفع يدك لآخر مداه .. وصوتك يعلو : تمام يا افندم .. أنا المساعد قناوي ومتظلم من قائد السرية وأطلب مكتب سيادتك لأن عندي أقوالاً سرية . ينظر إليك باستعلاء وقرف ولا يستجيب ، ينصرف لاستكمال جولته التفقدية ، فتعود لغرفتك وسجادة صلاتك ، تبلبع أقراص منع الإسهال .

ويمضي الرجل بزفته لتفقد السلك وقال لقريبه قائد السرية أمام الجميع إنه مرتاح الضمير لنظام الحراسة وأمانة الجنود ، حراس الوطن ، عدا الشواذ والمنحرفين من أمثال بلال وقناوي .

ثم زار النجع والمدينة واستمع للشكاوي وأصدر تعليماته بإنهاء أزمة المدينة فورا لأسباب سياسية وأمنية ، وقال لمن سينفذون توصياته : نحن في حالة حرب يا جماعة ولابد من تسكين مناطق الحدود ، ولاينبغي طبعاً إزعاج الرئيس بمسألة أغنام وكلام فارغ .. واسمحوا للأهالي بزيارة ذويهم في البلاد المجاورة بدون اجراءات

رسمية .. وأنت يا مجدي لاتشدها فتنقطع ولا ترخيها فتصبح فوضى ، فيرد عليه موافقا : طبعاً يا أفندم وهذه سياستي ؛ نغمض عيوننا ، فينشطون ، فنتركهم يوما ونمسكهم يوما ، فيطعمون أولادهم ونملأ مخازن الجمارك بالبضائع . لقد تسبب هذا الصول الأحمق في شل الحركة تماما . وليس لدي عساكري ما يفعلونه سوي الحكي والنم والمشاجرة وغزو الحمير والتفنن في طلب التصاريح .. ويعدل الرجل الكبير عصا المارشالية تحت إبطه ويتفلسف : الحرب تستنزف ميزانية البلد ، وليس لدينا فائض نبني به مصانع ومصادر دخل لبدو الصحراء ، فلا بد من مساعدتهم .. رغم أنف القوانين .. أليس كذلك يا مجدي ، أم لك رأى آخر ؟! فيرد قائد السرية مؤيدا : كلام سعادتك سليم يا أفندم .. ولهذا أترك الباب مواربا حتي لا يجوعوا .. فيثوروا ؛ لكن الصول قناوي حمار ، جلف ، كل يوم نفس الموال « يا عم قناوي .. شوية كده وشوية كده » .. لا يفهم .. أبداً لا يفهم .

وهكذا يا قناوي تم ذبحك وتمييع قضيتك وتشويه معركتك ، والجنرال أوصي عليك نائب الأحكام الذي سيحقق معك ، أن يتعامل بشدة وحزم ويطبق عليك نصوص القانون بلا رحمة .

أفراح السلوم .. لا تنتهي ،، وهذا يوم نصرهم الكبير .. بركات «سيدي العوام » هلت عليهم ، وبينما أنت يا قناوي ، قاعد فوق سجادة

صلاتك ، « تسف الشيح وحلف البر » لوقف إسهالك ، كانت المدينة تستعد ؛ خيمة عربية فخمة مفروشة بالسجاجيد ، خيول عربية للرقص ، منشدون وراقصات بدويات ، غزلان صيدت وشويت ، خراف ذبحت ، فأولموا وتفرجوا ؛ الضيف الكبير وكل قيادات الصحراء من مشايخ وعمد وتجار وموظفين ومسؤلين . وفي ختام الحفل ، عانقوا الضيف وأهدوه بسخاء وأنت في غرفتك تصلي وتدعو عليهم ربنا ، وإسهالك لايتوقف ، يأكلك الغيظ ، ورجالك في « الملفا » يأكلون الانتظار ، والعساكر الذين في البر الغربي يمضغون الصبر والناس في الريف والمدن يكبسون بطونهم بقشر الفول ، الذي يدمر القولون . وكانوا علي بعد أمتار منك ، يأكلون المشوي ، دون شبع ، فأكلوك نيئا ، تخاطفوك ، وبلعوك ، « حلوًّا » بك . فمن بين الذين ملأوا بطونهم ، واستمتعوا برقص البدوية ، وأخذوا الهدايا ، تكونت اللجنة التى ستحدد مصيرك ، ومصير أغنام حربك .. وكله بالقانون . زاروا النجع وسألوهم ثم التقوا ببعض جنود نقط الحراسة ، وفتشوا عن ثغرات القانون ، استعانوا بالخرائط القديمة والحديثة ، وسألوا خبير اقتفاء الأثر ، مندوب وزارة التموين ، مندوب الجمارك وكل من أكلها مشوية . وأدلي كل واحد برأية وتصوره : واستنادا علي الفقرة كذا من قانون الجمارك . وبالرجوع إلي قرار وزير التموين الصادر في ... ، وأنا أري . وأنا أقترح . وأنا أتصور .

وحيث إن وترتيبا على . وقال رئيس اللجنة : إذن ، اتفقنا جميعا على أن الصحراء كلها تعتبر مراعياً مفتوحة للبدو دون مناطق محرمة مالم تصل الأغنام لعلامة الحدود الدولية ، فإذا تجاوزتها تعتبر مهربات ، وبما أن الأغنام محل النزاع كانت ترعى فى المساحة المسموحة ، قررنا بإجماع الآراء تخويل وكيل النيابة سلطة اتخاذ القرار . وقال وكيل النيابة دون تردد : إفراج .. إفراج طبعا . وهكذا يا قناوى ، خرجت أغنامك .. بسلامة الله .

- ٤ -

تحقيقات

باقى الطبخة ، تمت فى الاستراحة البديعة التى شيدها الانجيلز ، وسكنها روميل فيما بعد وحفر أمامها خندقا عند منحنى الطريق الثعبانى .. أمام ميناء السلوم القديم . استراحة رائعة ، ساحرة ، تشرف على البحر ، تتلقى منها النسمات العليلة وتتحكم فى السيارات العابرة . وكانت فى مجدها الغابر ... بيتـا لعظيم ، يستجم فيها بعد معارك الطحـن والكر والفر . وآلت الآن لأمن الصحراء وبينمـا هناك ، عند حافة القنال ، تنهال قنابل الألف رطل من طائرات الشبح الهمجية ، والرجال ينامون قاعدين بملابس الميدان ، يأكلون بيد واحدة وبالأخرى

بندقية ويحلمون بصفيحة ماء ، يغسلون بها أبدانهم المتربة ، المعرضة للجرب وعيونهم المعمَّصة من طول السهر وبينما بلال ورفاقه يعانون من مرارة الترك والقحط فى صحراء « الملفا » ، وبينما أنت تصلى وترنو للسماء تستنجد بربك ليقتص لك من عباده الظالمين ، وإسهالك المهلك لا يتوقف رغم الأنتوسيد والحرجل والشيح وحلف البر ؛ كان بالاستراحة ثلاثة رجال يخططون لتدميرك ؛ نائب الأحكام وقائد سريتك وحتيتة بك .. قائد مكتب الأمن بالنيابة ؛ ابن الصحراء ، حفيد معاوية ، الذى ترقى من عسكرى إلى ملازم أول جرابندية وصار كما هو الآن ؛ فوق الجميع ، وما من قائد مكتب صمد هنا ، يورطهم ، يحيك لهم المكائد « فيطبون كالجرادل » ويضربهم « زمبة » متينة وتقريراً بالأدلة ويعصف بهم . ولم يبق سواه والنقيب مجدى .. لأن مصدر قوتهما واحد ؛ الرجل الكبير .

وكانوا الآن ، يجلسون على راحتهم ، فى مواجهة البحر ، وأمامهم مائدة وزجاجات بيرة وكورفوازيه ومزات مختلفة وصواريخ من السجائر المحشوة ، يشربون ويستمعون لأم كلثوم ويتحدثون أيضا عن الوطن والحرب والهموم القومية والحملة الظالمة التى يقودها البعض ضد الضباط ، مع أنهم يبددون أعمارهم فى الخنادق والصحارى بلا ترفيه ولا نساء ، يقول مجدى وهو يدعك ما بين فخذيه : « الواحد يا

جدعان .. قرب يجّن .. نفسي في مرة » . فيضحك حتيتة بك ويقول شاتما : «أنت وسخ .. جري إيه يا جدع .. ما تشيل إيدك .. حلوة دي .. ما تجيش .. ؟!» . ويعلق نائب الأحكام ساخرا : « ما عندك الحمير ..! » فيرد عليه مجدي مشمئزا : « أنت مقرف قوي .. طبعا يا عم .. قاعد في مطروح والمسائل ما شية معاك .. » ويعتدل حتيتة بك ، يتحدث مقلدا الصفوة ، مع أنه متواضع الأصل وبالكاد حصل علي الابتدائية وتطوع بها : نحن عالم متخلف ومغلق ، الأمريكان والإنجليز في عز الحرب والدمار تصلهم النساء حتي الخنادق ، والعسكري الإسرائيلي بجواره مجندة وفي جرابنديته زجاجة الويسكي . فيقول مجدي مستغلا الموقف ليثيره : ما رأيكم .. نجعلها سهرة بالمرة ونستدعي البنت مبروكة « أي حاجة والسلام » . ولأن مبروكة بدوية ، يثور حتيتة البدوي ، يبصق علي الأرض ويقول بقرف وغيظ : « يا جدع انضف بقي .. دي عمرها ما شافت الميه .. ودين النبي هادبحها في يوم علشان ترتاح » .

ثم ينشغلون فترة بالشراب والمزة ، وينسون الشيء الذي يعوى بين أفخاذهم من الراحة والطعام وخلو البال ، وينحرفون بالحديث نحوك ، لأنك همهم الرئيسي وشاغلهم ، والعظمة المحشورة في الحلق . أنت أهم من الحرب والترقيات والأهل وماما وبابا وبنات النوادى وعاريات شاطيء مرسي مطروح وسائحات الأوتوستوب اللاتى

يجيد مجدى اقتناصهن ! ولكل واحد من الثلاثة دور فى موضعوعك : واحد يقطعك طرنشات ! وآخر يتبلك ويوضبك والثالث يقدمك جاهزا على مائدة اللئام . ومايتبقى من كرش الزائر الكبير ! يتكالب عليه صف الضباط والعساكر والبدو . وقبل طهيك ، كان لابد من تهيئة نائب الأحكام للدور ، حتى لا تأخذه بك رحمة . فعرجا للحديث عن مدينة مساعد المجاورة ودكاكينها العامرة بخيرات الدنيا شرقها وغربها ؛ سلع معمرة ؛ أصواف ، حراير ، لعب .. والأهم من هذا كله ؛ النظارات الريبان والبيرسول والولاعات .. مستلزمات مظاهر الشياكة . ونائب الأحكام ! يفتقد لأشياء كثيرة من هذه ، فحذاؤه الأسود محلى ، وشراباته من المحلة ، وساعته ماركتها من زمن جده ، ونظارته الشمسية كحياته ، فتنهد وفتح لهما الباب ؛ " الواحد نفسه .. " .. فألقى إليه مجدى بالطعم :

- **اتفضل سعادتك بزيارة على الطبيعة .. لتختار بنفسك .**
- **نعبر الحدود ؟**
- **البركة فى حتيته بك .**
- **فى الواقع .. من زمان تمنيت زيارة ليبيا .**
- **لا تتردد .**
- **ولكن ..**

ثم سكت ! فقدموا له مزيدا من الشراب .. ليفصح وينطقها بلسانه

وأنت يا قناوى ما تزال تحلم بالطير الأبابيل ! وبالذى يمهل ولايهمل وتجرى إلى دورة المياه وتعود لتحشى معدتك بالشيح وحلف البر . وهم يعملون بهمة ! يحاولون تليين المحقق ليطبق عليك نصوص القانون كما نصحه زائر الهضبة . وهبط سعرك من آلاف الجنيهات لمستوى النظارة الريبان و " شوية حاجات " وهو الآن متوتر ! يدخن بعصبية ! يشرب بسرعة ! لا لأنه يفكر فيك بهذا العمق ! وسيحقق معك بقانون الأرض بعد تلوينه . وحالفا على قرآن السماء بعد الاستغفار . إنما يفكر فى الفجوة الهائلة بين محتويات محفظته والأشياء التى يحلم بها : عطور البارفان ! قمصان النوم ! صوف الهيلد والسيلكا وأجهزة التسجيل والراديو وتكنولوجيا المطابخ . ياه .. لابد من السطو على بنك ليبيا فرع مساعد. وقد أدرك المضيفات المأزق الذى يواجه الضيف ! هذا أمر يعرفانه ويمارسانه لأن أحلام الضيوف الرسميين ! أكبر دائما من إمكانياتهم ! وهما دائما يمدان يد العون ! لهذا استمرا هنا رغم العواصف والعيون الراصدة . فيتساءل مجدى مستعبطا : " مالك ؟ فى إيه ؟ " .

- **فى الواقع .. لست مستعدا لهذه الزيارة .**

- **لا تحمل هما للنقود .**

- **المسألة أننى .**

- **يارجل . . نحن إخوة .**

- **هذا كثير .**

- توكل على الله .

ويتدخل حتيتة بك وهو يفتح زجاجة الكورفوازيه النادرة ويصب له كأسا لزوم الفرفشة وإزاحة الحرج وفك عقدة اللسان : انتهينا من موضوع الفلوس .. فهذه مسألة هينة وعليك " بكلفتة " تحقيقاتك بسرعة حتى يتسنى لنا دخول مساعد قبل أن تغلق الدكاكين أبوابها .

كانوا يتصرفون هكذا ! والطائرات هناك ! تتجاوز خطوط المواجهة ! تتوغل .. تكاد تدخل البيوت . والرجل يقول ! يخطب : ماأخذ بالقوة ... ! والمطرب يغنى عن الأمل الذى معه . وبلال ورفاقه مبعدون ! منفيون فى جحيم " الملفا " .. لا يتم غيارهم ! لايسمع أحد أناتهم . وأنت ياقناوى لا تجد وسيلة لإيقاف إسهالك ! وهم فى الاستراحة يشربون ! يدعكون بين أوراكهم . والنقيب مجدى يسرح ! يحلم بواحدة من بنات الأتوستوب ! كان محترفا فى اصطيادهن : يجوب الطريق بسيارته راصدا ! حتى يعثر على واحدة مع رفيقها : يتحايل ، يهدد ، يغرى بإنجليزيته الركيكة ويسحبهما للاستراحة : وبالويسكى والطعام وتسهيل مواصله السفر ، يكون مايكون . ومرة استعصت عليه واحدة ألمانية ، افترقت عن رفيقها بعد مشاجرة وعثر عليها وحيدة تشاور للسيارات ، التقطها وقال لها : هاى هتلر .. فضحكت .. فاستبشر خيرا وأخذها للاستراحة ، استحمت وأكلت وشربت ولاشئ آخر وكلما دعاها

للسرير والحب تقول له بحزم : " نو ناو .. أيام تايرد " . واستمرت فى عنادها وكادت تغفو ، فهجم عليها واغتصبها ، فقامت من تحته غاضبة وشتمته بكل لغات العالم وكتبت فى مذكراتها بعد ذلك كلمتين : عرب همج . وأبدا لم يكف عن مطاردتهن حتى لو كن فى خريف العمر ، أفضل من مبروكة بدمها الثقيل ، إذا عشقت أسعدت ، وإذا أرغمت .. أتعست، وهى تأتى مرغمة ، يذهب إليها رحومة ويأمرها .. فتدخل الاستراحة وتنام ، تفتح ساقيها وتقول له قرفانة : هيا . لأنها تكره الضباط ورحومة القواد . ومجدى المضطر ، يطؤها مشمئزا ويصرفها متقززا ، فترفض نقوده وتسأله غاضبة : " كنك .. إيش بيه* .. ؟ " ومع ذلك : كانت تتعامل مع عساكر السلك بود ونادرا ما ترخصت لأحدهم : فهى امرأة من نوع خاص لا تعطى إلا لمن تعشق .

وأنت ياقناوى تنتظر التحقيق والعدالة وتجهز نفسك بتقرير مطول به كافة التفاصيل ، ويصعد إليك نائب الأحكام متنشيا ومعه كاتبه ، ليكلفتك ويدينك ويطلع ... " وحين جلس وبجواره القرآن ، واستعرض أسماء الشهود : استبعد الكثيرين واستبقى من أوصى بهم النقيب مجدى . وطلب ملف خدمتك ليأخذ فكرة سريعة عنك : فلفت انتباهه عدة أمور فى صفك ، أهمها : شهادة تقدير وترقية إلى رتبة مساعد ، لأنك

---

*كنك : مالك : إيش بيه ؟ : ماذابى ؟

عام سبعة وستين ، عثرت على حقيبة نقود بجوار ضابط شهيد : هى مجموع مرتبات كتيبة ، وقمت بتسليمها ، ولم تتخل عنها طوال رحلة الجوع والهلاك والمخاطر . وكذلك توصيات وترشيحات لرتبة الملازم شرف .. لولا حادث غرب القنال . ولم يجد شائبة ضدك : بعكس ما صوروك : مشاغبا ، مرتشيا ، هاتكا للأعراض . وسلمه الكاتب تقريرك المطول ، قرأها وأصيب بالدهشة والهلع ، فطارت السكرة من رأسه : فإما أنك مشاغب فعلا وتحاول تلطيخ الجميع للخروج من أزمتك ، أو أنه أمام مافيا خطيرة ، استولت على الحدود الغربية لحسابها الشخصى . وحين نودى عليك ، ورأى علامة الصلاة فوق جبينك ، والمسبحة بيدك ، احتار فى أمرك . مسح عرقا غزيرا ، نظر للقرآن خائفا . تذكر الحفاوة ، تذكر الهدايا المتوقعة ، تذكر توجيهات الزائر الكبير . تمزق. انشطر : فليس من الحكمة أن ينصرك على زملائه الضباط ، وليس من الدين مخالفة الضمير . ولسوء حظك ، قبل أن يحسمها ، بدأ مهزلته معك ..

- أنت المساعد قناوى ؟

- أفندم .

- غريبة ؟

- ماذا ترى سعادتك ؟

- حسبتك مثل خُط الصعيد .

- والآن ؟

_ " ولا حاجة " .

- الله يسامحك يا افندم .

- فتوة حضرتك ؟

- كنت أؤدى واجبى .

- وتضرب الناس بالسوط ؟

- وهذه ليست المشكلة .

- إنى أسمعك .

- إنهم ياسيدى يخربون الديار .

- وأنت حاميها ؟

- على قدر استطاعتى .

- بتكسير الأوامر ؟

- الضرورة يا افندم .

- لكنك فعلتها من قبل فى السويس .

- ونحن هنا الآن .

- وتحرك داورية بمزاجك

- قلت لسعادتك فى التقرير عن السبب .

_ اسمع منك .

وتنير له الطريق ، تفسر ، تبين ، تكشف المستور ، تحكى له من الأول : المعلومات التى سربها إليك الدليل البشارى ، القائد الذى تبخر بعد المهمة الغامضة التى قيدك بها فى السرية ، العريف بلال ورفاقه . الثعلب السودانى ، الداهية جعلوص . حتيتة بك . والأغنام يا افندم ، ثروة البلاد : وأنت لم تسكت .. ولن ... ، هكذا خلقت . وتقول له الكثير ، تحاول جذبه لصفك ، للحق . للعدل ، لكنه لا يسمعك ، باله مشغول

بالمدينة المجاورة يتابعك بشرود ، يعلق بآلية " هه .. وبعدين .. هه .. يعنى كدة " مشغول عن ثرثرتك العقيمة بالريبان ، الساعات ، الولاعة الرونسون ، الجوخ لأبيه ، اللعب للولد ، دانتيل الفرح لأخته .

وأنت تثرثر ، تؤذن لصم فبعد كل الذى قلته .. يسألك :

- قلت ماذا ياعم قناوى ؟

- لا شئ يا افندم .. لاشئ .

- نعود لتحقيقنا .

- وهل كنا نلعب السيجة يا افندم ؟

- أقصد للأوراق ..

- اتفضل سعادتك .

- ذكر الشهود أنك سلبت الأغنام من نجع العرب ؟

- إننى أول من يقف أمام سعادتك .

- أقصد التقارير والمعاينة الميدانية .

- تقرير من يا افندم ؟

- أمن الصحراء.

- أكاذيب ؟

- والمعاينة .

- ألا عيب

- تأدب

- وهل أخطأت فى البخارى ؟

- تتهم بلا دليل

- ومن الذى عاين يا افندم ؟

- لجنة كنت ضمنها

- سعادتك ؟

- والنقيب مجدى .

- الله اكبر

- وحتيتة بك

- "تبقى كملت"

- ماذا تقول ؟

- علىّ العوض يا افندم

- بماذا تلمِّح ؟!

- كل الشهود .. سيكذبون .

- كيف خمنت ؟ ولماذا ؟

- ضغوط يا أفندم .

- ممن ؟

- أصحاب المولد .

- حدد ؟!

- سأفعل أمام جهات عليا .

- ممتنع عن الإدلاء بأقوالك ؟

- سعادتك منحاز لهم .

- أنا ؟

– ومتظلم منك ، لأنك تجاهلت تقريرى ، وكاتبك لا يدون بدقة ، والمسألة فيها إنّ ...

- متظلم منى أنا ؟

- نعم يا افندم

- اشرب من المتوسط

- ٥ -

الدليل عبد الرسول البشارى

اشرب يا قناوى من المتوسط ، فهو على بعد أمتار، وإن لم ترتو ... فعليك بالأحمر والأسود والميت ، والأفضل لو تبحر للمحيطات ، تعب منها وتسهل . اشرب يا قناوى من "كيعانك" مثلما شربت من قبل كل المرارات والسفالات ، ولعقت عرقك فى سيناء أول مرة ، وفى الثانية لحست الندى ، وفى الثالثة شربت بولك. وقد سقاك الدليل البشارى مقلبا شديد الملوحة : هذا الصحراوى الهمجى الذى ينطق العربية بالكاد ، ضحك عليك وأفلت بالحمص. لو حكيت قصته معك فى مجالس الأشراف كيف تقول لهم إن بشاريا بنص لسان ممن يفدون بالجمال إلى سوق دراو ويضحك عليهم أتفه ولد ويبيع لهم منقوع البراطيش فيظنونه دواءً لوجع البطون : وتجردهم أفشل غازية من ثرواتهم وتسحبهم لخرابة لها بابان وتهرب. وبشارى من هؤلاء السذج، ضحك عليك وجعلك جسراً لأطماعه.

والآن ، يستعد لتوجيه القاضية إليك . وقبل مثوله أمام المحقق ... اجتمع مع باقى أفراد العصابة ، ووقعت بينه وبينهم مشادة عنيفة كادت تنتهى بمعركة حربية بعد سب الأصول والجذور وخصوصا مع جعلوص الطين وحمد القطران ، وكادت البنادق تخرج من السلاحليك

وهات ياضرب. لأن جعلوصاً! كان يظن الدليل سهلا ودرويشا .. فأكل حقه. لكن حمد البخيت، الثعلب المحنك، النمر، يتدخل ، يسحب الدليل وجعلوصاً لغرفة جانبية ويحل الخلاف بالتهديد والسياسة : "أنت يا جاه الرسول يا ود عمى .. نحن قرايب وخلينى أحل موضوعك أنت داير شنو؟ قروشك بالمليم ؟ وأنت يا جعلوص .. قروش الزول وين ؟ ما فى دكران ياكل دكران .* . والطمع ودر* ما جمع . نحنا كم واحد ؟ خلونا من العساكر . وأنت لك كم يا بشارى فى الحساب القديم؟ ألف جنيه. طلع يا زول .. هز جيوبك .. وأيمان المسلمين هالساعة تقوم القيامة لو ما دفعت ادفع يازول . خلى عندك دين الزول الدليل أخونا وود عمنا..". ووجه حمد البخيت تعنيفا حادا للجماعة كلها، الذين يهددون المسائل بالتدمير وسوء المعاقبة وأصر الدليل – قبل أداء الشهادة – على تحديد نصيبه بوضوح فى الصفقات التالية، وضرب دبشك البندقية على الأرض وقال بعصبية: "ما فى زول ياكل حقى .. أنا جاه الرسول زول الجبل والسيف والفروسية وناس زينب .. ما يقدروا ونشوف". وقال حمد البخيت لجعلوص مؤنبا : "يا زول ما فى داعى لحركات النص كم بتاع ناس مصر .. حقى وحقك. ما قالت لكم الولية المغناواتية .. ما تروحش تبيع المية فى حارة السقايين وانا براى* ما عندى مشكلة ..

---

* دكران : رجل
* ودر : بدد
* براى : وحدى

شبعت والحمد لله .. وأول ما تدربك .. يا فكيك للسودان وأنـت يا جعلوص لوين تمشى .. ودا آخر كلام ..".

وهكذا تم الاتفاق على مساواة الدليل بالصفوه من الحالبين. ثم نادوا على باقى الجماعة من العرفاء والجنود القدامى وشالوا جميعا الفاتحة ووعدوا السيدة بنذر عظيم حين تنتهى المشكلة على خير، دون خسائر وضحايا ، وكل واحد من الحاضرين، لم ينس ولىّ بلاده : استجار به ووعده بنذر من ماله الخاص ، بدءا من مقام سيدى العوام الذى فى مطروح وشيخنا الرعاش فى سيوة ، وسيدى الشاذلى حامى سكان البحر الأحمر ، وسيدى المرسى أبو العباس حافظ الإسكندرية من السيول والأنواء وغزاة الشواطئ ، ومرورا بالسيد البدوى الشافى من ديدان البلهارسيا ، ووصولا للسيدتين زينب ونفيسة ، وسيدنا الحسين حماة القاهرة من غارات الفانتوم ، وتوغلا حتى الصعيد ، واحتاروا .. مع من سيقف الشيخ عبد الرحيم القناوى ؟ مع الصول أم السائق ؟ ودعوا فى جلستهم التاريخية العظيمة بخراب بيت الخائن وابن الحرام . وطلبوا النصر من عنده لرفاقهم الذين فى السويس . وصلوا صلاة شكر مقدما . ثم تقدم الدليل للشهادة وهو فرحان ، لانتصاره على أولاد الشياطين الذين ظنوه برياله لمجرد كونه بشاريا جبليا ، مع أنه وهو شاب ، كان يضحك على أكبر تجار سوق امبابة ويبيع لهم الجمال الجربانة . وينسون أن الثعالب موطنها الجبال لا المدن . ولما دخل على المحقق ، كان مستعدا بلغته السرية العجيبة التى يستهبل بها على أهل المدن وأولاد الذين " بتوع حارة السقايين " لكى

تميع المسائل ولا يمسكه أحد ، وقرر تحويل التحقيق إلى سيرك . ونائب الأحكام يجهل أنه أمام شيطان جبلى :

- **اسمك ورتبتك ووظيفتك العسكرية ؟!**

- **أنا ؟**

- **وهل أمامى غيرك ؟**

- **" أو مباشى .. زول الجرة "**

يتوقف الكاتب عن التدوين وينظر للدليل مستفسرا ، فيتدخل المحقق موضحا حسب تصوره :

- **أكتب .. عريف سقاء**

ينفعل الدليل .. يقول مقاطعا :

- **" يازول .. جُرة .. ماجَرّة "**

- **يعنى ماذا ؟**

- **" جُرة بتاع الرجول .. ما بتاع الموية "**

- **وضح من فضلك ؟!**

- **" أنت يازول تمشى بشنو ؟"**

- **بأقدامى طبعا .**

- **" كرا عينك* يعنى ؟"**

- **واحدة .. واحدة .. حتى أفهم .**

- **" أنا يازول أمشى ورا الكراعين .. الرجول يعنى "**

- **آه .. فهمت .. تقتفى الأثر ؟ هذا قصدك ؟**

---

* الكراع : الساق

- " أيوه .. دليل "
- وما هى مهمتك ؟
- " شنو ؟ "
- ماذا تعمل ؟
- " كل صباح الله .. أشوف الجرة "
- اشرح ..
- " هروف* هرج .. همار* دهل "
- ماذا تقول ؟
- " همار مصر .. هروف ليبيا "

نائب الأحكام انفجر ضاحكا لهذه اللغة التى يتعامل معها لأول مرة ، والدليل واقف فى ثبات لا يرمش له جفن أو يبتسم . والمحقق كلما رآه ، يحس كأن يداً عابثة تزغزغه فيضحك . ثم تماسك .. وطلب مترجماً ، فرشحوا له حمد البخيت للمساندة ولتقارب بيئتيهما ، لأن البشارى يستخدم اللغة السودانية المطعمة بعامية مصرية مكسرة . وحمد البخيت يدرك جيدا أن البشارى يستعبط ولجأ للغة المواقف والإضحاك والسخرية وتحويل سرادق العزاء إلى مسرح كوميّدى . وسيشاركه مهرجان التمييع ، وبدأ يشرح لنائب الأحكام : فهذا دليل السرية الرسمى ويقوم بقص الأثر يوميا على امتداد السلك الشائك من نقطة البحر حتى سيدى عمر وهى المنطقة الساخنة فى السلوم بطول خمسين كيلو مترا تقريبا ، ويقوم بالإبلاغ عن الجرر المشبوهة

---

* هرج : خرج *هروف : خروف *دهل : دخل

والمقصود بها : حمير أو جمال محملة اجتازت الحدود إلى مصر ، أغنام أو مواد تموينية دخلت ليبيا ولم يتم ضبطها أو الإبلاغ عنها بمعرفة عساكر الدرك ، وهو بذلك يحدد مصير القضايا ، وليس هناك من يطعن فى قراره سوى دليل أقدم . ونائب الأحكام مازال أسير هذه اللغة المضحكة ويريد سماعها ، أسكت المترجم وتوجه بالسؤال للأراجوز ، التحفة الباقية من العصر الحجرى :

- **وهل يمكنك عدم الإبلاغ ؟**

- **" الله شاهد "**

- **ومن الذى يراجعك ؟**

- **" الله ذاته "**

- **وأين تعلمت المهنة ؟**

- **" من الله خلقنا ونحنا ناس ُجرّة "**

- **وهل يمكنك تحديد الأثر بدقة ؟**

- **" كدة أقيف أمشى وأنا أقول ليك أنت دكران .. واللا مادكران .. لكن دكران من وين ؟ "**

حمد البخيته قعد على الأرض من شدة الضحك والدليل شاركه ببسمة خفيفة . والمحقق والكاتب حائران . وحمد مازال يضحك ، فهذا الدليل المجنون دخل المنطقة الخطرة وسب المحقق فى رجولته .. يضحك بشكل هستيرى مما اثار المحقق فزعق شاخطا :" إنتباه

يارقيب .. إيه ده ؟ قلبناها سيرك واللاَّ إيه ؟ أفهم بقى .. قال إيه العبيط دا ؟! " حمد البخيت وقع فى المطب . يعمل عقلة بسرعة ويصل لصيغة معقولة : يقصد سعادتك ، أنك لو مشيت ، دون أن يعرفك أو يراك مسبقا، يستطيع تحديد هويتك بدقة .. إن كنت عسكريا أم مدنياً ، فارغ اليدين أم محملاً ومعك حقائب ، رجلا أم امرأة .. ولقد اختصر هذا كله فى جملة بسيطة ، ولهذا ضحكت . والدليل يبتسم من قدرة حمد البخيت على التفسير الملفق . ونائب الأحكام بلعها وتوجه بالسؤال للدليل :

– لهذه الدرجة من الدقة ؟

– " دا شغلنا يازول ، أنت من ناس سين وجيم وصفر ومعانا واحد ووين تسمعوا عواء الدياب فى مكة وانتوا فى عكا .. تقولوا يا فكيك* . ونحنا ناس جبال .. ناكل العضام والتراب ونعطش نشرب بول الجمال ناس موت وسيف .. رجال يعنى " .

حمد البخيت يقهر ضحكته ، يكتمها بالقوة ، لو أطلقها الآن لفضحته وفضحت هذا البشارى الأخرق .. الذى خرج عن حدود اللياقة .. فينظر إليه محذرا . ونائب الأحكام ، يشعر بأن ثمة تجاوزات ، لكنه " يعديها " ويواصل :

- **ألا تخطئ أبدا وتخلط بين أثر وآخر ؟**

- **" يازول .. حتى رجول العفاريب أعرفها "**

- **وهل للعفاريت أرجل ؟**

يافكيك : الحرب .

- " أمال بيمشوا كيف ؟ "

- وهل أبلغت المساعد قناوى بموضوع الأغنام مسبقا ؟

- " والخبر جبته من وين ؟ " .

- أنا الذى أسأل ؟

- " وقرآن الله ما حصل "

- وما أقوالك ؟

- " القول قول الله "

- أقصد في موضوع الأغنام ؟

- " اليوم داك .. دهول* للمصر مافى هروج* من المصر مافى .. والله الوطن بالأمر "

- يعنى ماذا ؟

- - " مافى .. كله راقد نوم "

- تقرير المساعد قناوى أشار بوجود تجريف بالبطاطين لتغطية الأثار ؟

- " الزول قناوى .. زول صفا وانتباه .. ولليمين انظر وللخلف در .. ومازول ُجّرة .. أنا زول الجرّة إن قلت ما فى .. يعنى ما فى .. " .

- ومن أين أتى قناوى بهذا الكلام ؟

- " قناوى زول مشاكل .. ومخه مارق "

- وأين كانت الأغنام إذن ؟

- " عند أهلها "

- أين ؟

- " وأهلها يكونوا وين ؟ "

- أنت أدرى ،

---

* دهول : دخول * هروج: خروج

- أنت ما عندك أهل ؟ "

- " جرى إيه يا حيوان .. أنت هتخرف .. ؟ "

- " يعنى عندك ؟ "

- طبعا .

- " وقاعدين فى السلك وللا عندكم حوش ؟ "

- عندنا ..

- " كلام سمح .. و الغنم عندها أهل .. ما غزلان ولا دیابة "

- كلام جميل .. أين ؟

- " ماقالوا ليك فى النجع "؟

- المساعد قناوى يتهمك بالتستر .. لماذا ؟

- " جنبك شنو ؟ "

- القرآن ..

- " كدة أدينى وأنا أحلف "

- هل لديك أقوال أخرى ؟ "

- " أقوال شنو ؟ "

- أى إضافة تراها ؟ "

_ " أيوه .. عندى كلام كتير .. الزول قناوى دا .. زول شر .. زول كلام .. يقرا كلام الله وياكل حق الله وحق خلق الله .. ويتاجر فى كلام الله .. وقال لى يا بشارى إن شهدت ضدى .. ما حد يعرف ليك جرّة : أنت وأهلك : ناس قنا يمشوا كاسحينكم من عند الشيخ الشاذلى ، للسكرى ، لأبى غصون ، لحماطة ، لبرانيس .. لمن يقطعوا جذورنا من حلايب والشلاتين .. دا شنو دايا افندم .. نحنا فى الجيش واللاّ فى الصعيد ؟ .. وأنا داير* تكتبوه إقرار ها لساعة* .. واللاً أنا كمان بمشى وأجيب أهلى من السودان وتبقى مصيبة .. " .

* داير : أريد *هالساعة : الآن

وهكذا ياقناوى يتم ذبحك على البطئ .. وأنت قاعد تصلى لربك وتدعوه لينصرك . بينما هؤلاء الهمج .. يتآمرون ، ويحكمون حولك الحصار ، الفلوس ياقناوى حولتهم إلى وحوش ضارية : والداهية جعلوص الذى يضع القائد فى جيبه ولبن البقرة فى كرشه ؛ جند كل العساكر وصف الضباط ليكونوا عيونا عليك ، على القائد ، على بعضهم ويفرض الإتاوات على النقط والبدو ، هذا الداهية هو الذى يرتب الشهود ويبرمجهم واختار غرفة التحقيق لتكون بجوار مكتب اللاّسلكى والتليفونات .. وجند عريف الإشارة لأغراضه ؛ يتصنت ، ينقل له حتى الإشارات الشفرية .. واستطاع توصيل جهاز حساس لغرفة التحقيق لالتقاط ما يدور . وها هو السائق بلدياتك ؛ جهزوه وحفظوه وسيشهد كمجرد ببغاء .

- ٦ -

السائق

هذا بلدياتك ، أقرب الناس إليك وينتمى لأعرق قبيلة ، لكنه خائن وخبيث . منذ وصولك ، دسوه عليك ، استقبلك فى المحطة ، حمل حقيبتك ، أخذك بالأحضان ، اختار لك غرفتك ، سكن معك ، شاركك الطعام ، واعتبرك كبيرا وسندا لأبناء الصعيد فى السرية ، الملعون كان

عميلا مزدوجا من البداية ، قال لك ولهم ، أكل معك خبزا وملحا واغتالك ؛ عرفوا أسرارك ، أفكارك ، أحلامك ، كوابيس نومك .. حتى دعواتك فى الصلاة . يخرج معك فى الدوريات ويشى بك ، يصفق لك ويطعنك ويلهف بدل النصيب .. نصيبين ، أعمته الفلوس فخانك ، خرج من جلده ، ضرب تقاليد القبيلة بالميرى . وبلال كان يدعوه بروتس وأنت تجهل من يكون .. فقالها لك صريحة جارحة ؛ حين فشلت واحدة من الكمائن الهامة المتقنة : ياعم قناوى .. لا تؤا خذنى .. إما أنك بعتنا وبعت قضيتك وتتلاعب بنا أو بيننا خائن : ياعم قناوى .. ماذا عن السائق ؟ . وأنت تدافع عنه ، لا بصفته بلدياتك ، إنما لأنه يأكل معك فى طبق واحد ، يصلى خلفك .. وأنت مؤمن ، لا تأخذ الناس بالشبهات وتلوذ بالنص : إن جاءكم فاسق بنبأ .. .. ! وأنت تحب بلالاً ، لكنه لا يصلى، فتفاضل بين الاثنين ، يتغلب عليك حسك الدينى ، فيغضب بلال ويثور : ياعم قناوى هذا خائن .. خائن . فترد عليه معاتبا : عيب يابلال .. هذا هوارى مسلم مواظب على الصلاة . وبلال لا يكف عن هياجه : ياعم قناوى . الصلاة ليست دليلا على الإخلاص ، الاستقامة ، التراحم . ويعود بك للتاريخ. يهاجم رموزاتحبها: قتلوا عثمان، تآمروا ضد عليّ! قتلوا الحسن والحسين ، دسوا السم لعمر بن عبد العزيز ، أخرجوا جثة هشام بن عبد الملك من قبره ، حرقوها ، ذروها فى الريح .

فتقاطعه وتخاصمه ثم تصالحه لأنك تحبه ، لأنه رجل ، لأنه لا يحلب ، أنت نادم الآن : ليتك صدقته . هذا الخائن انكشف ليلة حربك المجيدة ، كنتم تكتمون أنفاسكم وهو يسعل ، أضاء كشاف السيارة متعمدا لتنبيههم . لكن الحظ خانه وحالفك ، الجبان . والآن يساهم فى ذبحك رسميا ..

- أنت سائق سيارة الداورية ..

- افندم .

- احلف اليمين .

- والله العظيم أقول الحق .

- ممن تتلقى التعليمات ؟

- قائد السرية شخصيا .

- ومساعد أول السرية .. ماذا يعمل ؟

- تلك أوامر القائد .

- والسبب ؟

- لايثق به .

- ولماذا تحركت تلك الليلة مع المساعد قناوى إذن ؟

- بالأمر يا افندم .. وقد علمونا إطاعة الأمر الأخير ولو غلط .. ثم التظلم بعد ذلك ؟

- وأقوالك ؟

- المساعد قناوى هذا ياافندم بلدياتى وأنا أدرى به من غيرى وأعرف كل أسراره : هذا يا افندم رجل العبان خطير وواعر* وله معاملات ومسائل مع البدو ؛ كان يصلى بنا ويلعب من خلفنا ..

---

*واعر : صعب

والناس فى البلد يشيعون أنه اشترى طين وجاموس وكتبها باسم أولاده وأقاربه ، ويقولون ...

- ادخل فى الموضوع من فضلك .

- الموضوع ؟

- واقعة الأغنام ؟

- فى تلك الليلة .. أمرنى بالتحرك .. تحركت . اطلع ناحية البحر .. طلعت . ولع الكشافات .. فعلت . ثم أمرنى فجأة بالدوران للاتجاه المعاكس بدون أنوار . وسرنا يا افندم نتخبط فى الحفر والمطبات حتى كدنا نهلك : لكن لمّا أمرنى بدخول نجع العرب ، رفضت " وكسرت الأمر ميت حتة " .

- لماذا ؟

- لأن المناطق السكنية من سلطة شرطة السلوم ..

- هذه ملاحظة قانونية .. كيف تنبهت لها ؟

- يا افندم أنا .. هم .. ال ..

- ما علينا .. أكمل ..

- لكنه أسكتنى آمراً ثم تركنا وذهب للنجع لمساومتهم .. ولمّا فشل .. جاء وأمرنى بالتحرك .. فطلبت منه أمراً كتابياً . فرفض وأنا صممت ووقفت بالسيارة مكانى . فقاد العساكر للنجع وذهب إليهم راجلا وصادر الأغنام وشوى ظهور الناس بالكرباج وأمر العساكر بإطلاق النار عليهم فى المليان .

- ركز معى .. أين كانت الأغنام ؟

- والقرآن المجيد فى النجع ..

- المساعد قناوى ذكر أنك أضأت الأنوار متعمداً .. وسعلت ؟

- ياافندم .. لا يوجد فى الميرى بند يمنع السعال .

- لكنك تعمدت .

- كان عندى برد يا افندم .

- والأنوار ؟

- والقرآن المجيد ..

- دع القرآن وشأنه .

- يا افندم ..

- انتهينا .. هل لديك أقوال أخرى ؟

- نعم يا افندم .. أريد من الحكومة أن تفتح عينيها جيدا لأنه ناوى يشعلها بين الأشراف والهوارة .

- إطمئن ..

- دعوه يوقع على إقرار كتابى .

- سنفعل .

- شكرا يا افندم وربنا يوفقكم لرد الحق إلى أصحابه .

- ٧ -

صلاة جماعية

عندما نودى لصلاة المغرب ، وتوجهت كعادتك لتؤمهم ، رأيت وجوها ثلاثة بين المستعدين للصلاة : قائد السرية الذى لم يركعها فى حياته ؛ هذا السكير الذى لا يفيق .. جاء يصلى وأنت الإمام . وحمد البخيت ، مطارد الغلمان الذى يحلف الأيمانات كذبا ، يقف فى خشوع والرقيب أول جعلوص الذى أفطر رمضان علنا ويسب الدين فى اليوم ألف مرة .. يجلس منتظرا . تعجبت ثم تراجعت وعدت لغرفتك تصلى

وحدك وتناجيه وحدك . أهذا ممكن ؟ ماذا حدث ؟ أيضحكون على ربنا بعد أن ضحكوا على الحكومة ؟! أيغفر لهم ؟ سبحانك قادر على كل شئ

حتى نائب الأحكام استغرب مثلك حين رأى السرية كلها تصلى بما فيهم حارس المدخل الرئيسي . واندهش من وجود قائد السرية بينهم . وكان بين المصلين أيضا من وقف أمامه وحلف على القرآن كذبا . وتوقف التحقيق حتى ينتهوا من صلاتهم . قائد السرية ؟ هذه نكتة ، ويتساءل : أهى صلاة شكر أم استغاثة ؟! هذا الموقف يذكره بأيام الامتحانات الصعبة : الإعدادية والثانوية العامة : كانوا ينهمكون فى صلاة جادة ، الذى ينجح .. يستمر لأيام ، الذى يفشل .. يتوقف ، يرنو للسماء حائرا . تلك كانت مرحلة تأرجح واضطرابات عقلية ، أهذا موقف هؤلاء القوم ؟ وكيف فصلوا بين الدين والمعاملة ؟ كيف يحلفون على كتاب الله كذباً ثم يصلون له ؟؛ وركبه شيطان العبث ، بوسعه تعرية أقنعتهم .. فقط لو ضيق قليلا على الشاهد القادم . فهل يفعلها ويتخلص من الهم الرازح على صدره ؟ ملعون أبو الهدايا وحفاوة الضباط وتوصيات الرجل الكبير والأسباب الأمنية والسياسية . من يحمى من ؟

ولماذا أقام البدو تلك الوليمة وبعثروا الهدايا ؟ ولماذا سيدفع الضابطان ثمن هداياه ؟ولماذا هبط الرجل الكبير لمستوى "حتة صول " وحرضه عليه ؟ فهل يقدم على الخطوة الانتحارية وخصوصا أنهم

اختاروه ليكون آخر الشهود ؟ يفكر .. يفكر حتى وقف الشاهد أمامه كالنطع . ثور حقيقى هل سأله وتلقى ردا ؟ لا يدرى ..

– ماذا قلت يادفعة ؟

مؤامرة خبيثة ياقناوى ، فهذا ثـانى شاهد من قنا ، اختاروه عن عمد ؛ جلفا ، خاما ، أميا . هؤلاء الجبناء يطعنونك بأهلك حتى لا تزعم تحامل الأغراب ضدك . ليس سودانيا ولا بدويا ولا من المدن ولا من كل الصعيد : بالذات من قنا . جعلوص اللئيم فعلها . فهل بوسعك الاحتجاج ألم يساكنك السائق ؟ ألم تختر هذا الحلوف بنفسك ليكون ضمن أفراد الداورية ؟! إنه يقف أمام المحقق كاللوح ، مربكا .. مرتبكا ، يتهته ولا يقول جملة مفيدة . فهكذا برمجوه ووجهوه ؛ الاستعباط والتحدث باللهجة الصعيدية مثلما أتقنها الدليل البشارى . وللمرة الثانية يسأله المحقق ولا يخرج بشئ ويتعجب .. كيف لمثل هذا النطع بحراسة البلاد ؟ كيف يتعلم الأسلحة الحديثة وطرق الوقاية من الحرب الكيماوية ؟ كيف درّبوه على خطوات السير البسيطة ؟ وهل هذا جندى أصلاً ؟ صعيدى مغلق تماما .. لا فُتح ولا انفتح ، يبدو مضطربا ، متململا : إن جلس .. قام فزعا وكأنه بوغت بخازوق ، وإن وقف .. عجز عن تثبيت قدميه . ينظر للباب والنافذة وكأنه داخل شرك .. والكلام انحشر داخل حلقه . فأمره بالتريث والتقاط الأنفاس .. والجلوس باسترخاء لفترة وتدخين سيجارة

- كيف الحال الآن ؟
- " عال ياسعادة الباشا ".
- يكفينى أفندم .
- " وليه عاد وأنت سيد الباشوات " .
- ماذا بك ؟
- " خايف ياباشا "
- ممن ؟!
- " من بلدياتى "
- هل هددك ؟
- " قال خبر إيه عاوزنا نشهد معاه زور أنا والسواق وشتمنا وبهد لنا وقال لنا والله يا أولاد الفراطيس لو واحد فيكم فتح خشمه بكلمة لأخلى الدم للركب فى البلد .. وطبعا يا باشا " كلام يخوف " توقف نائب الأحكام قليلا .. متأملاً هذا المخلوق البدائى .. محاولا الغوص خلف الظاهر ؛ كان لديه إحساس خفى بأنه وقع ضحية لمؤامرة جهنميه ؛ فهل هذا المخلوق .. عفوى وطبيعى كما يبدو ؟ بدأ يشك .. ومع ذلك ، طمأنه بأن التحقيق يجرى فى قضية عسكرية ليس لها علاقة بالنزاع القبلى ، وطالبه بالتشجع وقول الحق .
- اتفضل .
- " يومها ياباشا .. كنت هلكان ونمت تقول قتيل .. قام قناوى شد البطاطين من بدنى .. وقال قوم .. قمت .. اركب .. ركبت .. عمرّ السلاح .. عمّرت .. اضرب .. آبىّ .. أضرب فى مين يابوى ؟
- وهل أطلقت النار فعلا ؟

- " فى مين ياباشا ؟ العدو هناك .. ودول مسلمين .. ياخال . واللاعلشان بدو وبياكلوا الجرابيع ؟ "
- قناوى أمرك بإطلاق النار .. ؟
- " وهاكدب ليه ؟ "
- أهناك شهود ؟
- " الدنيا كلها .. وربنا "
- وقال لك .. اضرب فى المليان ؟
- والقرآن المجيد ..
- اخرس .. ولا تحلف .
- " أبىّ .. وآدى خشمى "
- وأين تم ضبط الأغنام ؟

وأشار العسكرى بيد فى اتجاه النجع ، والأخرى يسد بها فمه فى مشهد تمثيلى مضحك ..

- انطق يابجم .
- " آبىّ .. أنطق كيف واسكت كيف ؟ "
- أين يا تحفه ؟
- هناك ..
- حدد بدقة ؟!
- " ما فى الخربان "
- أين ؟!
- " الدنيا كانت ليل "
- نهارك أسود من ليلك .. إن لم تعتدل .. سأقوم وأعدلك يا ابن ستين كلب .
- " ما تصبر علىّ عاد .."

- أين بالضبط ؟ عند السلك ؟ في النجع ؟ فى السماء ؟

- " مش قالوا لجنابك فى النجع ؟ "

- اسمعها منك ..

- " زى ماقلوا ياباشا "

- هل سمعت نباح كلاب ؟ هل رأيت بيوت النجع هل طاردكم البدو ؟

- " عيونى كانت وجعانة ومدغمشة ووداني .. "

- أين يادفعة .. ؟

_ " صبرك عليّ عاد .. "

- أمامك دقيقة واحدة .

- " سعادتك كربان قوى .. "

- دقيقة فقط .

- " وأعمل إيه يعنى ؟ "

- تشهد بالحق ..

فرصتك الآن ياقناوى فى النجاة كبيرة .. بينك وبين الإنتصار خطوة .. خطوة واحدة : لأن نائب الأحكام وصل لقمة هياجه وغضبه : اكتشف الخدعة وتأكد أنهم وضعوا فى طريقه شهودا من الممثلين ، فهذا النطع .. يضحك عليه باللهجة الصعيدية المفتعلة ، حاوره وراقبه وهتك قناعه ، فركبه العناد وقرر إنقاذ نفسه وهيبته .. وهو على أعتاب القفزة الأخيرة.

أما بلدياتك ياقناوى ، فهو أيضا ممزق بينك وبين الفلوس ، والفلوس كما تعلم تسوى الهوايل .. الورق الأخضر ياقناوى يراه البنى آدم فينسى دينه . وهو الآن يملك مايزيد عن الألف بقليل فى خبيئة دسها

بجوار الخيمة ، ويحلم بأرض ودار وجاموس ، ومن لا دار له لا قيمة له . لو شهد معك .. لقذفوا به إلى " الملفا " . فتتبدد أحلامه .

ولو شهد ضدك صراحة .. فالويل له من عذاب الضمير ومن أهلك الذين سيتربصون له . ولهذا تمزق ، ارتبك ، بدأ يخرج عن الدور المرسوم . خطوة واحدة من أحدهما فتنجو . لكن الحظ خانك .. وهذا قدرك ، لقد جاء قائد السرية يتعجل نائب الأحكام ، لأن حتيتة بك ينتظر فى السيارة . فضاعت الفرصة .. شخط نائب الأحكام فى كاتبه بنرفزة وغضب ، بينت هول ما يعانيه :

- اكتب يا أخى وخلصنى من هذا الحيوان .

- أكتب ماذا يا افندم ؟

- فى نجع الزفت .. ودعه يوقع أو يبصم .. هذا عسكرى أحمق ولا أدرى كيف جندوه أو طوّعوه .

- ٨ -

سهرة همجية

ذبحوك ياقناوى وأنت قاعد فوق سجادة صلاتك تقرأ المعوذتين وسلمت أمرك له يدبرها بمعرفته ، لكن لا صلاتك أنقذتك من همجيتهم ، ولا أوسمتك ومواقفك شفعت لك . تذبح دائما وأنت على حق ؛ مرة عند حافة القنال وأخرى فوق هضبة العذاب . وما كان بوسعك الصبر وأنت

ترى بعينيك ابن اللوطى يعرى لكم مؤخرته ويضرط ؛ أو تقبل الفلوس الحرام وأنت مؤمن . لكن هذا ليس زمانك ، إنما زمن الأقنعة والفوضى والتهريج .. تصور ؛ جعلوص أمّهم فى الصلاة مكانك .. وحمد البخيت البهلوان يفتى فى الدين ويزعم أن التهريب تجارة ولم يحرمه الإسلام . وقائد السرية صلى معهم فوق جنازتك ، ونائب الأحكام .. القاضى ، حلف اليمين وشيعك لمثواك الأخير . وبينما أنت هنا .. يبيدك الإسهال وتتوقع نجدة السماء : كان الفرسان الثلاثة قد وصلوا لمدينة الهدايا والثراء .. ولضيق الوقت ، يتنقلون كالمجانين بين الدكاكين .. يشترون أى شئ وكل شئ ويكدسونها فى حقيبتين . وأطفال شياطين من مدينة الهدايا يتابعونهم ، لأنهم يترصدون يوميا " المصاروة " من العمال والمتسللين وعساكر الحدود المغرمين " بشباشب الزنوبة والخدوجة " موضة هذه الأيام ، فلا يفرقون ويزفون ضباطك صائحين :

" فوالة .. زنوبة .. خدوجة " . ورجل متحمس من عشاق العروبة والأناشيد وخطب الرئيس يطاردهم : " حولّوا* .. يافروخ* .. ياقوادة .. زبور أمكم .. هادول خوتنا .. "

مسكين أنت ياقناوى ، لقد تم بيعك بحقيبتى هدايا ، قيمتها أقل بكثير من العشرة آلاف جنيه إياها . وعند اقتراب سيارة ضباطك من البوابة الليبية ، كان أحد أفراد شرطة الجوازات ، يسأل زميله بدهشة :

---

* حولّوا : ابعدوا
* الفروخ : الأطفال

" المصـــاروة هــادول.. ديما يدبِّشوا* .. يدبِّشوا.. إيش يديروا بهادا كله ؟ »

فيرد عليه زميله ساخرا : " شبشب الزنوبة هادى .. وين يحطوها فى المدفع وتطير .. تحرق الأعادى حرق " وضباطك ، بحقائبهم المنتفخة ونجومهم ، ونظارات الريبان ، يقفون بسيارتهم ، أمام حاجز البوابة ، يحيونهم فى براءة وتودد . بينما الحراس يجلسون فى لامبالاة واستعلاء ، واضعين سيقانهم فوق بعضها ..

- السلام عليكم ياعرب .

- مرحبا ..

- أى خدمات من السلوم ؟

- وإيش عندكم ؟ ماعندكم شئ ..

- أهلا بكم فى أى وقت .

- غادى إن شاء الله .. فى القدس .

ويقــوم أحدهم ، بتكاسل ، يطل على الحقائب ، يشير إليها قائلا بتهكم :

- مربوحة ياعرب .. الله ينصركم .

نائب الأحكام ، الزائر العابر ، تعجب من غرابة الحوار والنظرات المعادية ، فسأل حتيتة بك بدهشة :

- أهذه طريقتهم فى الحديث ؟

- تعودنا عليهم .

---

* الدبش : الهدايا

- وكأنهم يشمتون .. !

- بسبب الهزيمة .. وهؤلاء بدو .. لا يخفون مشاعرهم .. ولا تنسى اختلاف النظم .. والدعاية ، فلديهم ملك يجلس على تل فلوس .. وهؤلاء عساكره..

- بهذا الأسلوب ؟

- قدرنا ..

- حتى لم يقفوا لنا من باب المجاملة

- ياسيدى « ما تدقش .. » .

لكن النقيب مجدى كان يغلى ، منظر العساكر الجالسين ، وأحدهم يتكئ للوراء وحذاؤه تجاه السيارة أثاره .. فسبهم : « ولاد قحايب .. طول عمرهم بتوع كلام .. حاجة تقرف .. كل مرة أقول مش داخل عندهم من حركاتهم البايخة وبرضه أرجع تانى .. سمعت العيال ياحتيتة ؟ ». وحتيته بك ، البدوى الأصل ، يشعر بالحرج .. فيدافع : امسك أعصابك يامجدى ، ماذا جرى لك ؟ أنسيت بسرعة الرجل الذى طارد الأطفال ؟ أنسيت الضباط الليبين الذين هربوا بمدرعاتهم إلى مصر بعد الهزيمة وعرّضوا أنفسهم لغضب الملك . ولكل عملة وجهان .. أعرفك جيدا يامجدى أنت تحب الرسمى .. وزعلت من وضع عساكر البوابة .. هؤلاء بدو يامجدى .. بدو ، فتعامل معهم كما هم . فيرد عليه زاعقا وبنفس اللهجة الغاضبة : أنت تدافع عن أقاربك .. أنا معك أنهم بدو ، لكن هؤلاء عساكر .. تدربوا ، عرفوا فروق الرتب .. المسألة كلها ، واحد غنام وأعطوه شيكارة فلوس .. فنسى نفسه .. هذه هى القضية . واستمرا

يتجادلان ويحتدان حتى وصولهم لبوابة مصر فخرج جنود الوطن واصطفوا وضربوا تعظيم سلام لضابط الوطن القادمين بحقائب النصر فقال حتيته بك للغاضب ضاحكا « أنت عاوز كدة .. أضحك بقى ، » .
ونائب الأحكام ، سرح بعيدا ، يستدعى الأسماء ويوزع الهدايا حسب أهمية كل واحد ، ثم تنبه وضرب بطن كفه على جبهته وقال هاتفا :

- ياه .. نسيت أهم شئ ..

- يتوقف مجدى بالسيارة ، مستعدا للرجوع ، رغم كل ما سمعه وعاناه . فيتساءل حتيتة بك :

- وما هى ؟

- زجاجة أو زجاجتين للجماعة فى مصر ،

- هذه لا تباع فى دكاكين المدينة .

- اتصرفوا ..

- تصرفنا يا جميل ، أوصيت لك ضابط الجمارك الليبى على صندوق بلاك ليبل اسبيشل ، يأتيك مضمونا من قاعدة طبرق خلال ساعات .

- من الإنجليز ؟ ،

- نشرب خمرهم ونشتمهم : بمبة تأخذ الإنجليز ها .. ها .. ها ..

- وصندوق بحاله ؟

- للجماعة والأحبة - تسلك بها السكك .

- وعلى فكرة .. البيرة المستوردة .. تهبل .

- وصندوقين بيرة .. ولا يهمك .

- عظمة على عظمة .

- أنت تشاور .. وتأمر ..

وحين اقتربوا من الاستراحة ، كانت رائحة الشواء تفوح ، خروف أوزى مشوى على الطريقة العربية وأصناف من المزات الراقية ، وفواكه مستوردة ، والطباخ والمراسلة يقفان للخدمة . فصرفوهما حتى لا يسمعا حديثهم الحساس ، وجلس الفرسان الثلاثة حول المائدة ، وبدأوا بافتراس الخروف . وعلق كل واحد بكلمة :

- « ليلتنا فل »

- « صباحى »

وتساءل نائب الأحكام : « انتوا ناويين على إيه بالضبط ؟ » فأنشغلت الأفواه وسكتوا عن الكلام مؤقتا .

هاهم قتلتك ياقناوى يجلسون فى استرخاء .. يشربون فى صحتك خلفهم البحر المتوسط الذى نصحك المحقق بالشرب منه ، وأمامهم خندق روميل المحارب الذى لم يلبس الريبان ، وعذاؤك الوحيد ، أنك الغائب الحاضر ، الميت الحى ، الضعيف القوى . لقد حفرت فى ضمير نائب الأحكام جرحا لن يلتئم ، تقتحمه بعينك المحمرتين الغاضبتين

وستظل شبحا يطارده ما بقى فى عروقه نبض لن ينساك مهما شرب وحاول ، الصوف الهيلد .. سيبلى « ويعتت » ، الريبان سينكسر يوما أو يصرعه صنف جديد ، الجوخ سيهدى للأقارب بعد موت أبيه ، الألعاب سيحطمها الولد خلال أيام . لن يبقى فى النهاية إلا إياك ، لا مهرب له منك .. وأنت داخله الآن . يطلب كأسا يشربه بسرعه لعله ينساك . وحتيته بك لا يشعر بهول ما يعانيه ، يقول مزهوا ، مربتا على الحقيبتين

« حاجات تهوس ، تخلى أجدع واحد يريل ، يركع .. تحب نفتح ونتفرج .. ؟ » وأنت ياقناوى ضاغط ، مستفز ، توغلت إلى دم نائب الأحكام وأحاسيسه ، فيرد بألم وزهد : « مافيش داعى .. شفت كل حاجة ! » خيل له ، أنهم لو فتحوا حقيبة ، ستخرج منها رافعا سوطك .. فشعر بالاختناق رغم اعتدال الطقس ، طالب بفتح النوافذ ، فنقلوا المائدة للشرفة . وأمسوا يأكلون ، يشربون ، يثرثرون ، يستمعون لموسيقى هادئة . وثمة مذياع ، عالى الصوت ، لسيارة عابرة بالطريق ، قادمة من مدن البترول ، يبث نشيدا جميلا ، يحيى الصامدين عند حافة القنـــال . فعلق مجدى متحاملاً : « أونطة .. كله أونطة ، شوفوا فاتح إيه ؟ وأول ما يخش إسكندرية هيدور على النسوان .. » . فيرد عليه حتيته بك ساخرا « لسه برضه ! » . وقال نائب الأحكام فى محاولة يائسة لاسترداد وعيه

- **نسمع النشرة ياجماعة .**
- **النشرة ؟**
- **نعرف أخبار الدنيا .**
- **لاجديد ، أغاروا وتصدينا .**
- **من فضلكم ..**

ورغم المؤشر الذى استقر على إذاعة القاهرة ، فإن أحداً لا يصغى .. مجرد ديكور وأنت ياقناوى ما تزال ضاغطا ، لاتغيب : يتحدث عنك قائدك بمرارة : تصوروا ياجماعة .. هذا الصول الأحمق .. ظن نفسه

نبياً وجاء لإصلاح الكون الخربان ، فوصل به الغرور لدرجة إلغاء وجودى ، يصدر الأوامر ، يرتب الداوريات ولم يبق أمامى سوى العمل له كمراسلة ، وكلّما راجعته يسألنى " « وسعادتك فين ؟ » المغفل .. يحاسبنى مع أننى أستطيع تحريك فرقة مشاة وأنا فوق سريرى ، جيش آخر الزمن « حته صول معفن يفك الخط بالعافية ينافسنى ؟ » ينتفض حتيته بك غاضبا والذى كان صولا منذ سنوات ونسى ماضيه ويتشبه الآن بالضباط العاملين : أنت الغلطان يامجدى ، أنا لو مكانك كنت انفردت به وأعطيته طريحة .. هذه هى الطريقة الوحيدة للتعامل مع هذا الصنف الواطى.. فعلها معى أحدهم من قبل.. فلاكمته ولما تظلم منى ، اتفقنا عليه أنا وضباط المكتب ، قفلنا عليه الباب وضربناه حتى بكى .. وخرج وقدم استقالته .. وأظنه الآن يسرح بعربية بطاطا .. ها .. ها . ويضيف النقيب مجدى مؤيدا . عندك حق ياحتيته .. هذا الصنف لا ينفع معه غير الجزمة .. الثورة أفسدتهم ، مساواة مع من ؟ وأنا صغير ، كان عندنا ثلاثة من هذا النوع ، واحد يحمل حقيبتى حتى باب المدرسة ، والثانى يرتب فراشى ، والثالث يجلس أمام باب الڤيلا كاللوح ولاعمل له سوى القيام والجلوس لنا كلما مررنا أمامه وكنت أتعمد الدخول والخروج بكثرة حتى استمتع بحركاته الأراجوزية . مثل هذا النطع .. لوتطوع فى الجيش .. هل يساوينى ؟ ياحتيته ياحبيبى قناوى فى الأصل

عامل تراحيل .. فواعلى يعنى .. تطوع فى الحدود وقام ببعض الحركات .. فرقوه بسرعة ، فركبه الغرور .. و ... ، يقاطعة نائب الأحكام بضيق : يامجدى .. أرجوك .. دعنا من سيرة الزفت هذا لأنى أتشاءم ويسبب لى حساسية ، والأفضل الانتهاء من الموضوع كله .. فهل تسمح بالإجابة على بعض الأسئلة الشكلية :

- **ياسيدى اكتب ما يعجبك وأنا أوقع .**
- **هذه الأوراق رسمية يامجدى .**
- **ألم تقل إنها ستحفظ .**
- **ولو ...**

وأبدى ملاحظات وتحفظات على أسئلة ينبغى تحويرها أو حذفها فتدخل حتيته بك مهونا .

- **لا تقلق . . البك شاطر جدا ..**

وبدأ نائب الأحكام يوجه أسئلته المهذبة ، استجواب عصرى يليق بنهاية القرن .. ونهاية الكون ، موسيقى هادئة ، لحوم مشوية خفيفة ، كونياك كورفوا زيه يتسلل لمراكز المخ ، ويجعلك تطير فوق وسادة من الريح ، وفرسان ثلاثة بينهم واحد من عائلة كانت ثرية وعصفت بها رياح الثورة . وأنت ياقناوى تعانى من شدة الاسهال ، تحترق غيظا لأنك ترى الحق ينقلب باطلا ، وما زلت تتوقع شيئا بسبب قوة إيمانك وتعتقد أنه لن يخذلك ومهما أفتى حمد البخيت . وقد ساومك رحومة السنينى على ثروة .. سترفضها مرة أخرى لو عرضت عليك رغم محنتك مجنون فى زمن مجنون . وقاتلك يستجوب من صلى على جنازتك .

- أين كنت ياسيادة النقيب ليلة الواقعة ؟

ومجدى سابح فى الفضاء ، يهتز مع الموسيقى ، يتمايل آخر انبساط ويرد باستهتار : إذا وقعت الواقعة .. صدق الله العظيم . يتدخل حتيته بك محذرا :

-مجدى !

-عيون مجدى .

-يسألك عن واقعة الأغنام .

-« وقعتك لب .. »

-ها - ها - ها .

-ليلة الأغنام يا أخى .

-« آه .. الاغنام .. افتكرت .. سلام الله .. على الأغنام من النايمين .. إلى الصاحيين » .

-« وبعدين بقى .. »

-أنا معك يا حضرة القاضى .. أسأل

-أين كنت ؟

-« كنت مطـرح ما كنت .. جتك ضربة فى اللى تحت سوتك » ها .. ها .. ها ..

الفرسان الثلاثة ضحكوا فتطاير الطعام من أفواههم ، فهكذا مجدى، ابن الذوات الذى جار عليه الزمن، وكانوا يملكون..حين يسكر ، تتحول الحيـــاة أمامه إلى نكته حتى صارت نكاته مصدرا للإزعاج ورفيقا السهرة استمرا يضحكان حتى اشتبكت المعدة مع الأمعاء

ومجدى ما زال فى الفضاء البعيد ، فينوب عنه حتيته بك فى الرد : اكتب عندك ياباشا ليلة الواقعة ، كنا نمر معا فى داورية مشتركة .. بدأنا من نقطة البحر وقطعنا مسافة كبيرة حتى الوشكة * لكى نطمئن بأنفسنا فى ظروف الحرب ووجدنا الأمور مستتبة وحدودنا الغربية مؤمنة والعساكر فى تمام اليقظة – أى أوامر – أى إيضاحات .. كتبت سيادتك

وأنت تتآكل فوق ياقناوى كانوا هنا يأكلونك وحولوا قضيتك إلى نكتة ، مع أنك تعلم جيدا أين كانا ليلة الأغنام ، سألت عنهما قبل تحركك وعلمت أنهما ساهران ، مثل كل ليلة ، يلعبان البوكر والكونكان مع باقى المنفيين وقيادات المدينة فى غرفة خاصة بفندق السلوم ويشاركهم محمد عقوب ضابط الجمارك الليبى وعاشق مصر . والشيطان وسوس لك ليلتها ، أن تباغتهم بالكرباج ، تشوى ظهورهم ، ليتك فعلتها .. كان أشرف وأفضل لك من موقفك الحالى . حلبوها يا قناوى وأنت تشربها سادة بعد أن ضحكوا عليك بوسام من البرونز ، ويبيعون بقاياك الآن بصندوق بلاك ليبل . والسهرة الهمجية مازالت ممتدة .. يحددون مستقبلك وهم سكارى . وأنت تصلى ، تدعو عليهم مولاك . وهذا الصنف الخنزيرى لا ينفع معه دعاء ، إنما السوط . سوطك كان ينبغى توجيهه إليهم وليس للبدو الفقراء والقاضى يسأل جلادك .

---

* الوشكة : منتصف المسافة بين واحة سيوه والسلوم على الحدود

-المساعد قناوى ، يتهمك صراحة فى تقريره بالرشوة . النقيب مجدى ، الضابط ، المتعلم ، الذى يتفاخر بأصله ، ينزلق فى كرسيه ، يباعد ساقية ، ويقول كلاما هابطا للمحقق ، مشيرا إلى .. .. يأخذ هذا.

– ويقول إنك جردته من اختصاصاته ؟

- **يحكمنى يعنى ؟ كفانا صعيدى واحد !**

- **ومن هو رحومة السنينى هذا ؟!**

- « **بتاع مبروكة - عاوزها ؟** »

- **مجدى !**

حتيتة بك يحذره كالعادة ويوضح لنائب الأحكام : رحومة هذا ياأفندم ، مرشد معتمد من إدارة المخابرات ويتقاضى راتبا شهريها وهو الذى يذودنا بكافة المعلومات التى تخص الصحراء . وهذه معلومات سرية أرجو عدم ذكرها لأحد . وليس من حق صول سؤال قائده عن هوية أصدقائه .. هذا تطاول وقلة أدب ..

- **ولماذا لم تنقله يامجدى ؟!**

- **محمى ياباشا .**

- **ممن ؟!**

- **قائد الكتيبة**

- **يحميه !**

- **ويسانده**

- **لأى سبب ؟**

- **اللبيب بالإشارة ..**

- **هذا إتهام ؟**

- **أكتبه**

- **راجع نفسك ..**

- **اكتب**

نائب الأحكام يتردد ، ينظر بحيرة لحتيتة بك ، طالبا المشورة ، فيجده موافقا ، مؤازراً ، محرضا : « اكتب خليها تولع .. » . فيكتب ثم يعيد قراءة تقرير المساعد قناوى المطول بدقة وتأن فيتشجع ، يناور ويقول لمجدى محاولا تخويفه وابتزازة :

- **هذا التقرير ليس فى صالحك**

- **طظ .**

- **لكنه مستند قد يدينك**

- **وماذا ترى ؟**

- **إنما أبصرك .**

- **والعمل ؟**

يتدخل حتيتة بك فى الوقت المناسب ويتحدث بطريقة موحبة :

- **اتصرف ياجميل ..**

- **كيف ؟**

- **حوره ، شوهه ، مزقه .**

- **التقرير ؟**

- **مارأيك تبيعه**

- **التقرير ؟**

- **نفتح مزاد ؟**

- والله فكرة .

الفرسان وصلوا لقمة النشوى والعبث ، تجاوزوا الواقع ، ولجوا عالما مجنونا لا يعترف بقيم أو حدود ، نهشوا الخروف كله ، بلحمه ودهنه ، مصمصوا عظامه . واستقرت الزجاجة الثالثة فوق المائدة تغرى وتزين . واعتلى نائب الأحكام مقعدا وهو يترنح ، الكأس بيد ، والتقرير فى الأخرى يذايد به : فرصة ذهبية .. من يارجال يشترى ؟ من يزد يفز ؟ أنا بطقم قلم شيفرز . وأنا بجهاز تسجيل . وأنا بولاعة ديبون وأنا بطاقم أزرار من الذهب . عرضوا كافة الأشياء المتاحة فى مدينة الهدايا .. والمزاد لم يرس بعد . هتف حتيتة بك : « يا ابن العفريتة .. لقيتها .. انزل .. دا أنت صايع قوى » .

نزل نائب الأحكام من كرسى المزاد وجلس يترقب هذا الشئ الذى وجده وأوقف به المزاد ، تغيب حتيتة بك قليلا وأتى معه بحقيبة سمسونايت .. فتحها ووضعها أمام نائب الأحكام الذى أطلق صفيرا وقال مبتسما « ياأولاد الحرامية ! » وأغراه مجدى شجعاً : « شيل .. ماتتكسفش » .

وبخجل مصطنع ، سحب رزمة واحدة ، فأشار له حتيتة بيده : « كمان » . فسحب الثانية . وجاء الدور على مجدى فقال له بنغمة تلحينية : « تلت » . تردد ، سحب الثالثة وأقفل الحقيبة بيده : « حلوة قوى

كدة .. إحنا هننهب » . وبدأت المشكلة بين مجدى وحتيته حول مصير التقرير ، هل يحتفظان به للذكرى ؟ أم يتم تمزيقه ثم حرقه ؟ . وقال نائب الأحكام بنزق : عندى فكرة مدهشة ، سلموه لقناوى ليمسح به ... ، ستكون ضربة قاضية ويموت بالسكتة القلبية . وقال حتيته جادا : بصفتى أكبر منكما سنا وخبرة ، يخول لى قانون القبيلة سلطة إصدار القرارات فى المسائل القومية الحساسة ، وبما أن تسرب مثل هذا التقرير لأيدى أعداء الوطن يشكل خطورة جسيمة على أمنه وسلامته ، فدعونى أتصرف بما يمليه علىّ ضميرى والآن .. اتبعانى . وسار حتيته بك يغنى ، يتمايل : « تقريرى الحلو .. ياتقريرى .. ياسيد التقارير محلاك ياجميل .. تخطر وتميل .. ». وخرج للعراء ، للهواء الطلق وأخذ يتلفت حتى وجد ضالته ، انحنى ، رفع غطاء البلاعة بعناء وألقى بالتقرير فى بئر المجارى : ياه الحمد لله ، لقد وفقنى .. خرا فى خرا .. هذا أنسب مكان لمثل هذه القذارات . صفقا له ، هنآه على عبقريته وعادوا لاستئناف السهرة .

تقريرك ياقناوى ، الذى سهرت الليالى لتكتبه .. وتصورته سيهدالدنيا ويقيل الوزارة ، انتهى مصيره بعد مزاد همجى فى بالوعة ، لكن يكفيك فخرا .. أنك الغائب الحاضر ، لقد توغلت بشكل مرضى فى شرايين نائب الأحكام ، أبداً لن ينساك ، لقد توقف عن الشراب

والضحك ، ينظر ببلاهة لصورة الزعيم المعلقة على الحائط ، يدعك عينيه يدقق فى الصورة من كافة الزوايا والمسافات ، بالنظارة وبدونها ، يحتار يعود لمقعده خائفا ، ينظر لحقيبتى الهدايا ، يتحسس جيوبه ، يشعر بالفخ ، تتسمر عيناه على الصورة ، يهلوس : قناوى .. قناوى ؟! المضيفان يفزعان ، يتلفت مجدى للباب والنافذة مضطرباً : « قناوى ؟ هو فين ؟ » . وحتيتة يتحفز ، يمسك مسدسه ، يستعد ، .. لكن لا شئ . لا أحد . ونائب الأحكام مازال مضطربا ويشير لهما إلى صورة الرئيس فينفجران ، « ويسخسخان » من الضحك ..

- **الأخ سكر**
- **دعه يكف**
- **سيفضحنا**
- **جرده من الفلوس حتى يفيق .**

ونائب الأحكام ، يستبسل فى الدفاع عن جيوبه ، يتشبث بالكأس . يقاوم ، والصورة ياقناوى تتضخم ، تتعملق ، تتقدم نحوه بالسوط ، فينكمش ، يتكور ، يبكى ، يهلوس ، يصرخ : أبعدوه عنى .. إنه قناوى المجنون . ثم يقوم هائجا ، يخرج الفلوس من جيوبه ، يرميها ، يشوط الحقيبتين ، يشوط السمسونايت ، يخرف : « مش أنا والله يابيه أنا برئ حتى اسمعنى : طول ما أملى معايا وفى إيديا سلاح .. عاش قناوى عبد الناصر ، يامحمد يانجيب .. ياحتة سكرة ياخرب بيت فاروق ..

يشمعه منورة .. إخوانى .. هيه كنا هنبنى وآدى إحنا بنينا .. ، وقررنا تأميم قناة السويس هيه .. ياحتيتة بك يابتاع نمى إلى علمنا .. خد دا .. ها .. ها .. ها .. » .

قام المضيفان ، ضرباه برفق ، أسكتاه بالقوة ، سحباه للحمام ، فتحا عليه دشا باردا . وضعاه على السرير وبقيا بجواره ، كلما تحرك أو حاول فتح « خرارته » ضغطا عليه وكتماه حتى نام وشخر . جلسا لفترة فى حالة ذهول ، يدخنان ويشربان القهوة فى صمت وارتباك ..

- **ماهذا ؟**
- **كابوس .. كابوس حقيقى**
- **يبدو أننا تسرعنا**
- **مجرد هذيان سكير**
- **أتظن ذلك ؟**
- **هذا تصورى**
- **ربنا يستر ..**

جاء حتيتة بك برزمة أوراق مما يستعمل فى البرقيات وقدمها لمجدى مزهوا :

- **اتفضل ياباشا**
- **يخرب بيتك ياقناوى .. أكل هذه برقيات ؟**
- **لم تخرج ولا واحدة من السلوم**
- **وكيف دبرت هذا ؟!**
- **أنسيت أننى مسئول أمن الصحراء فرع السلوم .**

- آه .. هذه فاتتنى

- وعطلت خطوط التليفونات

- يا ابن الإيه !

- وجنابك نائم فى العسل

- البركة فيك

- كله تحت السيطرة

- تقصد البدو ؟

- وأنت ورجالك أيضا

- أنا ؟

- تلعب بذيلك .. أنسفك

- ياقليل الأصل

- الشغل شغل يا صديقى

- صحيح .. إن كان صباعك مخبر » أقطعه

- المهم الآن .. أمامنا عمل ثقيل

- أنا تحت أمرك

- تكثيف حملات الضبط

- والخطة ؟

- رجالك يتفقون على دفعة أغنام صغيرة ويقوم رجالى بضبطها ، ثم نعوض التجار فى دفعات تالية ، وعليك أيضا ضبط أكبر كمية مهربات وإرباك الجمارك بها ، وسيأتى صحفى صديق للتغطية الإعلامية .. وكلام فى سرك ، عندى مرشدين يحاولون سحب تاجر مخدرات إلى ساحل السلوم .. لو نجحنا . ستكون ضربة معلم .

- من الآن سنبدأ الحملة

- وأرجوك .. كفى شرابا هذه الأيام

- نصوم فى سبيل الوطن

- هذا مهم جدا .. الانتباه .. اليقظة .

- ولا تنسى . لو نجحت فى حكاية المخدرات .. أن تحجز لنا « فردتين » قبل التسليم .

- يامجدى .. كفاك مزاحا .. إنى أنذرك

واستمرا حتى الفجر يخططان ، يضعان اللمسات الأخيرة ، يختاران الرجال الجدد للإحلال مكان آخرين انكشفوا أو رفعوا أصواتهم أكثر من المسموح . أو من قال . من لمح أو ثرثر . من أطلق نكتة سمجة . من أقام علاقات خاصة مع البدو . من سأل . من باع بضائع لحسابه . من رفض التعاون .. وحتى من احتج على نصيبه .

وبعد التنقيح والاختيار الدقيق ، تساءل حتيته بك وهو يتأهب للنوم :

- هل لديك ملاحظات ؟

- العريف بلال

- انتهينا منه بالفضيحة والإبعاد

- والدليل عبد الرسول البشارى ؟

- انتهى أمره ، كتبت فيه تقريرا محكما وأرسلته مع مخصوص .. أسبوع وتجده فى الباى باى . يعود من حيث جاء ، يرعى الإبل فى حلايب والشلاتين .

- أنت ولد . وتصبح على خير .

- ٩ -
سرى للغاية

الآن ، ياعم قناوى ، ياحامل الوسام البرونزى ، ومنقذ الحقيبة الكنز ، ومفاوض موقع زهر أبو طير ، وبطل وادى على ، ومنقذ ثروة

الوطن الحيوانية ، الذى قطع سيناء سيرا لثالث مرة ورفض الرضوخ للمهانة والإذلال . يارجل المواقف . الآن ، وأنت قاعد تصلى ، وبطنك تكركب .. تنتظر عدالة السماء أو عدل أهل الأرض ، وتشرب الحرجل والشيح وحلف البر لإيقاف نزيف إسهالك ، الآن ، يجهز لك حتيتة بك ، ضربته القاصمة هذا يوم نحرك الحقيقى ، وينتقل اسمك من ملفات التحقيق التى ستحفظ منعا للشوشرة ، إلى تقارير الجحيم التى تهلك أكبر رأس فى صمت ، القتل السرى . الآن يكتب حتيتة بك تقريره لينسفك ، وينسف ما ضيك . بعد هذا التقرير ، لن تكون ، البقية فى حياة أهلك ، كلنا لها ياعم الشيخ والبقاء لله وللعسكر وإلى اللقاء فى نعيم الآخرة ، لأنك لن تقرأ ولن تسأل فيما هو منسوب إليك ، إذا قالوا .. صدقوا . وإذا كتبوا عن أحد لا يطالبون بالأدلة . لأن تقاريرهم مثل القضاء الذى لا رد له .

-٩-

سرى للغاية

٣/١٥م . ح

من م . س . إلى الإدارة

عاجل مع مخصوص

نمى إلى علمنا ، من مصادرنا السرية ، وتقارير مندوبينا ،

وتحرياتى الخاصة ، أن المساعد أول قناوى الشريف ، من قوة سرية الحراسة ، والمنقول حديثا من الجبهة ، هو أحد أخطر العناصر ، فسادا وسلوكا وانحرافا . والذى عمل على تخريب اقتصاد البلاد ، دون وازع من ضمير ، بتقاضى الرشاوى من التجار والمهربين وإخلاء الطريق لهم وإرشادهم إلى المناطق الخالية من الكمائن ، وتضليل قائد السرية ورجاله . وقد علمنا ، أنه يفرض إتاوة ثابتة على كل رأس غنم تعبر السلك ، ويقوم كذلك ، بسلب العمال الفقراء نقودهم التى كدوا فى جمعها ، مستغلا موقفهم القانونى وخروجهم وعودتهم متسللين . ومن المعلومات التى وصلت إلينا مؤخرا ، أنه بصدد نقل نشاط تهريب المخدرات للساحل الشمالى ، وقد تم رصده فى عدة لقاءات مع عناصر مشبوهة .. ونحن نتابع هذه الصفقة من المنبع فاستبعدناه ونسيطر على الموقف . وقد وردت إلينا معلومات مؤكدة بضبطه لكمية هائلة من الدخان الأخضر وتصرفه فيها بالبيع لحسابه . ومن تصرفاته الشائنة سلوكه المخل بالضبط والربط والأخلاق بمحاولته هتك أعراض البدويات نظير تركهن يعبرن بالمهربات ، وهناك واقعة محددة فى محضر قسم شرطة السلوم رقم ٢/١٦ بتاريخ ١٩٦٧/١٢/٤ . وفيما يتصل بالواقعة الأخيرة المتعلقة بضبطه عشرة آلاف رأس من الأغنام البلدى ، والتى أفرجت عنها النيابة ، ثبت من التحقيقات والتحريات ، أنها عملية ملفقة ، بسبب خلافات مالية بين قناوى والتجار ، لأنه

يستحيل منطقيا ، مغامرة التجار بهذه الكمية كلها دفعة واحدة . وقد تأكدنا ، أن هذه الأغنام ، مملوكة ، لعدة قبائل يتنقل بها الرعاه وراء المرعى ، على امتداد المسافة من برانى إلى السلوم .

ومن المعلومات الخطيرة - غير الموثقة بالأدلة حتى الآن - أن ثمة شخصية قيادية تقف وراء قناوى وتساندة . وتتركز الشبهات حول قائد الكتيبة ، وقد أخطرنا فرع مطروح بمراقبته ، وسنوافيكم بتقرير لاحق بهذا الشأن ، وكذلك بأسماء كافة الأفراد المشبوهين ، على رأسهم العريف بلال عثمان . ونوصى مؤقتا ، باستبعاد المساعد قناوى من الصحراء الغربية وكافة المناطق الحدودية والساحلية .

الله . الوطن . بالأمر .

ملازم أول

حتيتة الزوام

قائد مكتب الأمن بالإنابة

١٩٦٨/٣/١

- ١٠ -

الرقيب حمد البخيت

هذا الجنوبى الثعلب ياقناوى ، هو أحد الأشقاء الوافدين ، جاء مع فيضان النهر ، لا لإثراء تربة الأرض ، إنما لحلب البقرة السائبة ، ولا لوم عليه وقد سبقه أهلها ، أرشدوه ، ساعدوه وأمسكوا له بأذنيها . جاء فى زمن الوطن الواحد وفاروق الأول ملك مصر والسودان . وهو هناك ، يعانى الضنك ، بلا حرفة ولا صنعة ، مهمشا ضائعا فى شوارع الخرطوم ، سمع عن البقرة من عساكر الهجانة الذين يأتون لزيارة الاهل ومعهم المال الوفير ، كان بينهم رفاق له ، ويسألهم : « القروش دى من وين ؟ » ويسمع منهم حكايات وهم يشربون المريسة ، حكايات غريبة عن بدو سيناء والحشيش ، عن مناطق وبلاد فى سيناء والبحر الأحمر ، الأدبية والزعفرانة والغردقة ، أبو زنيمة وأبو رديس ومناطق على الساحل ترسو قربها لنشات يهبط منها شياطين وعريان ينتظرون عند الشاطىء بالجمال ويدفعون ثروة . حلم وقرر .. فنصحوه بالتحرز من «ناس زينب» ومقالبهم .. وأيضا بالصبر ، فقد تمر سنوات قبل الحصول

على فرصته ، لكنها ضربة واحدة ويعود ثرياً ، فأمسك ذيل جلبابه وجاء راكضا ، من حلفا ركب الباخرة ، من الشلال استقل القطار ، من كوبرى الليمون تسطح فوق قطار الضواحى ودق أوتاد خيمته فى الجبل الأصفر والسلوم هذه كانت خارج الحساب وتدفق بترول ليبيا – انعشها وأثراها فكانت من نصيب حمد البخيت . هذا الجنوبى الذى بلا نظير ، اكتسب من الغابة مكر الثعالب ، غدر النمور ، شراسة الذئاب ، شقاوة القرود وخفة ظلهم وحاسة الغزلان وسرعة فرارهم عند الأخطار . هذا الكوكتيل الحيوانى ، كان يخفيه برداء فروسية سناجك السودان ، فأحبه البدو ووثقوا به لأنه لا يخون كما يعتقدون . وأهل الشمال اعتمدو عليه ، لأنه غريب ولن يكشفهم ويسهل التخلص منه وقت الشدة أو حتى التضحية به ككبش فداء . هذا القرد ، النمر، الذئب ، الغزال . الفارس ، هو من ابتليت به الهضبة والبلاد ووقف فى طريقك أيضا ياقناوى . وبينما أخرجوك من الملعب مهزوما منكسرا ، فاز هو بنصيب الأسد . غنم وأثرى ، وفى طريقه الآن لمرسى مطروح ، يستريح أياما ريثما تستقر الأمور فوق الهضبة الساخنة .. أجازة قصيرة لالتقاط الأنفاس وترتيب المسائل . سينسلخ من بدلته العسكرية فى مطروح ويرتدى جلبابه الأبيض وعمامته المزهره ويقوم برحلة خاطفة إلى الإسكندرية ، فتفتح له الأبواب ، أهلاً ياعمدة .. اتفضل ياعمدة .. سيأكل أشهى

الأطعمة ، يشرب الدنبل ، يضاجع أجمل الجميلات .. بفلوسه طبعاً . وقد ركب من السلوم سيارة أجرة بالنفر كالعادة ، وجلس وسط الركاب ، يحلم بأمواج الإسكندرية وبالدهن الأبيض ، يحلم بعذراء يفض بكارتها مثلما فعلها مرة ودفع يومها ألف جنيه مقابل أسبوع واحد . ياسلام .. متعة عظيمة كونه أول الفاتحين ، سيذهب إلى المنشية ، يجلس فى أشهر باراتها واضعا ساقا فوق الآخر ، فيوافيه القواد ويسأله هامسا : « طلباتك ياعمدة .. رقاصة واللا ست بيت واللا أى كلام ؟ كله موجود وبحسابه » . فيرد عليه بجملة من كلمتين :

« بتول .. داير ها بتول » سيتردد القواد ، يحك قفاه ، يتمحك ، يتصنع الغضب ، يلف ويدور ، يزين له الجميلات من ذوات اللحم الأبيض الناصع كما يشتهيهن ، وهو مصمم على موقفه : « بتول .. يعنى بتول » .. تماما مثلما يأنف من الخمور المفتوحة . فينصرف القواد يائسا من مطلبه العسير ، ثم يعود إليه راضخا ، يجلس بجواره هامسا « لقيتها .. بس غالية قوى .. باكو وميه وإيجار الشقة والذى منه عليك . وحاسب عليها قوي حاكم أنت مفجوع لحسن دى تهمنى قوى .. وفى حاجة أو نطة كدة هنعملها ، كلمتين فى ورقة عند محامى لحسن تموت منك وأروح أنا فيها .. ماشى كدة .. اتفقنا .. إيدك بقى على العربون » وهذا الثعلب الهمجى لن يدفع مليما أحمر مالم تصله البضاعة ويطمئن

بالاختبار على جودتها . كان يحلم بالغزو والسيارة ما تزال عند البوابة الشرقية للسلوم واقفة لا تتحرك .. وأفراد أمن الصحراء يفحصون الركاب بدقة ويطالبونه بالنزول ودخول الكشك للتفتيش الذاتى ، فيشعر بالحرج والضيق ويقول لهم محتجا « أنا الرقيب حمد البخيت من قوة السرية .. وآدى الكرنية يازول دايرين * منى شنو ؟ أنا لا مهرب ولا جاسوس وعندكم التليفون اسألوا عنى . الخبر شنو ؟ عيب عليكم .. والله لأشتكيكم لسفير السودان » ..

- **انزل يارقيب لو سمحت ؟**
- « **في شنو ؟** »
- **انزل**
- « **والله بتندموا** »

يهبط بكبرياء وشموخ ، يدخل الكشك واثقا ، يعرف هذه المماحاكات واستعد لها . ويدرك أيضا السبب الحقيقى الكامن وراء هذا الفخ الأمنى . فمنذ شهور ، فعلها واقتحم المنطقة الملغومة . فى العادة ، كان رحومة السنينى يتفق معه على كمية الأغنام والموعد كوسيط ، فيتسلم منه الفلوس ويعطى نصفه بالتمام لقائد السرية والنصف الثانى للرقيب أول جعلوص ليوزعه حسب الأدوار وحمد من البداية ، أدرك بالفراسة علاقة الشركة بين الضابطين ، ولم تكن تلك هى المشكلة ، ولا حفر وراء ها . فهؤلاء كبار ولهم حساباتهم شكوكه توجهت

* دايراين : تريدون

لرحومة السنينى وكمية الأغنام العابرة . وفى ليلة ، سكر وفعلها ، قام بإغارة مباغتة والأغنام ما تزال عند السكة الحديد ، وضع البندقية فى صدر رحومة السنينى وواجهه بإصرار وحزم : أقتلك أو أعرف العدد الحقيقى ؟ تشاجرا ثم تصارحا وعرف السر وشالا الفاتحة وتقاسموا المبلغ الذائد على ثلاثة ورحومة احتفظ باسم الثالث كسر ، لكن حمد الماكر عرفه ، مستبعدا قائد السرية لأنهما يتصارحان وحتيتة حين أبلغة رحومة بالكارثة ، كان يتربص لحمد البخيت ويتمنى الإمساك به بشكل قانونى ورسمى حتى لا يغضب مجدى وهو يجهل طبيعة هذا الداهية الجنوبى والذى عمل من قبل فى معظم المناطق الساخنة واشترك فى كافة عمليات التهريب من بضائع غزة والعريش لكراتين سجائر بمبوطية بواخر قناة السويس والمدرك تماما للحركات « بتوع ناس زينب » كما يطلق عليهم . وما زال يذكر أخطر عملياته التهريبية ، صفقة حشيش نقطة الأدبية عند جبل عتاقة .. طنان من الحشيش مقابل عشرين ألف جنيه كان نصيبه الربع . ولو بات واعيا لقيمة القرش لاكتفى وعاد إلى بلاده ، ولكنه صار مغرما ومتيما " بالدهن " أو حسب تعبيره " اللحم الأبيض اللى راقد رقاد » فبعثر الثروة على نساء حى الأربعين وعرايشية السمر ونوريات القنطرة شرق ، كانوا يسمونه الملك . والنوريات يحتفين به ؛ واحدة ترقص له ، أخرى تجلس على حجره ، ثالثة تملسه ، رابعه تنتظرة فى « الخربوش *» . ويسكر ، يسخن ،

* الخربوش : مكان مخصص للعشق عند الجماعات النورية

يغزوها ثم يعود للقعدة ، يمهدنه بالشراب والتدليك والرقص فيسخن ويعود للخربوش ، مثل الحمار ، يأكل النجيل وينط . وفى ليلة واحدة ، صرف عليهن نصف باكو من حصيلة عملية الأدبية والتى دفع ثمنها برىء ؛ وقتها كان أقدم عسكرى فى النقطة وحكمدارها .. وانتظر صابرا يشمشم عن الفلوس؛ فغازل الدليل والصول والوسيط.وجاءته الفرصة ؛ عرضوا عليه أن تمر التهريبة من درك الخيمة ويهرب للسودان ، ثم يتهمون المهربين بخطفه .. يومها ، فكر وبانت عبقريته ؛ من يضمن سلامته حتى حلفا ؟ حتما سيقبضون عليه قبل أسوان ويلبسها لأنه هارب . ولماذا يتساوى معه الصول والدليل والقائد ؟ راوغهم وساومهم على نصف المبلغ .. فلما رفضوا ، طلب منهم تدعيمه بعسكرى جديد خام وهو يتولى الباقى . فطاوعوه ولبوا مطلبه ؛ فى اليوم الأول أضحكه، فى الثانى علمه الحكمة ، فى الثالث ذوده بالنصائح الغالية : إياك والنوم فى الدرك ، إياك وعساكر السوء ، إياك ومصاحبة البدو . فى الرابع سقاه مخدرا خفيفا للتجريب ، فى الخامس وضع له مخدرا ثقيلا مع الشاى فنام كالقتيل وشرب المقلب ولبس الخابور ، فى السادس دخل السجن . وحمد البخيت مثل دور الفارس بإتقان ؛ جمع التبرعات من الفصائل والسرايا وكلف محاميا للدفاع عنه وأعطى لأهله ورضاهم وصرف على الولد حتى حكمت عليه المحكمة العسكرية بأقصى العقوبة ؛ الأعمال الثقيلة المؤبدة . وصار بعد هذه الواقعة من أول الذين يقتلون ويمشون فى الجنازة .. وبحكم خبرته هذه ، يعلم تماما نية حتيتة

بك الانتقاميه فسرب كل نقوده لابن عمه الصول البشير فى مطروح والذى يتصرف بسرعة مع المسافرين للسودان بالعمولة ، حتى صار حمد البخيت مصدرا للدخل وحين أنزلوه من السيارة ، لم يكن معه سوى الراتب الشهرى . ووقف داخل الكشك محتجا ، ثائرا ، شاتما بالسودانى ، وقال لهم متحديا ساخرا : « يا زول حد الله من الحرام .. وما عندى غير قروش الحكومة .. إن كان دايرينه .. خدوه ، حلال عليكم ، ارسلوه للمجهود الحربى ، ما برضه مصر بلدنا .. براكم* قلتم مصر والسودان حتة واحدة » . فتحوا حقيبته ووجدوا بها أشياء بسيطة وتافهة ؛ دستة أمواس ، لوسيون معطر ، قلم باركر ، شباشب زنوبة وخدوجة ، ولاعة رونسون ، قطعة قماش قطيفة .. وهو واقف يتهكم : « يا زول خدوا القلم .. هدية .. اكتبوا بيه التقارير .. أقول ليكم الريحه .. أخير* .. تنعشكم .. » وأمسك بعلبة المعطر وأخذ يرش .. وهم مغتاظون منه ومن سخريته المرة ، فتمادوا فى تعنتهم يسألونه : أين الفلوس ؟ وهو ينظر إليهم ولا يرد ، فيعيدون تفتيشة من جديد " الحذاء ، رجل البنطلون ، ياقة القميص ، توغلوا .. فخلع بدلته ووقف بالسروال ، تحسسوا .. ففعلها ووقف « بلبوصا » يلاعبه لهم بهمجيه .فأبلغوا حتيتة بك خلو الهدف بعد تفتيش درجة أولى ، وابلغوه بوقوفه عاريا ويسألونه المشوره : هل يقطعونه له حتى يكف عن همجيتة ؟ وبعد المداولة ، يزقونه للخارج بإشمئزاز : « غور فى داهية يا سودانى .. الله يقرفك » . لكن حتيتة بك يعتقد أنه تحايل على رجاله وأرعبهم بشيئه المقرف ،

براكم : بأنفسكم

أخير : أفضل

فهاتف رجاله فى البوابات وأوصاهم بالحذر وتجهيز مدية حادة وساطور وإخصائه دون تردد لو تجرأ مرة أخرى . وعند بوابة مدخل مطروح .. وجد فرقة تنتظره فتشوا الركاب واحد واحد .. لم يتركوا ثقبا فى السيارة حتى الإستبن ، على أساس تسريبه لثروته مع الركاب أو السائق. ولما أفرجوا عنهم ،بعد ثلاث ساعات ،تساءل السائق بدهشة : « هو فى إيه ؟ غريبة قوى الحكاية دى ؟» وجاء رد حمد البخيت موجزا : - « الزول جن ؟ » ولم يسأله راكب عن هوية الذى جن وكان بالتأكيد يقصد حتيتة بك الذى يحاول الإيقاع به ويتساءل بدهشة : لماذا يغامر هذا البدوى الأحمق ؟ ألا يخشى لو ضبطوا معه نقودا وخرجت المسألة من يده ، أن يقلب عليهم المائدة ويفضحهم .. رغم قراءته الفاتحة مع النقيب مجدى على سرية التعامل ، ومن يطب يتحملها بمفرده . لقد وقفت علاقته عند حدود الخط الأخضر مع قائده ولم يتجاسر بالسؤال عن الشريك ، لكن بالحداقة عرف دور حتيتة . وحين غامر بدخول حقل الألغام ، هتك الحلف السرى بين رحومة وحتيتة والأخطر ..وصوله لسر الأسرار ؛ ففى إحدى بارات الإسكندرية ، التقى بأكبر تجار الماشية البدو ، أسكره واستدرجه فطب وثرثر ؛ فحتيتة له ضريبة كبيرة وثابتة وخاصة على كل رأس غنم تتحرك فى إتجاه الغرب .. وهو المهندس والمحرك وبعيدا عن رحومة . وأحيانا يدخل شريكا بالعمولة فيتضاعف العائد ، ويتاجر أيضا بين المدينتين من خلال أقاربه . وقال لنفسه : حسنا ياحتيتة بك .. أنا وأنت والسلك والشاطر يفوز .وعندما وصل مطروح ، استدعى الصول البشير ابن عمه ، اختارا ركنا منزويا فى بار

بنايوتى وشربا فى صحة أهل مصر وبقرتهم الحلوب ، التى تشرب من ماء النيل الذى يأتى من عندهم والمصلحة واحدة والنبى أوصى بالجار ثم بدأ جلسة العمل ؛ لهذه المهمة أوفده القائد ؛ انتقاء أفراد جدد مكان الذين سيتم تطهيرهم ؛ أفراد من نوع خاص ، نادر ؛ والأفضل يكونون جنوبيين . ونوع يأخذ القليل ولايفاصل ، يتلقى الأوامر ولا يساوم ، يسمع ولا يردد ، يرى ولا يشى ، يقتل القتيل ويتصدر المشيعين . والصول البشير .. مستشاره .. ومن سيختارهم ، سيدفعون معلوما شهريا له .. وقائد الكتيبة يثق فى تقواه .. ويجهل أسرار الشبكة الجهنمية .. والبشير يسأله : « دايرمنو ؟* » فيتنقلان بين مدن الجنوب ويستبعدان الشايقية والجعليين والبقارة لأسباب عرقية ويتوقفان عند النوبيين والجنوبيين ، يفاضلان ثم يستقران على أسماء محددة من الجنوبيين : غردون ديوم نانا . كمبالا . جمعة ماجاك كتبة تيما . جبريل مرجان . وعلى بركة الله . حمد اختار وانتقى وكأنه رئيس عمليات مع أنه مجرد رقيب فى سرية على هامش الجيش . لكنه ، كوسيط كتوم ، ثالث أهم شخصية فوق الهضبة الملعونة .. وسكر وبدأ يخترف ويروى للبشير عن أدق الأسرار : « تعرف يا البشير يا ود عمى .. قناوى دا زول درويش ومخه خربان .. كل شيئ عنده حرام . داشنو دا ؟ بالله عليك يا البشير .. فى كتاب الله وسنة رسوله فى أى كلام عن التهريب ؟ عرب ودينهم الإسلام بيتاجروا مع أخوانهم ودا حرام من وين ؟ لافيها خمور ولا خنازير ولا ربا ، شوية قماش وشاى والذى منه .. طيب ودا حرام من

داير منوا : من تريد

وين ؟ مش صلوات الله عليه قال تسعة أعشار الرزق فى التجارة ؟ هو بس اللى براه مسلم ؟ ونحنا شنو ؟ .. يعنى أحنا سايبين بلادنا ومرميين فى جبالهم الخربانة علشان ناس صفر ومعانا واحد يدونا أخر الشهر ملاليم ؟ نسوى بيهم شنو ؟ كنا قعدنا فى ديارنا ونشرب المريسة أخير لنا . المهم .. طقت فى رأسى وسكرت سمح ومشيت للزول قناوى .. قلت لنفسى يا قاتل يامقتول تصدق يا البشير .. ألف جنيه لو مشيت بيهم للى ماسك مفاتيح مصر كلها .. هيقول لى أهلا وسهلا . وبعد السلام والصلاة على أشرف المرسلين ، قلت له يا سيدنا الشيخ .. أنت رجل على باب الله ، فقير دقة ، لا عندك ورث ولا أهلك عندهم مال ، وعندك بنات دايرين يعرسوا* يلزم لهم جهاز ، وعندك صبيان يحتاجون لتعليم ومستقبل .. وبارك الله فيمن نفع واستنفع .. والنبى قبل الهدية .. والإخوان كلهم يسلمون عليك .. طلاق تلات ما ترد الهدية ، هذه فلوس حلال من مال الله لأهل الله . وإن كان ماك دايرها ليك ، ارسلها لمقام سيدك عبد الرحيم القناوى يتشفع لينا ولك .. والفاتحة على الخاين وابن الحرام .. بسم الله ......، تعرف يا البشير .. الزول الكافر أبى* يشيل الفاتحة .. قطع كلامى وعاين لى زين بعيونه الحمرا .. وقال لى : إية دايا سودانى ؟ قلت له .. قروش تجارة وما منكر ومن ناس طيبين وما دايرين منك غير الكلمة الطيبة . آه يا البشير .. الزول الحلبى ود الغلفاء ضربنى كف .. ودانى طرشت وعضام فكى طقطقت ، لكن شنو .. الأيام بيننا ، إن كان ربنا طول فى أعمارنا .. هادعكه دعكه سمحة لمن أخليه يقول

ماك دايرها : لا تريدها　　　يعرسن : يتزوجن　　　أبى : رفض

أنا مرة .. وشرط قدام الخلق .. بس الصبر ، خلينا نلم قروشهم الأول .
والحكاية دى اتكررت مع الولد العرباوى رحومة السنينى ، ولد دكران
زى أهلنا .. وما مكن يكون من ناس أولاد على الخوانين ، ممكن أصله
من ناس طارق بن زياد ؛ ولد قلبه من حديد وعنده جنس دماغ تقول
روميل ؛ غايته .. مرة كنا نتباحث فى أمر قناوى قال لى : اسمع يا
سودانى .. قناوى عندى .. خلينى أوقعه ، نصحته .. والله .. نصحته :
ياعرباوى خليك بعيد ، قناوى زول كعب* ، (وراهننى .. مائة جنيه منه
ومليم منى .. وصمم وقال متفاخرا : أنا رحومة السنينى ثعلب الصحراء
، وأهلنا دوخوا روميل ومونتوجمرى والطليانه وساعدوا عمر المختار ،
ورافقوا حملة طارق بن زياد أيام فتح الأندلس ؛ كلام خارم بارم ، كلام
سكرانين ، مع أن أولاد على .. لا حاربوا حد ولا شافوا الأندلس من
أصله . ناس هاديين كدة فى حالهم ، لا معاهم نبابيد ولا سلاح من أى
نوع .. تقول للمهرب منهم : عندك ، يسيب بضاعته ويمشى مدلدل راسه
. وأكبر حاجة عندهم شوية طوب . لكن الخمرة شينة* .. زولنا رحومة
سكر وقعد يلخبط : أنا رحومة السنينى عربى وسليل أشرف رجال
العرب .. وما يغلبنى حتى الشيطان الرجيم ، أعطيت للعسكرى والظابط
والمصرى والسودانى والمغربى والشامى وما فى واحد رفض واللى
يمانع .. ألف عليه بالهدايا . وما فلت منى مأمور ولا مدير أمن .. وفى
النهاية كله واكل . غايته .. ركب راسه وحلف بتربة أبوه وشرف أمه ..
ياهو فى السلوم يا قناوى . غايته فات يومين قول أسبوع ورحومة ما فى

كعب : ردىء　　*شينة : سيئه　　*خارم بارم : كلام فاضى

. فين وفين .. لقيته فى مستشفى السلوم .. مسلخ وومورم وكل فك فى ناحية . ودفع الرهان وما قال كلمة .. » . وصار رحومة كالمجنون ، وركبه عفريت اسمه قناوى .

-١١-

قناوى يتذكر

الآن ، والحافلة تبتعد ، والسلوم .. تتضاءل ، تختفى ، تبدو كنقطة باهته ، تافهة وسط صحراء من الرمال والجبال ، تشعر بالراحة ، تتنهد ، تستغفر ، تلقى بسوطك من النافذة . تنفض يدك من الماضى كله ، بخيره وشره تستند برأسك على الزجاج ، محتضنا مذياعك ، تحاول قطع الوقت بإغفاءة سريعة لكى تنسى ما فات ، لا تستطيع ، تهاجمك الذكريات ، تكبس عليك الصور ، الوجوه ، بشعة ، قاسية ، همجية . تتألم ، صدرك يضيق ، تنفخ ؛ أبداً لا تتخيل ما حدث ، أنت المساعد أول قناوى ، تقف بوقارك وماضيك أمام وكيل النيابة فى قسم شرطة السلوم مثل القتلة واللصوص ، والبنت مبروكة تمثل بوجهها المكشوف ولا تستحى ، تقول كلاما قبيحا تخجل وأنت الرجل من قوله .. تقف وملابسها ممزقة ووجهها مخربش وشفتها مجروحة ، ولا تدرى أى أبليس ألقاها فى طريقك وتفكرّ فى رحومة وحمد البخيت وجعلوص وينقصك الدليل . وهى تمثل ، تبكى وأنت مكسوف وعيون عساكر البوليس والمأمور تحاصرك ، تتخيل المصير المظلم الذى ينتظرك ،

والبنت تكيل لك ، تتهمك صـراحة وتقول باكية : يا سـعادة البك القاضـى هـاك وجـهى هـاك شـفتى ، هـاك ملابسـى وترفع جلبابها ، تتعرى ، تقول : وهاك سروالى . ياحضرة القاضى كنت ماشية لزيارة أهلى فى درنة* .. والصول هادا مسكنى بحدا السلك وقال لى : تعالى أسلمك .. ومشيت معـا . لأنه حكومة .. وفى الطريق قـال لى : نريدك يا بدوية ، فسألته : وإيش تريد ؟ تريدنى نمشى للمأمور .. هيا .. مانى سارقه ولا مهربة ولا نورية ؟ أنا ست شريفة وماشية لأهلى غادى* ، تريد قروش ؟ هاك ما عندى غير دينار . قال لى : لا ، نريدك مثلما يريد الرجل الحرمة . وأنا خايفة منه لأنه حكومة والدنيا خلا .. وقلت له : تحشم يا راجل كنك ؟ والكلام هادا ماعندنا .. وأنت شيبانى* خاف الله وإن كان تريدنى على سنة الله ورسوله .. الكلام هادا ما يصير فى الصحراء ؛ امشى لأهلى فى السلوم ومطروح ودرنة .. وأمسكنى ياحضرة القاضى ولوحنى* فى الأرض وبرك فوقى ، عضنى ، خربشنى ، مزق سروالى ودايز* العيب . رأيت ياحضرة القاضى . هادى الحكومة .. واحنا إيش نديروا .. الله غالب .. » هى تحلف بمقام سيدها العوام ، وأنت تحلف بمقام سيدك عبد الرحيم القناوى وتحلف بالقران ووكيل النيابة صدقها ونظر للسوط واتهمك بالتخلف والهمجية ، لتأثره بدموعها وتمثيلها وتوصيات أعدائك ؛ فهو صديق حتيتة بك ، ويستفيد من التسهيلات ،

درنة : مدينة فى ليبيا — غادى : هناك — شيبانى : كهل

لوحنى : طرحنى أرضا — أريت : رأيت — داير : يريد

وصديق أعيان المدينة ، ولذا ، قرر ، إدانتك ، وكاد يلفقها لك بدون شهود . وأنت لا تدرى . هل هذه بنت عذراء أم امرأة .. وتخاف لو عرضوها على طبيب المستشفى أن يجامل الأوباش ويكتب تقريرا مزورا وتكون نهايتك . ما دام رحومة وراءك مثلما حدث مع بلال عثمان . وأنت لا تأخذ الناس بالظنون والشبهات .. ويكفى هذا الحقير الحرفوش ما ناله منك ؛ علقة سيحلف بها حتى يوم يبعثون ، حين جاءك بوجة مكشوف وعرض عليك ألف جنيه نظير كل صفقة أغنام تعبر بسلام .. وخمسمائة جنيه شهريا من التجار نظير الارتياح فوق سريرك من المغرب يوميا وقال لك مهددا : إما تقبل أو نقتلك أو يصير معك مثلما صار مع بلال . وأنت لا تخاف هذا الصنف من البشر ، ضربته بالكرباج ودبشك البندقية والبوانى والشلاليت ولولا هروبه كالحريم .. لمات بين يديك لكنك الآن ، تقف مكتوف اليدين وحزين على نفسك ، فبعد كفاحك الطويل ، سينتهى أمرك بالفضيحة على يد عاهرة . وكنت تستغيث بربك فى محنتك فأغاثك هذه المرة لحكمة يعلمها ؛ أرسل إليك ملاكا فى صورة كهل بدوى ؛ نفس الرجل الذى دافع عنك وحماك لحظة رحيلك .. وهذا الرجل الملاك ، كان يصلى بجوارك دائما صلاة الجمعة فى مسجد السلوم . ويبادلك الحديث الدينى ، يرتاح لك ، ينصحك الترفق بالفقراء من أهل المدينة ، لكنه أحبك لأنك لا تترخص « وتتفتف » مثل العساكر رجل تتصوره كأولياء الله الصالحين أو بقايا الرعيل الأول ؛ نقى ، تقى ، فطرى . نفس هذا الملاك ، الرجل ، النبى ، اقتحم قسم شرطة

السلوم بوقارة وحكمته وعصاه وقـال لوكيل النيابـة غاضبا : هذا ملعوب يا سعادة القاضى ، والصول هادا لا يفعل العيب ولا يستحل ما حرمه الله . ووكيل النيابة تجاهله وقال له : اتفضل استريح فى الخارج يا حاج وإذا كان لديك ما تقوله .. سأستدعيك للشهادة . لكن الرجل ضرب مبروكة المنحوسة بعصاه وشتمها : تحشمى يامرة والكلام هادا عيب وحرام وما يصير عندنا .. ورحومة لن ينفعك يوم القيامة .. هيا .. هيا اخرجى . ووكيل النيابه أمر الحارس بطرده من مكتبه عنوة .. والرجل لا يتزحزح ، لوح بعصاه فى وجه مبروكة وهددها بعذاب الأخرة وشخط فيها : هيا .. هيا قولى للصول سامحنى .. قولى ، وشدها ، إنهارت مبروكة باكية ، خرجت تجرى مدلدلة الرأس والرجل يجرى وراءها . ولم يبق إلا إياك ووكيل النيابة الذى أقفل المحضر مؤقتا لانسحاب المدعية . ولو كان رجلا منصفا .. لأعاد فتح التحقيق على ضوء انهيار مبروكة وعرف منها الحقيقة واستدعى المحرض وسجنهما

والأن ترحل ، تاركا خلفك كل هذه الممارسات الهمجية ، وتتنهد بعمق بعد تخلصك من سوطك الأثرى الذى لازمك عمرك . فهذا الكون الخربان ، لن تصلحه وحدك ، لقد خلقت لتكون مقاتلا لامطاردا للأغنام والحمير ومصلحا لخراب الذمم .وحنينك للبندقية لا يقاوم ، تمنيت لو أبقوك هناك حتى يوم الثأر من الذين أرغموك للعودة سيرا ثلاث مرات ، ولترد اعتبارك من كلام البدوية العجوز التى كانت تحرس بئر عين أم

التفتوفة : الرشوة

أحمد فى مجاهل سيناء الجنوبية ، فسقتك بدل الماء علقما : « يا وليدى .. لوين ماشيين .. انتوا ديما لورا .. ما فى مرة لقدام .. » تعاقبك وأنت المغلوب على أمرك . وبعد أن سلمت حقيبة النقود ،رفضت الأجازة وبقيت عند حافة القنال تنتظر ، لكن الولد اللوطى القبيح يوميا كان يحرق أعصابكم ، يعرى لكم مؤخرته ويضرط فى وجوهكم ولا يكف عن حركاته الغبية . وأنتم مكبلون بوقف إطلاق النار والأوامر مشددة ، لأنهم انتصروا وما زالت قواتنا شاردة فى الصحراء وتحت رحمتهم . والولد لا يكف ؛ تمادى فى سفالته فأتى بمجندة وقام معها بأفعال فاضحة أمامكم ؛ و رفاقك .. يضربون رءوسهم على حافة الخنادق كمدا وغيظا . وأنت لم تحتمل ، لعنت وقف إطلاق النار ومن أصدره ، نشنت على مؤخرته ومزقت مصارينه بطلقة واحدة محكمة التصويب .. يستأهل ، ولولا هذا الحادث العارض ، لبقيت فى موقعك حتى يوم الزحف . ولما نقلوك بعيدا عن خطوط المواجهة ، وجدت نفسك فى مرسى مطروح ، واستقبلك القائد بالأحضان ؛ كان واحدا من أنبل وأشجع الضباط ، عملتما زمنا طويلا معا ، تنقلتما بين سيناء الجنوبية والشمالية وأطلقوا عليه حبيب العساكر ؛ يأكل معهم فته العدس ويسهر وسط الجنود فى الخنادق والخيام ، يعادى الضباط لصالح البسطاء ، يكره الباطل والقرش الحرام ، يحاول خلق عالم تسوده العدالة ، وقال لك : ليست مصادفة وصولك إلى هنا .. فقد طلبتك بالاسم من رئيس عمليات السلاح .. وسأكلفك بمهمة شاقة ؛ أظنك سمعت عن السلوم ، لقد حاولت

على مدى عامين إصلاح الأمور ولم أنجح بعد ؛ بدلت السرايا ، غيرت الرجال .. أنذرت حاكمت ، ولا فائدة ، الذى يدنو من السلك تصيبه العدوى ؛ العريف بلال عثمان . هل تذكره ... سبقك إلى هناك ونقل لى صورة قاتمة لاتبشر ، حتى وقوع النكسة لم تهز الضمائر .. فهل نستورد الشرفاء ولدينا أمثالك ياقناوى ؟ تصرف بذكاء وحكمة ولاتصطدم بقائد السرية لأنه مسنود ، هو قريب فلان الذى كان قائدنا فى العريش .. هل تذكره ؛ كبر الأن وصار له شأن ونفوذ .. بالتوفيق وإتصل بى فورا حين تصادفك المتاعب وستجدنى طائرا إليك .أنت وبلال وثلاثة جنود وسوطك الشهير ؛ أشعلتم حربا ليس هذا أوانها ؛ فلاالجنود ولاضباط الصف يتحمسون لها .لأنكم أقفلتم عليهم باب الرزق . ولاالبدو الجياع صمدوا أمامها ، لكنكم حاربتم حتى سكنت الهضبة ، لقد لزم البدو خيامهم والعساكر قعدوا يهشون الذباب ، ومدير الجمارك يصرخ : « إيه دا ؟ جابوا الراجل المجنون دا منين ؟ أمال هنشتغل إيه ؟ » ، والمدينة كسدت تماما ، الأمر الوحيد الذى حيرك ، هو فشلك التام فى ضبط الأغنام حتى تشككت فى وجود نفق سرى بين شطرى الحدود وكنت وقتها عاجزا عن الحركة مشلولا بعد تجريدك من بلال والجنود الثلاثة ونفيهم إلى « الملفا » بتهم ملفقة ، وقائد الكتيبة يتعجلك سرا لتهدئة ثورة مدير السلاح لأن وزير التموين شكاه لرئيس الوزراء ، فالأغنام شحت فى البلاد وأثمانها ترتفع ، وأنت حائر لا تدرى كيف تتصرف ، حتى خدمك الحظ وأمسكت بالخيط كله مرة واحدة ، لأن

الدليل البشارى انشق على جماعته وجاءك واشيا : ياعم قناوى ، الحكاية كيت وكيت ، الرقيب أول جعلوص وحمد البخيت والقائد وعساكر النقط ورحومة السنينى وحتيتة بك ، ولأنك لا تثق فى هذا الصنف من الرجال ، وتؤمن بأن من نقل إليك نقل عليك ، ترددت ، تشككت ، قدمت له كتاب الله لكى يحلف عليه ، فحلف ، وقطع رغيفا لنصفين وحلف بالنعمة الشريفة وبشرف أمه وبمقام الشيخ الشاذلى ، طيب ، ما الموضوع يا بشارى ؟ نعم يا عم قناوى ، الليلة موعدك مع أكبر صفقة أغنام ، ستعبر بعد صلاة العشاء وقبل صلاة الفجر من نقطة « صلب النص »* الليلة بالذات قيدك القائد بعدم التحرك لأنه سيكلفك بمهمة خطيرة وينتظر ساعة الصفر بعد ورود إشارة بالشفرة ، وحين سألته عن نوع المهمة قال لك هامسا : المعلومات المتوفرة حتى الآن مشوشة ، عناصر من الضفادع البشرية ستنزل ساحل السلوم ، وهذا سر لا يعلم به أحد حتى تصلنى الإشارة ، وعليك فقط بالانتظار ، وأنت تسأل نفسك : أى ضفادع بشرية هذه التى ستأتى للسلوم ؟ ولأى هدف ؟ هل يترك العدو موانىء البحر الأحمر وبورسعيد والإسكندرية ويأتى إلى هنا لنسف الأغنام والحمير ؟ أتوجد فى السلوم قاعدة سرية مجهولة ؟ وترنو للأفق فلا ترى سوى السراب ، ولكنك تنتظر كجندى ملتزم يفرح للمهام الصعبة لأنك أهل لها ، تنتظر وتخطط فى ذهنك تصورا للمواجهة ، لقد أبعدوك من هناك فجاءوا إليك والويل لهم من

صلب النص : أقرب منطقة بين المدينتين

ثأرك المؤجل ستقبض عليهم ، ولن تسلمهم قبل ضرب مؤخراتهم بالسوط ، تنتظر والقائد لا يأتى ولا عريف الإشارة أفاد بوصول أمر عاجل ، لا شيء ، والدليل يتعجلك ثم ينفجر فى وجهك : « تبقى لازم يا زول واكل معاهم زى ما قالوا ؟ » وأنت مغلول والوقت يمضى ، وبدأت تشك ، ثم تحول شكك إلى يقين حين بحثت عن جعلوص وحمد البخيت ولم تجدهما ، تحاول الاتصال بقائد الكتيبة تليفونيا فتتعثر ، تجرب إبلاغه لا سلكيا فيرفض عريف الإشارة ، لأن هذا من اختصاص قائد السرية تتوتر ، تتمرد لثانى مرة فى حياتك العسكرية تجمع السائق والعساكر بالأمر وكنت خلف النقطة فى آخر لحظة ، وتصورت أنك حققت نصرا وقضيت على الجماعة . . ولكن ..

- ١٢ -

عودة قناوى

بعد هزيمتك ودحرك وتفجيرك وتسرب نصرك من ثقوب قانون الهمج ، استدعاك قائد الكتيبة فور وصولك وقال لك مؤنبا .

- كنت كلمتنى وأنا أطير إليك ، لهذه المهام العاجلة اخترعوا التليفونات يا قناوى .

- **حاولت .**

- **أليس فى السرية جهاز لاسلكى ؟**

- **كله مراقب يا فندم**

-. لهذه الدرجة ؟

- أقول الصدق ولا تزعل ؟

- إنى أسمعك .

- ألن تحاسبنى .

- قل .

- بدأت أشك حتى فى سيادتك .

- قناوى !

- قلت ما عندى .

- أنا يا قناوى ؟

- عليك بإثبات العكس .

- معقول يا قناوى ؟

- يافندم . . الإغراء هناك شديد .

- ولو . . سأحاول من جديد .

- لم يبق سوى وقوفك شخصيا عند السلك .

- انتظر وسترى .

وتحرك قائد الكتيبة ، لأول مرة يتدخل بثقله وكامل سلطاته ، استدعى قائد السرية ، وأرسله إلى إدارة الحدود مسبوقا بإشارة وخطاب سرى عاجل ، أعاد العريف بلالاً ورفاقه من منفاهم إلى السرية وأوصى بترقيتهم استثنائيا ، أبرق للنيابة العسكرية بالإسكندرية لكى تعيد فتح التحقيق مع العسكريين فى موضوع الأغنام ، سحب كافة العناصر المشبوهة ووضعها تحت الحراسة ، عدا حمد البخيت ، أمسك ذيل جلبابه بأسنانه « ويا

فكيك » للسودان .

وبينما كان يقوم ، وفى سرية تامة بإنشاء وحدة جديدة ، انتقى أفرادها بدقة وترو وفحص ، جاءت عدة إشارات عاجلة ، الأولى بنقل عدد من الجنود إلى خطوط المواجهة ، والثانية بتشكيل مجلس عسكرى للعريف بلال عثمان إستنادا على محضر شرطة السلوم لإخلاله بالضبط والربط وحسن الانتظام العسكرى ، والثالثة بإنهاء خدمة المساعد قناوى الشريف للإستغناء، والرابعة بنقل قائد الكتيبة إلى . . تمهيدا لـ ....

الجـــزء الثالث

بلال يحترق

بين عامى ١٩٩٣ ، ١٩٩٤

-١-

صوت الكوارث ما زال يقتحمك ! ينتزعك من عالمك الخاص المشوس .. برنين التوقيت الحرج ، تنام فلا تنساهم ، يدخلون أحلامك فيشوهونها ، لكنك تنام نوما متقطعا وتحلم ، تحلق ، تلج عالما آخر مغايرا لواقع مقلق ، وليلتك كانت أحلامها عجيبة : كنت تحتضن قناوى ، تهدهده ، تلقمه ثدييك ، ورأيته أيضا ملفوفا بأعلام الوطن فوق عربة مدفع تجرها الخيول ، يتقدمها الجنود بخطواتهم العسكرية الجنائزية المهيبة ، وملايين البشر فى الخلف وعلى جانبى طريق طويل .. طويل ، بدايته السلوم ونهايته رفح سيناء ، وبشر من كل صنف : بدو من الغرب والشرق ، عبابدة وبشارية من البحر الأحمر ، نوبيون من الجنوب ، صعايدة ، بحاروة ، اسكندرانيون ، قاهريون ، فلاحون كلهم يودعونه : مع السلامة ياقناوى ..فى ذمة التاريخ ياقناوى ، النساء ينشرن الزهور ، الأطفال يغنون .. بلادى .. بلادى .. لك حبى وفؤادى ، وأنت تجرى طوال الطريق ومعك مكبر صوت ، تسبق الجنازة ، تعلن ، تنبه : أيها الأصدقاء .. لابكاء اليوم .. أرجوكم لابكاء . والجنازة تسير ، تمر على الخيام ، بيوت الطين ، عشش الفقراء ، أخواص الصيادين ، قصور المرتاحين .. تسير والناس ينتظرون لإلقاء أخر نظرة على أخلص رجل . وفى كل قرية ومدينة ، يعترضون الموكب ، يريدون خطفه ودفنه عندهم . والقناوية يتعصبون له . وأنت القائد الأمر وترفض

تحويله إلى وثن أو درويش أو مقام تبرك . والجنازة تسير .. تتقدمهما دليلا ثم تقف عند منشية البكرى وتقول لهم : هنا بجوار الزعيم .

والرنين المزعج يقطع عليك الشريط قبل إنتهاء مراسم الدفن ، تقوم متثاقلا والشواكيش تدق رأسك من ثقل الأحزان وسهرة الأمس . تفكر فى تحطيم الهاتف ، تفكر فى سبه تتراجع لأنه صار مصدرا للمعلومات .. ألو .. ألو .. ! تبادر بالرد ساخرا :

- صباحنا مثل وجهك ياعسل .

- وهل تعرف لون وجهى .

- بالتأكيد فى لون الليل .. لأنك تنعق دائما .

- أراك تمزح .

- حتى لا أنفجر كما تخططون .

- سلامتك .

- لا سلمك الله .

- لسانك هذا سبب محنتك .

- ماذا عندك ؟

- غادر حالا .

- والسبب ؟،

- الشرطة يجمعون رفاق سهرة البارحة .

- وهل كنا نتأمر فى بار ؟

- لا تتفلسف وارحل .

- حتى السكر يستكثرونه علينا ؟

- المسأله أكبر .

- تحريم دولى لشرب الخمور أم توصيات صندوق النقد ؟

- الشاعر الذى نقلوه أمس ،

- هل هجاهم وهو سكران ؟

- أصيب بالعمى والشلل .

- ياساتر ؟

- الخمرة كانت مسمومة .

- مسمومة ؟،

- والشكوك تحوم حولكم .

- كلنا شربنا منها .

- والعين عليك .

- أنا ؟،

- هذه فرصتك الأخيرة .. إن ترددت .. هلكت .

وهذا خامس ضحاياك ، وينبغى التفكير جديا لو صحت الواقعة . تحرى ، وتأكد ثم أحسمها مع نفسك : إما بالمغادرة لعدم وقوع ضحايا جدد .أو بمواجهة دامية تستشهد فيها كرجل وتتغنى الأجيال بملحمتك . لكن السؤال : ستواجه من ؟، طواحين الهواء ؟، إنهم على

قدر من الذكاء إذ تركوك أمام مساحة من الفراغ والوهم .. لأنك لا تملك دليلا واحدا لربط همج تأويل النص بالأشباح ، بحلاب البقرة ، بالمنحرفين من رجال التصدى . ثمة مصالح مشتركة وتآمرات خفيه وأيد تعبث من وراء الستار يحركها الهمج المتربصون على أبواب رفح أين أدلتك ؟ من ستواجه ؟ تلك هى المشكله والكارثة . تستعيد بدقة شريط السهرة : لحظة بلحظة ، قبل تفرقكم المذعور حين انتابت الشاعر حاله مرضية غريبة مخيفة : صعوبة تنفس ، حجوظ العينين ، ارتعاشة الأطراف .. فحمله صديق مقرب وأسرع به للعلاج . أعتقد تم وقتها أنها مجرد وعكة ، لكنك الأن تلوم نفسك وضميرك يعذبك .. كان بوسعك منع وقوع الكارثة .. أيها الهمجى المذنب . أنت مجرم وتستحق شرف الأنضمام للمملكة الهمجية عن جدارة . تشككت فى الكأس الغريب من البداية : لماذا أبقيته على المائدة ،إذن ؟ الشريط كله أمامك .. الكئوس فوق المائدة زجاجات البيرة أطباق المزة ، مكعبات الثلج ، وجوه الرواد ، الجرسونات ، باعة المناديل والفول السودانى والمتسولون . وكئوس التحية تنزل على مائدة أهل الفكر والأدب من المريدين والمحبين وعشاق الكلمة : ربع ڤين ياسيد لصاحب ديروط الشريف ... دوبل ياحماد لمبدع بيضة النعامة الذى أفتتح الروايه باغتصاب مؤلفها . " وواحدة ساقعة كمان لمطر " وصديق يسألك : " مالك ياجدع .. ماتغرفش امال ؟ " . وأنت صامت تطلب ، تشرب وحدك

.. لاتتبادل معهم الأنخاب . والليلة بالذات ، بعد موت قناوى ، كنت تشك فى أصابعك ، فإذا كان صاحب الرقم قد فشل معك فهل صمد أمامه فقراء الكتاب ؟! وقد خافوا من مجنون .. فماذا عنك ؟ كنت مستهدفا والرؤية الآن واضحة والرسالة وصلت لغير المرسل إليه . الأوغاد : خططوا للقضاء عليك فى لحظة فوضى وسكر وشيوع .. تدميرك ومسحك فى موقف شائك فاضح . كنت تبكى قناوى والدمار قابع فى قاع كأس على بعد سنتيمترات منك : شلل ، عمى ، فقدان ذاكرة . وتلوث صحفهم القذرة سيرتك ويكتبون عن أدعياء النضال الذين يتفسخون فى البارات ويموتون بالتسمم الكحولى ، يقضون عليك ماديا وأدبيا ويستريحون منك إلى الأبد .. أيها المشاغب المناكف . ضاقوا بك فلجأوا للخمرة المسمومة ، شربها الشاعر وافتداك . تتذكر الآن أدق التفاصيل : فى زحمة البار ، الصخب ، تبادل الكئوس ، الحوارات الساخنة ، القهقهات، غياب الإدراك والفوضى : اقترب منك همجى تراه لأول مرة ، وقف بجوارك وقدم نفسه كقارئ معجب وأثنى على كتاباتك ورفعك لمستوى نجيب محفوظ وحدد لك موعدا فى زهرة البستان وسيوافيك ومعه مستشرق غربى اختار أحد نصوصك لترجمته . كان يتحدث بصوت خفيض منحنيا حتى لا يسمعه الحساد .. وبيده كأس ممتلئ للحافة ، وعند إنصرافه ، قدمه لك .. تحيه مودة وتعارف من معجب لأديب متميز ، زاعما أن حماسه لقيمتك سبب

ترشيحك للمترجم.. لاسعيا وراء منفعه خاصة وإنما إعجابا بموهبتك وعند توقيع العقد ، لن تزيد مكافأته عن سهرة فى الجريون . وأنت مهما شربت ، حتى الكحول الخالص .. لاتسكر . تمسك دائما بالخيط الفاصل بين الغيبوبه والوعى وتظل قادرا على الحركة والتمييز . ولحظة وصول كأس الهلاك إليك ، كنت منتشيا بالثناء وحكاية المترجم الذى هبط عليك . وكتبت الموعد كى لا تنسى ، ومع ذلك ، كنت واعيا ونظرت للكأس بإستغراب .. لأنه ممتلىء للحافة ، لاهو دوبل ولا دوبلين ، تشمة فلا تجده مخلوطا بالبيرة . فإما أن الرجل فلاح شرب أو مبتدىء أو سكران طينة ، تتلفت لتراه كيف يشرب ، يتعامل، عن ماذا يتحدث ؟ .. فلا تجده ، تجوب بعينيك الموائد الأخرى ، منصة البار ، تترصد المبولة .. فلا تعثر عليه ، تسأل عنه الجرسون .. فيفيدك بأنه زبون جديد يأتى لثانى مرة ، ويبدو عليه ممن يسافرون لبلاد المال : " بس إيه .. كدة .. جدع قوى وفنجرى .. تعرف ياأستاذ .. أحسن زبون النهاردة .. تقول أدانى كام .. مش هتصدق .. حته بعشرة .. حد فيكم عملها قبل كدة .. دا أنتو عالم آخر فقر .. " . فتتشككت فى الرجل والكأس وأزحته بعيدا عنك ، ليس أمامك أو أمام أحد ، فى المنطقة المحايدة بين الكئوس ، فظل مهملا .. متروكا . قوة خفيفة حذرتك منه ، تنظر إليه وكأنه عفريت . كأس الدمار أمامك والفأر داخلك ، وكان المفروض وقتها ، أن تريقة أو تحمله لمعهد السموم لكى تحسم المسأله وتقطع

الشك باليقين وتتضح الأمور : جنون ووهم أم شبح مطارد فعلا ؟، لكنك تركت المسألة معلقة ، انشغلت تفكر فى قناوى ، تسترجع نصيحة أمك الغالية : " ياأبنى خليك فى حالك .. أنت مش قدهم .. دى ناس قادرة وفاجرة ومايعرفوش ربنا .. ودين النبى هتموت قتيل .. أنا أهه وأنت أهه ".. . كانت فيلسوفة بالفطرة . هؤلاء الهمج سلالة معاوية والمماليك : التأمر ، الخسة ، الدربة ، المناورات . وتفكر فى موتك بنفس طريقة قناوى ، داخل قبو أو تخشيبة : يفتعل رعاع المساجين مشاجرة تذهب ضحيتها .. سجين ضربه المساجين . وكنت تفكر فى حادث عارض وقع لك .. أثناء عودتك من زيارة قناوى : وصلت إلى شارع الجبلاية ، بعد المغرب ، فى طريقك إلى عوامة صديق من عشاق الكلمة وقريب للطبيب النفسى الذى أخترته ليحل لك لغز قناوى .تسهر معهما وأنت تتأمل النيل فى تلك المنطقة خافته الإضاءة فباغتتك سيارة مسرعة وكادت تفرمك ، قفزت ، نجوت ، وقفت ترتعش ، قلبك يدق وقلت الحمد لله .. تذكرته وقلت . مع أنك تخاصمه كثيرا . وتسأل نفسك : هل يؤمن به القتلة بكافة أنواعهم وتفريعاتهم ؟ الهمج والأشباح والذين أبادوا شعوبا ومازالوا يبيدون ؟ وهل يؤمن به الذين يمارسون اللواط ويسكرون ويزنون فى قصورهم ثم يقيمون الحد على سارق الرغيف ؟، وهل يغفر لهؤلاء ويشملهم برحمته لو غسلوا أيديهم من جرائمهم وصلوا وحجوا وزكوا واعتمروا ؟ وأين تذهب الدماء التى

أريقت والأرواح التى أزهقت ؟! أنت تسأل وتشك : لكنك تحبه فى الزهرة المتفتحة ، نسمات الربيع ، أنبياء التسامح والخيرين والطيبين والرحماء والجمال ، تحبه وأنت تأكل والناس يأكلون وحين تهطل الأمطار فى مناطق الجدب فتزدهر الحياة . ثم ترفع عينيك للسماء حائرا .. حين تغضب الطبيعة وتقذف بالحمم والزلازل والموت والدمار ، عندما تسمع دوى القنابل ولمعان السناكى والسيوف ، عندما يلجأ الناس لصفائح القمامة كالقطط والكلاب . وتزداد حيرتك حين يسود الهمج ويغتنى الأشباح والأوباش ويقولون هذا من عند الله .. يعطى لمن يشاء ثم يذهبون بعد ذلك للحج والعمرة ويقيمون موائد الرحمن فى رمضان ويبنون المساجد حتى يغفر لهم ويضمنون الآخر ة بعد الدنيا التى خربوها .وتسأل نفسك : هل يغفر لهم حقا ؟، وتتمزق بين تراثك الدينى وعقلك . كنت تفكر ونسيت كأس الموت فى المنطقة المحايدة بين الشاربين .. كأس الإغراء المجانى . وكان الواجب الإنسانى يحتم عليك إبقاءه تحت سيطرتك . وقبل ذلك ، مر بذهنك ، خاطر سريع ، فى لحظة تشويش ، ينفى عن واهب الكأس صفة التآمر . وإنما هو ابن بلد ، شهم ، جدع ، اصطفاك وحياك . بكأس محبة ، وأردت التأكد فتركت الكأس على المشا ع لمن يجربه لك . وبذلك لبست قنا ع الهمج ، وتخليت فى لحظة ضعف عن إنسانيتك ولم تعد ذلك الطفل الذى يحذر الناس من اللبن المغشوش ولحم القطط وأنقذ ابن جارته ورد العقل لأبيه .

فحين تركت الكأس للتجريب ، فقدت مصداقيتك .والشاعر كان همجيا أو غائبا عن الوعى حين سطا على الكأس ، لو استأذن أو سأل ، كنت بالتأكيد ستمنعه أو تحيطه علما بوساوسك . لكنه شربه دفعة واحدة وراح . وحدثت هوجة ذعر وتفرقتم ، خرجت وذهنك خال تماما من حجم الكارثة ، ولم تتخيل أنهم بهذه الدرجة من الوحشية والغلظة .. وحاولت طمأنة نفسك بالتهوين : غسيل معدة ويرتاح ، حقنة بسيطة ويشفى ، وحاولت النسيان : تمشيت لتبعد الصورة عن ذهنك ، شغلت نفسك بأشياء أخرى : وقفت تتفرج على سيارات الشرطة المستعدة فى ميدان سليمان باشا .. بجوار جروبى وسط الدائرة تماما .. وأماكنكم على الأجناب : الأتيليه ، التجمع ، الحزب الناصرى ، زهرة البستان ، المستودع . وهم جاهزون للتحرك الفورى والإسكات . وكنت تتساءل : لماذا يقفون هنا بهذه الكثافة ؟، فالمنازله ليست بينكم وبينهم .. هناك لبس ، تداخل خطوط ، تمييع مواقف ومحاوله ماكرة للواقعية بينكم لكى تتسع مساحة الهول وتتشتت الجهود مع أن الأعداء واضحون كشمس النهار ، الهمج الذين عند بوابة رفح ، الهمج الذين يؤولون النص على هواهم ، حلاب البقرة،الأشباح. وكنت تدنو منهم لتسألهم : لماذا تقفون هنا ؟ تدنو حتى صار بينك وبينهم مسافة ذراع. ورأيت عن كثب : وجوهـا جـامدة حجرية وعيونـا حمراء شريرة وبنادقـا مسنودة على حافة مؤخرة السيارات وفوهاتها موجهة إلى الجميع والسناكى

مفرودة تلمع مع الضوء . خطأ بسيط وتفتح الجحيم أبوابها . وكنت تبحث عن قائدهم لتسأله : ماهى المهمة بالتحديد والتعليمات التى تلقيتها ولقنتها لجنودك ؟ متى يضربون ؟ ومن ؟ تود لو تفتح معه جسرا من الثقه والود وتحدثه عن الأشباح الذين ترتبط مصالحهم بهمج أبواب رفح فيحركون من خلف الستار همج الداخل : هذا المثلث الشيطانى الرهيب . وددت لو يعرفه ، لكن الضابط ، كان يقف مزهوا بدبابيره وسلطاته على الناصية ، يراقب الجميلات ويقول صائحا ، مشيرا إليك : " مشوا الجدع اللكع دا .. " . فيندفع نحوك ثور فطرى هائج ، ينطحك ، يدفعك بيده البدائية ، يصيح : " مش سامع الباشا قال إيه ؟ أنت أطرش ؟ أمشى أنجر من هنا .. اتلحلح يابجم .. " . الأسلوب الهمجى سمرك ، المباغته شلت قدميك ، تود لو ترد أو يعتذر لك أحد . أو يتدخل عابر ، يطيب خاطرك . تود لو يهبط رخ أسطورى ، يخطفك ، يبعدك عنهم . بإرادتك بعد الإهانة .. لا تقدر . مذهولا تنظر للعسكرى كالأبله وتسمع صوت الضابط من بعيد : " ماله الحيوان دا ؟ " . فترى ثورا آخر يقفز من السيارة صارخا : عا عا .. يتقدم نحوك فى وضع قتالى .. يتقدم ، فتتراجع بظهرك ، تتعثر بالرصيف ، تقع ، تتبعثر : كتبك فى ناحية ونظارتك، جسدك ممدد ، رأسك تتحسسها فلا تجدها . أين رأسك ؟ . يسندك المارة . " يلمونك " يعيدون توضيبك ، يثبتون رأسك مكانها ، تتحرك رقبتك ، تطرقعها ، تطمئن على قوة التثبيت ،

تقوم يأخذك أحدهم بعيدا ، يسألك : " عملت لهم إيه ؟ " . بماذا تفسر ؟ تسكت.. فيضيف : " كله إلا دول.. ماعندهمش هزار .. على طول طخ " . وأنت تبتعد عن الميدان ، وشوارع وسط البلد كلها .. كنت مندهشا مجروحا مهانا : البجم نعتك بالجم والهمجى نعتك بالحيوان . ماذا لو قالها بأدب : لو سمحت ياأخ . كنت ستذهب لحالك مرتاحا . الآن .. أيقظوا فيك الشر والغيظ ، نفخوا فى الرماده دخلت بارا وشربت لتبريد جوفك بالنار . وعدت إلى شقتك . ممررا عدت . تتحسس رأسك التى هذبتها وحشوت بها عصير الكتب وفكرت بها،مجرد رأس بجم . تثور ، تبعثر .. أوراقك ، أقلامك .. والحريق داخلك .. نار . تفتح النافذه ، تفرغ شحنتك فى الهواء تصرخ بأعلى صوتك . يابجم .. ياحيوانات . لم تنم ليلتها . كان يومك حافلا : موت قناوى ، حادث البار ، موت كبريائك فى الميدان ، والآن جاءك خبر الشاعر .. وأمر بالمغادرة . حادثت صديقا وتأكدت من موضوع الخمر المسمومة .. استسلمت وقعدت تنتظر المداهمة ، هيأت نفسك لها . وسهرت الليل مع رواية أسطورة قناوى . والهاتف يرن لثانى مرة ، لاترد ولاتريد : لأنك قرفان ، أفكارك تهبط ، تتدنى لأسفل.. تفكر فى الثأر والرد.. لكن ترد على من ؟ وكيف ؟ وتفكر جديا فى الرحيل .. لكن إلى أين ؟ والرنين لا ينقطع ، ترفع السماعة وتشخط : نعم من تريد ؟. ويأتيك الرد من الجانب الآخر : حادا ، جافا ، عدائيا ، منذرا .. وفى أول الليل هذه المرة ،

بضمير المتكلم ، ويقذف بجملة واحدة دون مقدمات : على باب شقتك ستجد رسالة .. كإنذار أخير .. أرحل أو أحرقك حيا .

-٢-

تنظر من العين السحرية برهة ثم تفتح الباب بحذر فلا تجد سوى علبة من الصفيح مليئة بالبنزين وفوقها علبة ثقاب .. وتلك هى الرسالة . تدير قرص السماعة على الرقم السرى فيرد عليك صوت الجهاز : عند سماعك الصفارة .. أترك أسمك وعنوانك ورسالتك .. وسأتصل بك فى وقت لاحق . تلجأ لأرقامه العادية ، فيعتذرون لك لسفر الباشا فى مهمة ولا يمانعون من أستلام بلاغك أو رسالتك لو كانت ذات أهمية تتعلق بالعمل . والرسالة أمام باب شقتك وأنت على أبواب الجنون . ترفع السماعة من جديد لتطلب النجدة ، ثم تتراجع يائسا : تشكو لمن ؟ وعن ماذا ؟ وتقرر بكل إرادتك.. تقرر الرحيل وأنت فى كامل صحوتك تقرر . لأنك لن تحتمل وقوع ضحايا جدد . وتفكر .. كيف .. سترحل والمنافذ الشرعية مقفلة أمامك بفرمان من الشبح ، وليس أمامك خيارات سوى التسلل من المنافذ البرية وتحاول الاختيار : الهمج على أبواب رفح ، فإن ذهبت إليهم .. بادلوك بجاسوس أو مهرب مخدرات .. لأنهم يكرهونـــك ويعرفون ماضيك وحاضرك والجسور بينك وبينهم مقطوعة ومهما كانت الأخطار هنـا .. فلن تبيع . والهمج ينتظرونك جنوبا لإقامة حد الردة عليك حتى لو استتابوك وتبت طلبا للنجاه وأنت

لن تذهب إليهم وتقايض حياتك بقناعاتك . ومن باب أولى أن تتنازل هنا وترتاح . لم يبق أمامك سوى الاتجاة غربا فتهرب من مدينة تحاصرك إلى مدينة محاصرة ، تستبدل موتا قائما بآخر محتمل مثلما قالوا عن النار والرمضاء . لقد قررت الرحيل إليهم ولم تحدد بعد : ماذا ستفعل هناك ؟، تلملم حاجاتك الضرورية فى حقيبة بسيطة : كتبك الهامة ، ملابسك ، أوراقك ، أصول روايتك الفريدة المزعجة . وتجلس لتودع كتبك ، ذكرياتك ، حوائط شقتك ، نوافذ الجيران ، تهاتف أصدقاءك المقربين : وأهم وأغلى وأحب من عرفت : الأرملة . تسمع صوتها الدافىء العذب فتهدأ ، ترتاح ، تطمئن . قلت لها أحبك .. وكنت صادقا . قلت لها أريدك الآن وكنت فى حاجة ماسة لصدرها الحنون ، تريح فوقه رأسك وكأنها أمك . قلت لها نتزوج الآن ونرحل معا إلى أرض الله الواسعة فتعللت بالأولاد .. وكانت على حق . قلت لها : أتركى ما بيدك وتعالى حالا لأنى أريدك .. ظمآن ظمأ التائة فى الفيافى الموحشة .. فسمعت ردها المتعقل لأنها تجهل هول ماتعانية : " ومستعجل قوى كده ليه ؟ بكره .. بعده .. ماكنت عندك من يومين وسيبتنى وقعدت تقرأ .. " . أنت تلح تتذلل وهى تسوق لك الأعذار والأسباب أنت مصمم وهى عاقلة تهددها متهورا : أنتظرينى .. أنا قادم إليك حالا . فسمعت صرختها الفزعة عبر التليفون : " أوعى يامجنون .. الولاد زمانهم جايين .. هيدبحوك ويدبحونى .. " . وحين لم تترك لها خيارا ، صدمتك بالسبب الحقيقى : " بقول لك إيه ؟ أصل الرايه مرفوعة

" فتلعن الأولاد والموانع وبوكس الترحيلات والبارات التى تغلق أبوابها فى منتصف الليل والمناسبات الدينية .. فتكتوى بنار الظمأ والحنين .. فتعلنها بالخبر مخففا بأنك راحل فجرا .. ولمدة قد تطول وأوصيتها على شقتك وكتبك ، فجنت وجاءت إليك طائرة كما هى : برايتها وشوقها . وتمارسان حبا مجنونا كالمراهقين .. أجساد عارية تتلاصق ولا تلتحم ، شراب لايؤدى لارتواء . جنون مابعده جنون . وتسمع صوتها المحذر وكأنه آت من مكان بعيد .. بعيد : " أوعى يامجنون .. أوعى .. لحسن تعيا وتموت .. طيب استنى .. أنا جايية معايا مانع .. ". لكنها وفى آخر مراحل الجنون ، نزعت المانع بنفسها وخضتما معا آخر المعارك.. وتغامر.. تهاتف أولادها.. تخبرهم أنها مع صديقة تعانى من المخاض وتقضى معك الليل ، تبكى على صدرها ، طوال الليل تبكى . وتسأل نفسك مؤنبا : كيف تغادر تاركا هذه الأرض العطشى الطيبة الوفية . ومع نسمات الصباح .. تقطعان الشوارع سيرا حتى باب المحطة .. متشابكى الأيدى . وتقبلها على الرصيف كالأجانب دون خشية . وتركب متردداً القطار : قطار الرحيل إلى المجهول . وكانت تبكى ، وكنت تبكى

-٣-

الفرار . الانسلاخ من دفء الجلد وحرارة الدماء إلى زمهرير العراء والعرى . القفز إلى المجهول . تفر الآن تاركا أشلاء ضحاياك

خلفك وحب الخريف : الأرملة . حبك الوحيد الحقيقى .. المرأة .. الوطن . ثريا كانت وهما ولكنك شغلت نفسك بها زمنا . وزوجتك العابرة كانت سوء اختيار .. فكرهت كتبك واهتماماتك ، لكن الأرملة .. أحبتك كما أنت .. بكتبك وهو سك وهلاوسك وشطحاتك وعزوفك عنها أحيانا . وهبتك عواطفها وجسدها وحنانها . وكان ينبغى أن تكيف نفسك لتكون محطتك الأخيرة . لكنك تخليت عنها وفررت تاركا مدينتك فى قبضة الأشباح والهمج . أيها الجبان المذعور من شبح قد لايكون له وجود سوى فى أوهامك . فأين دليلك أن الشاعر لم يبلبع حبوبا تفاعلت مع الكحول وأهلكته ؟ . وبأى دليل برئت الإهمال من حريق المطبعة ؟ ومن أدراك بأن صاحب المطبعة الثانية وقد قبل طبع روايتك الشائكة ، كان يرفض مايعرض عليه سعيا وراء الكسب ؟ . ألم تفكر للحظة بأن الذين قتلوا قناوى مجرد مجانين يصعب تحريضهم وتوجيهم ؟ . وعلبة البنزين تلك .. أليس من المرجح اعتبارها لعبة خسيسة من تفانين صاحب العقار لكى تترك له الشقة ؟ . وراويتك .. هذه ، هل تظنها من الأعمال الإبداعية رفيعة المستوى ؟ . ولم لا تعلل رفضها بسبب الركاكة ؟ . وقناوى هذا .. بطل روايتك .. هل يستحق التمجيد ؟ . ألم تسأل نفسك بموضوعية : كيف يكون من العدل ضرب البشر بالسوط فى نهايات القرن العشرين ؟ ، وشادى هذا هل تحريت عن مصادر تمويل مجلته ؟، أبدا ليست بيدك وثيقة واحدة دامغة وبنيت كل

استنتاجاتك على افتراضات واهية وخاطئة : أيها الجبان .. أنت جرذ .. مجرد جرذ .. يركض هربا من مواء قد يكون من ألاعيب طفل . وأنت تجرى تسمع المواء وتفر .. ولا قط . تتوجس فتبدل القطار بسيارة أجرة وتراوغ .. تتخيل أشباحا كأنهم تفرغوا لك . مع أنك ولا حاجة . القافلة تسير وأنت تعوى . وفى الطريق البرى ، من العامرية ، على امتداد الساحل الشمالى : القرى السياحية الجديدة تخرج لسانها لك .. وتقول : موتوا بغيظكم . ولما قالها الزعيم لهم .. ردوا عليه عمليا فمات هو غيظا .. انفجر . وهذه الفيلات الأنيقة فى قرى الساحل ، يصطاف فيها الذين أعطوا قناوى شهادات الورق وشرائط الدمور وأوسمة البرونز . وأخذوا هم الذهب والمجد. ومت أنت بغيظك . أكتب ، تشرد ، اصرخ ، اهتف ، ارفع لافتتك فى وجوههم : لاتصالح . لكن ولا حاجة .. طظ فيك .. تصالحوا وتزاوروا وربحوا من البزنس ويجلسون الآن ، على يمين الطريق فى فيلاتهم : بأرواب الكشمير يستجمون ويعيشون وأنت تفر خوفا وفشلا . ولوكنت منا ضلا بحق ، عد إليهم ، قاوم ، واصل تحديك لو كنت مقتنعا بأن ما حدث، حقائق لا لبس فيها . وأن أختيارك لهذا الطريق الوعر ، كان عن قناعة ولم تكن مجرد رافع شعارات ركب الموجة ، تقول كلاما وتؤمن بالعكس ، لأنك خرجت من رحم أمة تعشق القول لذاته . تنتبه فترى السيارة تجنح أمام نقطة مرور الضبعة لتفسح الطريق لمرسيدس شبح آخر موديل : الأشباح تطاردك

حتى فى ماركات السيارات . ويتزاحم العساكر والصولات لتحية ملك الصحراء وتفخيمة .. فينفحهم بسخاء فكادوا يسجدون له : هؤلاء الوثنيون . إله بدوى . ثرى . قوى . فمن يكون ؟ أهو ملك ملوك آبار النفط ؟ كل يوم يفتح بئرا جديدا فتضخ زيتا أسود يشوة الوجوة والمدن والذمم ؟ . من يكون ؟ . تسأل ؟ فهذا وجه جديد بين الوجوه المعروفة ، أم هـو تـاجر رقيق عصرى ممن كانوا يجلبون البشر من هنا .. إلى هناك تحت ستار العمالة ؟ هو بالتأكيد أحد الملوك الجدد وهم كثرة : فكل سيارة شبح وراءها ملك حقيقى .. يملك مساحة من الأرض والبشر والمصائر .. ويحكم . وإن لم يكن كذلك ، فلماذا احتجزوكم وأفسحوا له الطريق ؟ ، وترد على نفسك متهكماً : إنما هو أحد المردة الذين خرجوا بعد دعك خاتم سليمان . وتسمع بدويا خلفك يدعو له : الله يعطيه .. الله يبارك فى ماله .. الله يطول عمره . وتسأله : قريبك ياحاج ؟ فيرد متباهيا : " هادا قريبنا كلنا .. هادا ياخوى رحومة السنينى .. شيخنا وعمدتنا ونائبنا وحاكمنا .. وإيش نكون لولاه ؟ " تستغرب .. فتأتيك التفاصيل من آخر : " هادا أغنى واحد فى البلاد .. أغنى من السنوسية والجدافى* والمحافظ ، وأنا ديما نمشى لمجلسه ويحكى لنا عن المرحوم .. إيش اسمه هاداك لما كان ييجى للاستراحة يقول له : ولادك عاملين إيه يارحومه .. عاوز فلوس خد .. عاوز قروض

*الجدافى : القذافى .

خد .. افتح لهم مصانع ومشاريع .. بحبح عليهم يارحومة علشان الولد المجنون* مايلعبش بيهم ويقول الصحراء الشرقية وأولاد على .. أنتم مصريون يارحومة .. مش كدة .. طيب الولد المجنون دا عاوز إيه ؟ "
يسكت البوق فيتولى الأول استكمال المنشور الدعائى:هـــادا وين توا* .. عنده مصانع فى الإسكندرية وكفر الدوار ومزارع وأراضى فى الصحراء وفيلات فى الحمام والعامرية والضبعة وجراولة ومطروح وبرانى .. وزوجات بدويات ومصريات وشاميات وأولاد بلاعدد .. راجل عادل ، مؤمن مثل هاداك . سيدنا عمر بن الخطاب .. وتوا هادا .. ليش مايحكم .. والله مصر كلها تتشوق الخير لو هادا حكم .. " . وأنت تسأل نفسك متهكما : نعم ..لماذا لايحكم ؟ ، لقد جربنا كل أنواع الحكام من ملوك وباشوات وعسكر ، فلنجرب البدو سلالة الفاتحين ؟ لكن ثمة مشكلة ستواجهه وتواجهنا : ما الذى سيوزعة علينا بعد زوال عصر الفتوحات والأسلاب والفيء والغنائم ورؤوس الرقيق ؟، وإذا جاء عام الرمادة ..كيف سيوزع بالتساوى ؟ . لكن بدويا شابا من جيل الوعى والتمرد .. يعلو صوته زاعقا .. ويقذف حمما : " إيش الله يعطيه .. الله يعطيه .. هادا ما أعطاه أحد لكنه لص .. أكبر لص . هادا المهرب .. السمسار .. آكل حقوق البدو .. خارب البيوت الملون .. الانتهازى .. الذى أخذ من السنوسى والقذافى وناصر والسادات . هناك يقول نحن

---

*كان السادات يطلق هذا اللقلب على حاكم ليبيا .

* ويت توا : أين الآن

بدو وهنا يكذب .. وأخذ أصوات البدو بالشعير والقمح والتزوير .. هادا ملعون فى الدنيا والآخرة " . حمم .. براكين .. زلازل . ران صمت مترقب فى جوف السيارة الأجرة التى تقطع طريقا طويلا ضمن نفوذ ملك الصحراء والذى يتمنى البدو تنصيبه ملكا على مصر كلها . والشاب البركان .. يهدأ قليلا ، يتابع بصوت أقل حدة : أما نحن أولاد على وباقى قبائل الصحراء . فلسنا مع أحد ضد آخر ، ننتمى لمصر جغرافيا وسياسيا .. لكن عواطفنا وتقاليدنا .. ومشاعرنا.. تتشابك بطول الصحراء .. ولادخل لنا بالأسلاك والحواجز التى افتعلها الأتراك والطليان والأنجليز . نتنقل بين هنا وهناك بكامل حريتنا ، أغنامنا وجمالنا تتحرك على راحتها وراء الكلأ والماء .. وقد يهاجمنا الجفاف .. فنذهب إلى وادى النيل لنرتوى .. ثم نحن لريح الصحراء وسمومها .. فنعود . والجزء بغير الكل يضمر ، والكل بغير الجزء .. يتأكل .. ينكمش ، تلك هى المسأله وأى كلام آخر مزايدة وجنوح .

سكت المدفع – تاركا غبارا ودويا وإصابات . وسمعت بدويا غبيا يسأل جاره وهو يحشو ورق البفره .. بالدخان الأخضر :

- " إيش قال هادا ؟ " فيرد عليه زميله مندهشا حائرا :

- " والله ماندرى .. بالك بيرطن ؟ " .

- " كنّه* .. هادا مهبول ؟ " .

---

* كنّه : ماذا به

والمدفع صمت تماما .. لايضيف . لايفسر . لايعلق . زلزلها وسكت . وأنت فهمته . تربت على كتفة بود شديد وتشجيع : جميل .. جميل جدا .. رائع . فنظر إليك شاكرا . فتمتلىء ، تستعيد حيويتك . هذا الشاب الصحراوى .. شحنك وأعاد إليك ثقتك . لست وحدك أبدا وكتيبة الدفاع لاتتركز فى القاهرة : هنا فى قلب الصحراء .. ثورة تكتشف مقاتلا صلبا .. لايهاب عشيرته ويستل سيفه فى وجه أميرها الجبار .. وتفكر جادا فى دراسة موقفك .. لكنك لم تحسمها بعد ، تواصل فرارك مع أن موقعك هناك وليس فى أى مكان آخر ، ليس حنينا للأرملة وسهرات المستودع ومقاعد زهرة البستان المتهالكة : إنما .. هذا قدرك . والمعلومات الجديدة .. أفادتك ، فاسم رحومة السنينى ليس غريبا عليك ، بصماته هناك فوق هضبة السلوم منذ أكثر من ربع قرن . فإذا كان هذا ظل شبحك .. فكيف يكون الأصل ؟ الآن يمكنك إعادة صياغة روايتك على ضوء المعلومات الجديدة .. فتتوهج . قد يفنى جسدك لكن وثيقتك ستبقى . اكتب أيضا عن الهمج الذين تركتهم خلفك بلحاهم وجلاليبهم البيضاء وجنازيرهم ، قل عنهم الحقيقة ،أنت تعرفها . لك رؤية معينة عن المحنة : كانوا بشرا عاديين مثل قناوى . بينهم فقراء وفلاحون وعامة ودراويش .. ولديهم مثالهم الفلاحى العريق المتوارث : " تراعينى قيراط أراعيك قيراطين " . لكنهم أهملوهم . تركوهم لمفسرى النصوص الحالمين بالمجد الإسلامى الذى كان ..

فى الماضى . استفزهم الأشباح والأوباش وحلاب البقرة . وكانت الساحة خالية والتربة ممهدة : الهزائم والغلاء وشدة العوز . فلاذوا بالنصوص القديمة باحثين عن حل . هؤلاء الفقراء المتروكون المأزومون تصوروا أن النصر يأتى ، الخبير يعم ، العدل يسود حين يتمسكون بالنصوص القديمة بتفسيراتها المعدلة المشوهة : فضاعوا وضيعوا معهم المدن والبلاد ولطخوا الحاضر بالدماء وصار الغد مقلقا . وأنت يابلال كنت مؤهلا بثقافتك ووعيك فى مساعدتهم ، لكنك أنشغلت عنهم بحروبك الجانبية . شغلك الشبح فانشغلت به ، احسمها وعد ، قاوم حتى آخر رمق . والسيارة تقترب من مدينة مرسى مطروح ، كنت ماتزال .. مترددا وممزقا .

- ٤ -

مرسى مطروح ، جوهرة الصحراء ، لها غنت ليلى مراد : " ياساكنى مطروح .. جنيه فى بحركم .. النلس تيجى وتروح وأنا عاشقة حيكم " أجمل مدن الساحل الشمالى ومدينة ذكرياتك . محطة روميل بخندقه الاستراتيجى المحفور فى عمق الجبل . نفس الجنية تجذبك لتمر بها وتستريح فى طريقك لمنفاك المجهول . بها قضيت عامى تسعة وخمسين وستين : جنديا مستجدا ضمن قوة الألاى الرابع .

شتاؤها سكون مميت ، صيفها بهجة ونعمة . تسكعت فى شوارعها ، سبحت فى مياهها الصافية ، تمرغت فوق رمالها البيضاء الناعمة ، تعلمت الشرب فى باراتها هربا من قسوة حياة الجيش ، النوم وسط المجاميع فى عنابر طويلة . وقضاء الليل سهدا وأرقا من شخير النائمين وسخونة أنفاسهم ، المقاومة البائسة لحشرات مقيمة كالبق والناموس والبرغوث الطائر . التعامل اليومى مع عساكر قساة على الفطرة الخشنة ، المشاجرات اليومية حول أحواض الغسيل ودورات المياة وأطباق فته العدس ، التقزز من لعق الأصابع والطريقة الهمجية في تناول الطعام الساخن : يرمى البشارى بالملعقة رافضا : " يازول .. خبر مايجيب " والسودانى يغرز أصابعة الجاروفية في الطبق الساخن ويقول لك مشجعا : " يازل .. نعِّم وأبلع " . والصعيدى يقول بارك الله فى الخمسه . وأنت بملعتقك وتأنيك تقوم جائعا فيضحكون من تنعمك ويتندرون عليك : تأكل معهم .. تظلم ، تنعزل .. وحدك .. يغضبون : القطيع . حتى إنارة المصباح ليلا كانت مشكلة ، بين متمسك بأوامر تحدد ساعة النوم ، وساهر يقرأ خطابا للمرة العاشرة وعاشق للجندية يقضى نصف ليلة فى تلميع الحذاء وقايش الوسط وكى الأفرول بالنشاء . وبين حالم مثلك يقرأ كتابا يهرب به من الموت الكابس إلى الخيال الرحب ويحلق . وكل صباح .. يتشاجرون ويتعاتبون ويتقاضون عرفيا بعد وقوع السرقات الصغيرة للعهد الأميرية

المتشابهة بعد محو العلامات والأسماء:من خوذات وبطاطين وملابس . حتى حكايات ما قبل النوم فى أوقات خلو البال ، كانت تثير غثيانك ؛ « العسكرى فلان طرى وباين عليه كذا .. والعسكرى فلان ملزوق جنب الشاويش ، والمراسلة اللى عند الضابط الحليوة .. خلص وركبة سابت وقرب يموت " . وحكايات قبيحة عن غلمان المدينة وحميرها ونساء من الأخيلة والمزاح الجنسي المغلف بالعض وضرب المؤخرات والاحتكاك المتعمد والعادة السرية المنتشرة كالوباء . تلك الفترة العصيبة لا تفارق ذاكرتك ؛ الطوابير التكديرية السادية بسبب خطأ جندى واحد .. استنادا على مقولة تركية أو مملوكية : " الخير يخص .. والشر يعم " . أو " تتعبهم .. يريحوك " . والشر كان مقيما : كلمة عابرة ، نكتة سمجة ؛ إهمال فى الخدمة ، وقفة مائعة ، التواجد على البلاج بين أهل القمة والحظ . والشر يومى فى شهور الصيف ؛ العرى والجمال والمرح والحوريات النائمات على بطونهن يحتضن الرمال . والعساكر يهربون للفرجة ويأتون بذاد لأحلام ليل المحرومين . والقائد يقوم بدور الشرطى العسكرى ؛ يطارد جنوده فى الشوارع والبلاچات يقبض عليهم ، يحبسهم فى المعسكر ، ينهكهم بمزيد من الطوابير و " طلبه " النظافة ووقفات " الداخلية " والتتميم الليلى على الأسرة .. فلا يجدون منفذا غير السلك ، يتصبلون عنده طول الوقت للتفرج ومعاكسة البدويات العابرات على الطريق لأن المعسكر كان يحتل مفترقى طريق

السلوم والقصر على مشارف المدينة ، وعندما يقفون فى طوابير تدريبات الرشاش الخفيف ، ويشاهدون بدوية عابرة ، يأمر المعلم : أرقد .. عمر .. عند ماتكون جاهزا .. اضرب . يضغط العسكرى على كلمة عمر ، ينغم ، يرفع صوتة عاليا .. فتسرع البدوية هاربة ، تشكو للعمدة الذى يأتى شاكيا للقائد الذى يحتار ويبحث عن بديل لكلمة " عمر "* هذه التى تعنى النكاح فى لغة البدو ، فيجدها ويحرمكم من مسرتكم الوحيدة . فأصابكم الإحباط ولم تعودوا تتحمسون لطوابير الرشاش . كنتم تتلذذون من ذعر البدويات وتبحثون عن بدائل تفجر الضحكات من قلوبكم المتيبسة ، فتضحكون على الصول السودانى عطا المنان وأطلقتم عليه لقب " لخبيطة " لأنها كلمته الأثيرة دائما : " أنت لخباط وأنت بتلخبط وأنت ملخبط " . وعندما كان يقف فى طابور الهتاف المسائى بجملتها الطويلة الجديدة ، كان هو نفسة يتعثر ، يلخبط ، يبدل أماكن ترتيب العبارة ، ينطقها كل مرة بشكل مختلف : تحيا العربية المتحدة الجمهورية . تضحكون .فيغتاظ ويكدركم بعد الهتاف ويظل يلوك فى الكلام الفارغ لمدة ساعة . وكنت تتزعم الحملة ضده لأنه أهانك وأطلق عليك : " ود الحلبية " : لأن أمك شمالية وأبوك جنوبى . فتسخر من جهله وغبائة بدورك مع فارق الرتبة : فهو القائد الفعلى ومن أشهر صولات الحدود وأقدمهم وأكثرهم خبرة بالصحراء

---

* عمِّر بالكسرة : النكاح

الغربية منذ أيام الإنجليز ، وكانت خبرتة بالصحراء ودروبها تجعلة . مدللا . فيرد على هجومك بالضغط اليومى ، يخرجك من الصف فى طابور التمام الصباحى ، يعرضك على الجنود ساخرا : " بلال دا .. جابوا حته طين .. لكلكوه .. لكلكوه* .. بسرعة وعملوا له عينين وقالوا .. روح كون بلال " . لأنك لاتتأنق ، مهمل فى هندامك ، أفرولك مكرمش ، طاقيتك مدلدله ، حذاؤك مترب . لأن همومك كانت أكبر من هذة المظاهر وفوقها بمراحل . كنت تستغل وقت فراغك .. تقرأ .. تكتب .. تفكر ، وكنت تصطدم به دائما ، تهاجم هلوساته وغيبياته الجنوبية عن السحر والعمل والأحجبة وقراءة الفنجان ، حيث يلجأ إليه العساكر المأزومون والبدو فيعمل لهم أحجبة ويسترزق . وعندما سمح بسخريتك منه عن طريق الوشاة وعلم أنك مخترع اسم " لخبيطة " انتقم منك وسماك .. الشيوعى . تعال ياشيوعى . انتباه ياشيوعى . سريعا مارش ياشيوعى . وكان يهينك ، يدمرك نفسيا : يفتش تحت إبطيك وشعر عانتك ويبصق على الأرض : " أفو* .. عسكرى وسخ " . ولفت لقبك الجديد نظر الضابط السورى الذى كدروه ونقلوه من دمشق إلى القاهرة ثم كرموه ونفوة إلى مرسى مطروح ، فبدأ يقترب ويشملك برعايتة وحاول إنقاذك من تعنت لخبيطة وهمجيته ، فطلبك بالاسم لتقف كمراسلة على باب مكتبه . وعاملك بشكل راق وناقشك فى قراءاتك

---

* لكالكوه : كوروه *أفو : أف .

وأعطاك كتبا من عنده وكان يندهش ويستغرب من ظروفك ويعدك بالكثير .. كان يحترم الجميع ويعاملهم ، بطريقة مختلفة عما تعودوه ، يحدثكم عن أشياء كبيرة ، يدخل الميس والعنابر ، يمد جسرا بينه وبينكم . وكنت ترفع يدك وتسأله عن سوريا وعساكرها وناسها . وكان الصول لخبيطة يكرهه منذ سرق الأضواء منه واذداد كرهه لك لأن الضابط السورى يحميك : تجلس طوال النهار أمام مكتبة ولا تعمل شيئا . وأحيانا كان يفاجئكما داخل المكتب تتناقشان وتضحكان كالأصدقاء . فبدأ يشنع فى السر ويتقول عليكما بكلام قبيح سمج وكان الضابط يأمرك بالجلوس أثناء الحوار .. فتأبى : لأن الصول لو دخل ووجدك فى هذا الوضع ، سيضربك " زمبه " عند القائد تركى الأصل ، ولايرتاح من تقرب أى ضابط للجنود . ولما اطمأن إليك وعرف حدود ثقافتك وقناعاتك ونوعية قراءاتك من جوركى لديستوفيسكى لتليستوى لجوجول لهوجو وريشار درايت ، نبدأ يأخذك فى جولات خارج المعسكر وأعطاك كتاب رأس المال وكتاب عن لينين ومنشورات الحزب الشيوعى السورى .. لتقرأها فى السر وتخبئها بحيث لايصل إليها الجن الأزرق . فكنت تتسلل وتقرأ بعيدا وتضعها فى حفرة وبعناية بين الصخور . وقبل أن يمتحنك ويكلفك بمهام أكبر ؛ قبضوا عليه واستدعوك بعد أيام للمخابرات الحربية فى ضاحية روكسى ؛ وحبسوك فى قبو ضيق لمدة أسبوع . وكل صباح ومساء ؛ سين وجيم

.. ومحقق مختلف . وأنت فهمت المسألة وهيأت نفسك للمراوغة والإفلات من الكمين بكل خبراتك الحياتية ومخزونك الثقافى . ويسألك المحقق عن الضابط السورى وعلاقتك به ، فتستعبط : " أنا يا سعادة البيه .. كنت عسكرى مراسله .. أودى ورقة .. أجيب كباية شاى .. وبس .. ولما مرة أمرنى أغسل هدومه رفضت طبعا .. لأنى عسكرى متطوع لحمل السلاح وموش غسالة .. وإذا كان سعاتك تريد محاكمتى لهذا السبب فأنا مصمم على موقفى هذا ومتظلم وأطلب مكتب سيادة المشير " .. والمحقق كان يفاجأ بردودك الغريبة ، لأنهم تحروا عنك وسألوا عدوك الصول لخبيطة فلخبطهم ، ويبدو أنك كنت مؤلفا بالفطرة ، فتخترع لهم فى كل مرة أكاذيبا وحكايات لا أصل لها . فبدأوا يضغطون عليك ، يمنعون عنك الطعام ، يغرقون الأرض القبو بالماء لتظل طوال الليل واقفا ساهرا ويداعبون قفاك ويهددونك بالسجن الحربى لكى تضعف وتنهار وأنت صامد تناور ، تتثعلب، تذهب بهم للنهر وتعيدهم عطاشا . فيغيرون المعاملة ويستدعيك المحقق ويقدم لك شايا ساخنا وسيجارة : " بص بقى .. انس الميرى ، أقلع الطاقية ، اقعد على راحتك ، ولع سيجارتك وأعتبرنى أخوك .. أنا عاوز أساعدك علشان ترجع لأهلك ..بس عاوز أعرف .. هو الواد السورى دا .. كان بيكلفك بإيه ؟ " وأنت منتبه ولا يخدعك أسلوبه الناعم .. فتواصل استعباطك ، تتصنع الجدية وتقول له غاضبا : نعم ياأفندم

كان يكلفنى ويطالبنى بمهام ليست فى القانون فيعتدل ويدنو برأسه ويسألك : جميل جدا .. مثل ماذا ؟، نعم ياأفندم : كلفنى مرة بتسليم خطاب غرامى لبنت بنايوتى صاحب البار . ومرة طالبنى بتجهيز المزة للهباب الذى يشربه فأرفض لأنه حرام . ومرة طلب منى تدليك ظهره فرفضت لأنه عيب . ومرة ياأفندم سألنى عن النساء .. فكدت أشكوه للقائد .. فيقاطعك بعصبية قائلا فى غيظ : هذا كله كلام فارغ ولا يعنينا .. أدخل بنا فى الأهم . فتظل تخترع الأكاذيب ، لأنك تعرف جيدا ما يريد؛ تلك الأوراق المدسوسة بين الصخور ومدى تورطك مع الضابط السورى. وعندما يضيق بك، يستدعى الجلاد الذى يضرب تعظيم سلام ويسأل : أفندم ؟ فيشير إليك غاضبا : " ابن القحبة دا سايق فيها العبط .. خلُّوة يجرب المسائل ". فتجد نفسك معرضا لكل أنواع المسائل الهمجية .. فتغيظهم : لا تصرخ ولا تطلب الرحمة ، فيعيدونك للقبو ويتوعدونك بالمزيد ، فتقضى ليلك واقفا وتشحذ خيالك للحوار الجديد وتهيىء جسدك للانتهاك القادم . وعندما فشلوا فى كسرك ، أعادوك لوحدتك مع خطاب سرى وتوصية بحبس قشلاق طويل الأمد . وكانوافى الوحدة ، يراقبونك ، يشنون غارات تفتيش على فراشك ، مخلتك ، كتبك .. وكل نكتة أو كلمة تفلت منك تحاسب عليها . والصول لخبيطة كثف حملتة ضدك .. كلما وجدك تقرأ ، ينزع الكتاب من يدك ويدورك مكتب لرئيس الأركان ، محرضا : " تمام ياأفندم .. الزول لسة

مخة ضارب وبيقرأ فى الشيوعية " وكان الكتاب الأخير ، غلافه أحمر ، مرسوم عليه رجل بشارب كبير . فيضحك الضابط من بلاهة الصول وجهلة وعدوانيته ويقول له ساخرا : " ماتسيب الرجل فى حاله ياحضرة الصول .. دى رواية بين القصرين بتاعة نجيب محفوظ .. ودا مصرى موش روسى " . ومع ذلك ، لايكف عنك ، يقول للعساكر إنك كافر ، بلاملة ، لاتصلى ، ابن حليبة ، لا تحب العشرة لأنك دائما لوحدك . وأنت لاتتحزب ، تشجب الانتماءات القبلية والعرقية ، وترى الانسان من منظور مختلف : مساواة ووحدة مصير تتحداه بهذا الكلام فيتهمك بالخلط والهبل ويقولها فى وضوح دون خجل : " يعنى أنا شايقى وأهلنا عرب أشراف والزول كباد غردون .. جنوبى .. وكانوا عبيدنا .. وكنا ندق الواحد منهم من ودانه فى شجرة لمن يغلط وهالساعة مايقدر يرفع عينه عليا .. ياجماعة المسائل معروفة .. وكل واحد له أصل وفصل .. لكن الزول الشيوعى الحلبى دا .. دايرها سلطة .. وزمان قالوا : عدوك عدو دينك ونحنا مارحنا بعيد .. وبتشوفه المسأله عملى : ياشاويش كباد .. تعالى بالخطوة السريعة .. اسمع .. كدة قول ليهم .. أنت منو .. وأنا منو ؟ .. وأجدادك .. كانوا شنو ؟ " . وكباد يقف انتباه أمام الصول كالعسكرى المستجد . وأنت تتجاسر وتهاجم صولك ورئيسك والحاكم بأمرة ، تقول له متحديا : إذا كانت هذه نظرتكم لأهل البلاد .. فأنتم استعمار ينبغى له الجلاء .. ومثل هذا الكلام العنصرى

تقوله هناك فى الخرطوم .. لأنك الآن فى جيش مصر وكباد متساو معك فى الحقوق .... وسأنقل للقائد وجهة نظرك هذه للنظر فى أمرك . وأنت تعلم أن القائد لن يسمعك فالصول عطا المنان ، رغم شطحاته : خبرة ، جندى منضبط ، نادر .. ويكاد يكون من المؤسسين لسلاح الحدود من أيام مستر هتوين الإنجليزى . ومامن بعثة عسكرية إلا واستعانت به كدليل بلا بوصلة ولا خرائط ولا نجوم .. ومامن شركة بترول باحثة إلا ولجأت إليه ، ومامن قافله ضلت إلا وأعادها ، ومامن محافظ أو مأمور أو هاوى صيد إلا طلبه .. وهذا الكلام الذى يقوله كانت ظاهرة عامة متفشية ، فالصعايدة حزب الجعافرة حزب ، العبابده والبشارية حزب . وأهل المدن حزب ، والسودانيون حزب ينقسمون داخلهم إلى أحزاب صغيرة ، عرب ونوبين وجنوبين . وأنت تائه فى الزحام ، منقسم بين أهل أمك وأبيك وقناعاتك الخاصة . وأهل المدن يطلقون على غيرهم " البقر " والآخرون ينعون الغير ب " ناس زينب " . وأنت تسمو فوق هذا كله ، تختنق فتخرج لتتسمع أو تحتمى من الجنون ببارفوتى أو بنايوتى . لكن حبس القشلاق الطويل فرض عليك صحبتهم ليلا ونهارا وحرمك من زيارة العاصمة والتزود بالكتب الجديدة ورؤية ثريا وزملاء الدراسة ورفاق الحى . وثريا عذبتك ، أول حب فى حياتك : تعالت .. وكأنك كمال عبد الجواد وهى عايدة شداد . كانت جميلة ؛ أجمل بنات الحى وابنة صاحب البيت . وأمامك الوقت كله ولا تتحاوران ، حب أخرس من

طرفك ، فهى تعلو وتنجح وتتقدم وأنت تقرأ ، تتصعلك ، تتأخر .. وتنتظرها على الناصية : توصلها متابعا وحارسا من بعيد كالكلب الأمين . كانت أمنيتك الوحيدة الجلوس معها على كورنيش النيل أو حديقة النزهة . كنت تحلم ساهرا .. لكى تسمع صوتها منادية على أم بلال أو مقلدة عبد الحليم . تسمع صوتها .. فتطير ، تتمنى لو يعنى كل الرجال ولا يبقى فى الكون سواك . وتحلم بحقيبة نقود كبيرة تعثر عليها وتصير سيدا وطظ فى الشهادات . وتسرب إليها أحلاما بأنك ستتفوق يوما على العقاد وطه حسين وتصبح علماً . ثم تفيق من أحلام يقظتك وتحاول اللحاق بها ، فتذاكر ، تحفظ ، تدخل الامتحان وترسب - للغرابة - فى اللغة العربية التى تقرأ بها .. وفى مواد أخرى لاتطيقها؛ تلتهم روايتين فى اليوم وتزهق من سطرين فى الجبر والهندسة . وكانت تعلم كبواتك الدراسية فتشيح . بوجهها عنك . تنتظرها ولا تعبرك . لكنها تشعر بوجودك وحبك ، وربما بادلتك نوعا من إحساس غامض لم يتبلور . ولما قذفت بك ظروف أسرتك متطوعا فى حرس الحدود .. ونزلت أجازتك الأولى بالبدلة الميرى والحذاء الضخم ، وانتظرتها كعادتك لتحصل على بسمة تقاوم بها أيامك وعذاباتك ، ضنت عليك حتى بانفراجة الشفتين ، فأدركت أنها ضاعت منك للأبد ؛ أيامها ، كان الضابط فوق وفتى أحلام نساء المدينة من عذارى ومتزوجات . والجندى تحت لاتحلم به سوى بائعات الفجل والجرجير فتعود لوحدتك

محبطا ، تقرأ ، تحلم ، تقرر حذفها من مشاعرك ، لكن ماتكاد أجازتك تهل ، حتى تسرع بالنزول وتذهب للمكان ذاته ، تقف بالساعات وقلبك يدق . وتمر أمامك ، تتمنى لو يطاوعك لسانك فتنطق ، تقول شيئا تحسم به هذاالعذاب .. ولا تقدر فتقف وتواجهك بغضب محبب : " وبعدين .. عيب كده " أو " أرجع بقى " أو " أنت عاوز منى إيه ؟ " . أو تهددك : " أسمع بقى .. أنت ذوتها خالص .. أنا مضطرة أشتكيك لأم بلال .. " . كان من حقها التطلع لأفضل الرجال وليس للهامش .. فبضاعتك كتب قرأتها . ومستقبلك غامض . ولا توجد فتاة فى المدينة حصلت على الأعدادية تحلم بشبه أمي يدخل عليها بالحذاء الميرى : لم تكن ثريا لك أبدا . وبعد عام حبس القشلاق الطويل ، نزلت ملهوفا مشتاقا فأستقبلتك أمك مبشرة : " فرح ثريا كان إمبارح " . وقالت أيضا : " سألتنى عليك كتير وقالت عنك ابن حلال بس ما لوش حظ " وأضافت متفاخرة : " خدها ظابط قريبها .. إنما إيه .. قمر .. كانت زى بنتى تمام .. وأنا رقصت رقص .. " . تصور .. أمك كانت ترقص فوق جثتك .. والضباط وراك حتى فى الحب . ونزلت يومها كالمجنون إلى شارع عماد الدين وشربت مثلما يفعل أبطال الأفلام " السكة " . وصوت أمك يملأ مساحة الدنيا : " سالتنى عنك كتير ." .. يارب هذا الكون ، لقد سألت عنك وأمك رقصت . ولبثت أياما تشرب وتحوم حول مسكنها من بعيد . حتى رأيتها مرة مع ضابطها الحليوة يسيران فى تواؤم

ويضحكان فى ,سعادة . قررت بعدها مقاطعة القاهرة ولا تأتى إلا قليلا لزيارة أمك وأنكفأت على نفسك . وأحيانا .. تزور خلوتك .. تنبش التراب وتعيد قراءة كتاب رأس المال ومنشورات الحزب الشيوعى السورى ، تقرأ وتحلم بثورة الجنود والعرفاء المهمشين لمحو الخلل وإعادة التوازن . أو تحلم بمجد عظيم لكى تشتهر فتسمع عنك وتندم ؛ كأن تقوم الحرب المتوقعة ، تخوضها وتقوم بعمل مجيد لا نظير له ، فتتحدث عنك الصحف وتلتقى بالرئيس ويتم ترقيتك إلى رتبة اللواء فتأتى بزوجها تحت رئاستك وتشكل عليه . مع أنك تعلم بأن الجندى مهما حارب واستبسل حتى لو " جاب الديب من ديله " لاينال سوى شريطين من الدمور . وكلما انجز عملا بطوليا يضيفون له شريطا آخر ثم يقف محلك سر عند رتبة الصول . وإذا تقدم به العمر ، يرقونة إلى رتبه الملازم ثان شرف ويسمونه ضابط جرابندية . وكنت تحلم أيضا بكتابة رواية عظيمة مثل البؤساء والحرب والسلام والأخوة كرمازوف وبين مدينتين أو حتى ذهب مع الريح .. فتشتهر وتربح نقودا .. وتقول لها : هاأنا ذا . مع أنه لم يحدث أبدا أن واتت الشهرة كاتبا عربيا بسبب رواية أو كسب نقودا من عدة رويات . ولما دخل كل الذين قرأوا كتاب رأس المال السجون ، بدأت تحلم بمعجزة من السماء تبدل أحوالك وتصير شيئا ، لكن المعجزة تأخرت ولا بشائر بإمكانية حدوثها مستقبلا . فانفصلت عن السماء ووقعت على الأرض بكل

تضاريسها ووعورتها وهمجيتها . فهجرت كتبك وأحلامك وصرت ترافق العساكر السودانيين فى جولاتهم الليلية المنفلتة ، تذهب معهم إلى العزبة وتشرب المريسية " والهوب هوب " . وتأنف من مضاجعة المرأة السوداء صاحبة الدار وصانعة هذه المشروبات المميتة التى تمزق الكبد . كنت تنتحر . وأحيانا كانوا يشربون حتى الثمالة ويقومون بغارات على حمير السوق فى ظلمة الليل ، يحلونها ويركبونها حتى قرب المعسكر . وبعضهم كان يواصل الركوب : يربط أرجل الأتان بمنديل ويضع حجرا خلفها ويطأها .. ويطلبون منك التجريب ، فيقشعر بدنك وتبتعد . ويأتى البدو الباحثون عن حميرهم المفقودة فيعثرون عليها ويشتكون للقائد بالدليل : المناديل الميرى . فيقف فى طابور الصباح زاعقا : " حمير ياغجر ؟ .. وأنا إيه ؟ قائد حمير ؟ سفخص عليكم " . وكان الصول يهمس للقائد بأن هذا من أفعال الصعايدة ، مدافعا عن أقاربه .. مع أنها كانت حالة وبائية بين المحرومين فى الليالى الباردة الكئيبة وصحراء ندرة النساء وتزمت التقاليد . وكانت ثمة نكته بأن الحمير عندما تمر بجوار المعسكر ، تعمل لليمين أنظر وتنهق .. تحيى عشاقها . وكنت تتنقل بكامل حريتك بين أحزاب المعسكر ، لكن السودانيين كانوا يحبونك ويطلقون عليك " زول الجن " أو " ود القبيلة " لأنك الوحيد الذى يقف فى وجة الصول الشايقى العنصرى . وكانت أول محاولاتك مع المرأة التى فى العزبة : ورأيت

أمامك جاموسة سوداء راقدة بشكل همجى ، وأنت واقف مرتبك لا تتحرك ولا يتحرك فيك شيء . فتقول لك . هيا .. وتتساءل مستغربة : " كنّك " . وأنت تقارن بين المثال والواقع .. بينها وبين ثريا . فتراجعت مشمئزا لأنك لم تجد فرقا كبيرا بينها وبين حمير الحفر . ومع أنك وهبتها أجرا مضاعفا ، فضحتك وقالت لهم : " إيش هادا وحياة سيدى إدريس إنه مربوط " . وكانت تحلف دائما بالسنوسية وملكهم . ويقولون أنها كانت جارية عندهم وعتقوها . ومشيت تلك الليلة تشعر ببشاعة الحياة وعبثيتها ، انحطاطها . وشربت عند فوتى لتنسى الجاموسة وتحاول العودة لكتبك وإنقاذ نفسك ، ولكنك تتأزم فتنحدر ، يشدك القاع بحكم الواقع والبيئة ، وكان هذا القاع يتبدى أحيانا بشكله المخيف : تقوم منتصف الليل فزعا على أصوات معركة همجية بالشلاليت والبوانى والبصق وأحزمة الوسط . وشتائم منحطة من النوع الثقيل : لأن سكيرا همجيا جاء يتخبط بين الأسرة وأختار جنديا مستجدا ، أندس معه فى الفراش .. محاولا غزوه دون تمهيد سابق ، أنسياقا وراء الشائعات، لكن الكارثة يتم دائما أحتواؤها داخل العنبر : تتدخل الأحزاب ويعقدون حق عرب ينتهى بالغرامة والاعتذار وتقبيل الرءوس : إذا كان المعتدى عليه من أهل المدن ولا ظهر له . لكن المسألة تأخذ أبعاد أكبر ومعارك ثأرية خارج المعسكر ، لومست

كنّك : ماذا بك

الحكاية مناطق الجنوب . وقد تنتقل القصة عن طريق الوشاة للقائد فيصدر أوامرة للصول بالتكدير الجماعى وبلا رحمة .. طوابير .. طوابير حتى يجف الماء من أجسادكم بفعل الحرارة . ويقف الصول أمامكم يحدثكم عن الأخلاق والدين : من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع .. فعليه بالصوم . يقول هذا الكلام مع أن العسكرى الذى يخدمة ولد طرى ، خسيس : يغسل له ملابسه الداخلية ، يجلس معه متجملا ، يدعك له قدمية بالماء الدافىء ينش عن وجهه . الذباب فلقبوه " بمرات الصول " . والذى يؤكد الشائعات ، عدم مبارحة الصول للمعسكر إلا نادرا ولا يسافر لزوجه فى السودان . وكنتم تقاطعون هذا الولد ولا تعاملونة كرجل . ومرة رأيتة متكحلا بحجة وجع العينين فتفلت عليه فشكاك للصول الذى اضطهدك ومرر حياتك وصعّد حملتة ضدك ويكلفك بأحط الأعمال إيلاما للنفس . ويتمم عليك فى السرير ليلا ويمر عليك فى الخدمة ، هابطا برتبته لمستوى حكمدار الخدمة والرقيب النوبتجى : مسجلا عليك أتفة الملاحظات ، يدورك مكتب بسببها .. ويجازيك . فبدأت أفكارك تهبط .. تفكر فى النيل منه مثل الهمج . وذات ليلة وأنت تقف فى الخدمة ، بعد منتصف الليل ، شبة نعسان من نسمات الهواء التى يرسلها البحر ، حاول سرقة بندقيتك ، فتنبهت فى آخر لحظة وجننت ، سحبت الترباس بسرعة .. فهرب من أمامك مستنجدا : حرس سلاح .. حرس سلاح ، هو يجرى وأنت خلفة

حتى ضاع أثرة منك ، والبروجى ضرب " صحيان " والخدمات الأخرى زعقت : حرس سلاح .. وأنت فعلت مثلهم وعدت لموقعك مستعدا لملاقاة العدو المحتمل . وفى هذا الوضع القانونى وجدك الشهود . ولما سألوك فى مجلس التحقيق : قلت لهم إن الصول بالتأكيد كانت مؤخرته عارية وكان يحلم . ولم يكن ثمة شهود فاكتفوا بنقلك إلى الجبهة فى سيناء عقابا لك ، فالتقيت هناك بقناوى لأول مرة . تلك الذكريات مر عليها أكثر من ثلاثين عاما . وأنت ماتزال فى مطروح .. محطتك قبل الأخيرة . التردد يمزقك . تشرب شايا فى مقهى جالون ، تفكر وتقطع شارع إسكندرية بطوله متسكعا حتى صرت قريبا من النجع القديم . وعلى الطرف الجنوبى من النجع ، فوق أعلى ربوة ، كان ثمة بيت معزول .. سكنتة بدوية اسمها مسعودة .. يذهب إليها العساكر أول الشهر بالطابور والحجز . وكانت هذه واحدة من تجاربك بعد الجاموسة . فى المرة الأولى ، تراجعت قبل الزيارة فى المرة الثانية ، دفعت لها الفيزة دون مقابل ، فسألتك حائرة : " إيش بيك " . وأنت مرتبك وحائر ، تتخيل العسكرى الذى كان قبلك والذى ينتظر بعدك ولا ترد ، ففهمتك وضربت لك موعدا خاصا فى ساعة معينة .. وردت إليك نقودك قائلة : " أراجيك غدوة .. لوحدك ونشوف إيش حكايتك " . فأعدت المحاولة ولديك رغبة ملحة لحسم هذا الموقف المؤلم ،

أراجيك غدوة انتظرك باكر

فوجدتها غير من كانت : ملابس شفافة ، شعر منسدل ، رائحة طيبة ، أسنان لامعة . وتركت المسائل تسير بشكلها الطبيعى ولا تتعجل ؛ تتسامران كبشر أسوياء ، تنقلتما من الأرض للكنبة للسرير تدريجيا ، نمتما كالعشاق والأزواج . وكانت أول تجربة ناجحة فى حياتك حفرتها ذاكرتك . وكانت ترتب لك موعدا خاصا فى غير أوقات الذروة وتسميك العاشق المجنون . لكنك انقطعت عنها حين أصيب أحد العساكر بمرض سرى من الجاموسة السوداء . ومررت على أماكن كثيرة حتى وصلت إلى بار فوتى . ووجدت قلة فوق مقاعد متفرقة وغرفة كبار الضيوف مغلقة ؛ ليبيان وضابط سودانى متقاعد مكث هنا بعد زواجه ببدوية وعمدة مدينة من مدن الصحراء وبعض سكان المدينة الأثرياء . وعرفك بدوى وحياك بزجاجة بيرة وقال عنك كلاما طيبا أراحك وجمّل صورتك : " هادا والله كان عطيب .. لكن بالحق .. رجال : زمان .. مسكنى عند السلك وسألنى البضاعة هادى لك ؟ قلت له ياوليدى حالتنا عطيبة* وعندى صغار وهادا رزقهم . والبضاعة بالدين .. وماعندى لازرع ولاغنم .. خدلك تفتوفة* وخلينى يرحم والديك . لكنه لا أخد التفتوفة ولا البضاعة ، قال لى : روح يابدوى .. مربوحة .. الله يسهل

---

*عطيب : صعب

*عطيبة : بائسه

*تفتوفه : رشوة

لك .. وين هادول .. الله يرحم أيام زمان .. " . وأنت لا تتذكر الواقعة ولا الرجل من كثرة ماساعدت مخترقا القوانين ونظرة قناوى الأحادية للأمور والتى لم تفرق بين فقراء الهضبة وصبيان التجار . ولفت حديث البدوى انتباة الضباط السودانى فتبادلتما الكئوس واتحدتما فى مائدة واحدة . وسألك عن وحدتك السابقة وعملك الحالى .. وعرفك : " أيوه .. أنت زول الجن بتاع البروجى " فضحكت لأن اسم عطا المنان الشايقى ضاع ؛ أنت أسميته لخبيطة وهم نادوة بالبروجى : لأنه تطوع فى سلاح الحدود برتبة نصف عسكرى بروجى . وأنتما معا تضحكان وتتذكران نوادره ونوادر الحدود حتى وصلت بكما الحكايات للداهية حمد البخيت الذى حكم الهضبة وأثرى وفر بالغنيمة . فيقول عنه ماتجهل : هو الآن من أعيان الخرطوم ورئيس حزب دينى ويشارك بأعوانه فى الحكم وصار رجلا مبروكا يفتى فى الدين والسياسة ومن عتاة المنادين بتطبيق الشريعة الإسلامية وتطبيق الحدود ، سبحان مغير الأحوال . وعندما كان هنا ، لم يترك ماخورا فى الإسكندرية إلا ودخله ، ولا غلاما إلا وخدشه ولا حمارة إلا ووطئها . دنيا . ربك لما يريد .. يهدى . وقد فكرت مرة فى العودة إلى السودان لكى أدفن فى أرض أجدادى وتراجعت عندما سمعت عن حكاية تطبيق الحدود . قلت معقول آخر العمر يجلدوك من أجل زجاجة عرقى . ياأخى النميرى عملها وكان ماكان .. الله يحجازيه .. يافوتى اتنين دوبل .

ويدخل بدوى فى زفة من الأتباع .. متجهين للغرفة الخاصة ، نفس الرجل صاحب الشبح عند نقطة الضبعة . وهو أيضا الذى شارك فى وقائع الهضبة منذ ربع قرن أو يزيد ، رحومة السنينى. ويتناقل الزبائن اسمه .. رحومة بك .. رحومة باشا .. رحومة .. رحومة . فتشعر بالقرف والضيق وتغادر المكان فورا . أثرياء فى الصحراء والخرطوم وأشباح فى القاهرة . وأنت مشرد مطارد . وتسأل نفسك عن العلاقة بين كل هذه الشخصيات والمسائل وتوجع رأسك ولا تجد إجابات . فتركب سيارة بيجو أجرة بالنفر فى طريقك لمنفاك المجهول دون حسم نهائى لموقفك .

- ٥ -

قبل بوابة السلوم الشرقية بعدة كليلو مترات ، تبادل سائقوا السيارات الأجرة الإشارات الضوئية والمعلومات .. " إيش فى مغرِّب .. وإيش فى مشرِّق .. وإيش أخبار المرور ؟ " . ويحيطكم السائق علما بالموقف : المدينة مغلقة والتفتيش دقيق ، فالذى ليس معه أوراق أو " هيكى ولا هيكى " .. فلينزل ويكمل باقى المسافة سيرا حتى لا يتعرض لوجع الرأس . وحدك تغادر السيارة بحقيبتك . وحدك فى ليل

مغرِّب : غربا

مشرِّق : شرقا .

الصحراء والوحشة والتبدد. وحدك المطارد ، مع أنك لا رفعت السلاح ولا بعت وطنك فى سوق المزايدين ولا حلبت مع الحالبين . تتخبط وسط الحفر والمطبات والليل المعادى المقيم الطويل . ظلام بلا نهاية . والكلاب تنبح ، تتحاشاها ، تلف حول المدينة من بعيد وتجلس تحت بطن الجبل كالمتشردين وقطاع الطريق . تترقب حمارا أو مهربا لترافقة بالأجر ويعبر بك للمدينة الأخرى . ومع أنك ملم بهذه المنطقة ، وتعرف مسالكها ، إلا أنك تجهل التغيرات التى جدت خلال السنوات الماضية . فلا بد من معلومات أو مرشد . تنتظر وحدك مع الليل ، الغربة ، التمزق ، التردد ، الحيرة ، تحت الجبل تجلس والليل ضاغط ، مخيف ، لن تقطعة بالنوم . والنجوم لاتبارح السماء . والشمس لن تشرق . والمدينة لاتستطيع دخولها . والنوم أمل بعيد المنال . تجوس بعينيك فى الظلام ولا ترى . والكلاب تنبح ولا تدنو حتى فى قلب مدينتك وفى فراشك كنت تسمع هذا النباح المستفز . وكالحالم ترى شبحا يقترب . تنتبه . تركز . تستعد . تنتفض خوفا .. تظنة ذئبا أو ضبعا أو كلبا مسعورا . فى صمت مريب يقترب . تمسك حجرا ، تستعد ببطارية الطوارىء ولا تضيئها حتى لا ينكشف موقعك . ليس معك مسدس أو خنجر تدافع به عن نفسك . أعزل . مطارد . مرعوب . والثوانى تمر بطيئة . مدمرة . وتفكيرك أصابه الشلل . فتجمدت : لاحجرا قذفت ، ولا بطارية أضأت ، ولا فرارا شرعت فية . ولا صرخة استنجاد خرجت من

حلقك . صرت حجرا كالحجارة التى تغز مؤخرتك ، ولا حتى تشهدت . والشبح صار على بعد خطوات منك وأقعى ، فتتنفس وتستعيد روحك التى كادت تفر .. ثم يقوم ويقف بجوارك تماما ، يهز ذيلة فتمد يدك حذرا ، تداعبه .. فينام فى مواجهتك مطمئنا ويطمئنك . هذا الكلب الجربان المتشرد هو أنيسك وجليسك ومنقذك من الوحدة والخوف والقلق (وعوى الذئب فأستأنست بالذئب إذ عوى . وصوت إنسان فكدت اطير) . فياله من بيت شعر وياله من شاعر ، وكأنه أحس بك منذ مئات السنين فترك لك هذا الكلام البديع المعبر عن حالتك . فتشعر بالسعادة فتجود ، تطعمه من ذاد الطريق لتغرية بالبقاء ، فيأكل ويهز ذيلة ممتنا مع أنك مدين له بحياتك فى هذه الليلة الحالكة ، وفى صحبته وحراسته تغفو قليلا وتصحو مع أذان الفجر . فلا تجدة : هذا الخائن أكل طعامك وتخلى عنك لكنك تمتعت بالنوم متوهما أنه يحرسك . وبدأت مع بشائر الصباح تفكر فى المرحلة التالية ، تقيس المسافة من هنا إلى مساعد ثم درنة ثم طبرق . كم يوما ستقطعه مشيا حتى تصل إن كان ثمة وصول ؟ وماذا بعد الوصول ؟ ماذا ستفعل هناك وأنت فى خريف العمر ؟ الأعمال الشاقة وهمجية بدو النفط ، أم تعلن عن نفسك وتبيع ؟ لكنهم محاصرون هذه الأيام ولا يشترون بعد أن أوصلتهم الشعارات والتصرفات العنترية للمأزق والطريق المسدود . وأنت نفسك لا تبيع : ولو كنت كذلك لبقيت فى مدينتك تكتب كلاما للمشترين

. صحيح .. ماذا ستفعل هناك ؟ .. والأغراب مستهدفون ؟ . ماذا لو أعادوك للشبح وقايضوك بمعارض ؟ فعلوا هذا من قبل مع آخرين واختطفوا رجلهم من قلب مدينتك . وشبحك ليس سهلا .. هذا مقابل ذاك ، فتتحول من موقف إلى سلعة . والفجر يدخل ببطء شديد حتى الكلب الجربان هجرك ، هذا الخائن أبدا ليس من فصيلة الكلاب .. بالتأكيد رضع من ثدى ذئبة أو أمة كانت تضاجع الذئاب . وأنت وحدك تهرب من سموم البار لسموم ريح الصحراء . ومن حريق المطبعة لحريق الغربة ، ومن شبح واحد خفى لمئات الأشباح على جانبى الحدود . وتحلم بكوب شاى تبل به ريقك وكوب ماء تغسل به وجهك بعد أن قضيت حاجتك فى العراء . وتظل تنظر للسماء ، تتابع النجوم وهى تتلاشى وتنظر للأفق وترى نور الصباح فتفرح كالأطفال وتكاد ترقص بعد نجاتك من محنة الليل . وتشاهد بدويا بيسعى نحوك يصحبه كلب : فيالك من موسوس ظالم ، هو نفس الكلب الأصيل : لم ينس طعامك فجاء بمن ينقذك .. فتتقدم نحوه ، تربت على جلده الجربان بامتنان ، رغم جهلك بهوية القادم : فقد يكون شرطيا سريا أو عميلا للشرطة . لكنه يجلس بجوارك فى حالة تفاوض ومساومة ..

- **" خير ياسيدى "** .

- **" خير .. أهلا وسهلا "** .

- **" مغرِّب ولا مشرِّق "** .

- **" مغرِّب "** .

- **" وإن شاء الله .. مافيش هيكى وللا هيكى "** .

فتطمئنه بانك باحث عن عمل وليس معك أوراق تجيز لك الخروج من البوابة الرسمية .. فتتفقان على الأجر ويطالبك بالتروى والانتظار يوما أو يومين حتى تهدأ الأمور لأن " العبِّدة شادين" فتشرح له المشكلة ، بأنك لست متشردا حتى تقضى هذه الأيام فى العراء والفندق لن يقبل إيواءك بدون أوراق وخير البر عاجله . لكنه يعتذر بصعوبة الموقف ، ولن يغامر بحميره العزيزة مهما كان المبلغ المدفوع .. ويقترح عليك فندق الفقراء : حوش مبروكة الذى فى آخر النجع ويقودك إليه بعيدا عن العيون ، فندق عجيب يبدو كساحات السجون ولا رواد غيرك : أبراش وألحفة وبطاطين سوداء ، سجن ترحيلات مفتوح وبدوية فى خريف العمر وبقايا جمال . وأنت حالة فريدة عابرة بحقيبتك وملابسك ، والمرأة الذكية اكتشفت موقفك ، فقالت تطمئنك : " الدار أمان . تشرب شاى عربى ولا مصرى ؟ " توافق على العربى وتجلس مستندا بظهرك للحائط ومبروكة – تنشط ، تأتى بعدة الشاى وتتربع أمامك .. تغنى " شاهى بالنعناعى اللى ماخلى للراس وجاع " وتبدأ بكوب الشاى الخفيف ثم تعوم بطقوس الشاى الأسود الثقيل ، ترفع الأبريق لأعلى مثل بائع . العرقسوس ، وتعيد

العبِّده أو العبد : لقب يطلقه البدو على عساكر الحدود

العملية مرات حتى يمتلئ الكوب بالرغاوى البيضاء . فتشرب بصعوبة وامتعاض وتختلس إليها النظر ، فى الخريف مثلك ، محناة الشعر واليدين ، قوية ، عفية ، كحلاء تفوح منها رائحة " البارزتا " الإيطالية الزاعقة ، متعبة ومثقلة مثلك ، التجاعيد وآثار السنين . تدردش معك فتغفو متوسدا حقيبتك . تقوم فزعا بعد لحظات قصيرة فتسألك : " ليش كنت تهدز وأنت نايم ؟ " . الكوابيس ، الشبح ، الخوف من المداهمة ، التهم الملفقة . وتسألك : " إيش تاكل ؟ " . فتعطيها نقودا بلا حساب لتأتى بما تريد وذادا للطريق المجهول . فتطهولك طعاما حضريا سريعا تقدمة فوق صنية عربية ، فتحلف عليها لتأكل معك . وتقول لها منبها ومحذرا : " اللى يخون العيش والملح بيروح النار ياست مبروكة " . فترد عليك معاتبة : " نحنا بدو والكلام هادا مايصير عندنا " . وأنت تعلم هذا عن سكان الصحراء الغربية : تركيبة خاصة مسالمة مثل أهل النوبة والعبابدة .. ويختلفون تماما عن بدو صحراء سيناء ، وكان هذا يحيرك : عدوانية وشراسة هناك ووداعة ومسالمة هنا .. كيف ؟ هل هى بطون عربية مختلفة ؟، وكنت تفسر ماحدث لك قديما مع الغلام كمجرد بثور مرضية عابرة . ثم مع قناوى بعد ذلك من البنت مبروكة . ويستوقفك الاسم .. وتكاد تسأل مبروكة هذه عن أصل الموضوع القديم ثم تسكت حتى لا تتعقد الأمور وتبررها بتشابة الأسماء وشيوعة اسمها بين نساء البدو . ويأتى الحمار ، يطالبك

بالتريث لأن الهضبة مازالت ساخنة . ويسألك : «تريد رفاقه ؟ » فلا توافق أو تمانع وتترك المسألة للظروف : لأن رحلة طويلة كهذه يهونها أنيس ، لكنك تكره الانضمام لقطيع من البشر المجهولين . ويهل عليك ليل كئيب ، تفكر فتشعر بالحبس وقسوة الانتظار . تدخن طوال الوقت .. تفكر فى التراجع . وتطل عليك مبروكة بين وقت وآخر : " تريد شىء .. تريد شاهى ؟ " . وتشرب شايا وراء شاى حتى صار اسمة يثيرك . فتسحب الزجاجة الوحيدة المدخرة للطريق وتشرب وتسمعها تغنى للهباب " الذى بالنعناع . وتسمع دبات أقدامها ترج أرضية الحوش . لا تهدأ . لاتنام . مرة تأتيك ببطانية نظيفة ومرة براديو ليؤنسك ، ومرة لتسألك : " تريد شىء ؟ " . مخلوقان وحيدان فى صحراء الوحشة والأفول . ورائحة " البارزتا " تصدمك مثل الشاى الأسود الثقيل . فيفلت لسانك وتسألها عن نوع هذا العطر الجميل ؟ . تغيب عنك فترة ، ثم تعود بطبق فاكهة من طيبات المدينة المجاورة : تفاح أمريكانى وموز مستورد . وتفاجأ بها قد تبدلت ، لم تعد مبروكة ذات الملابس القاتمة البدوية . والبارزتا تلاشت ، غطت عليها رائحة صابون كاميه وجلست بجوارك تقشر الفواكة بعناية وتقدمها لك بأمومة وسخاء ، فتشعر ببوادر مغامرة عبثية كأنك تشاهد تفتح وردة بين المقابر ، وتسأل

---

*البارزتا : نوع من العطور الزاعقة .

نفسك : هل لديك استعداد للتواصل ؟ وهل يمكن إشتهاؤها ؟ وهل هذا آوان الحب ؟ وأنت فى مأزقك الحرج ، ضاعت منك ملامح الأنثى كنت فاقدا التوازن والإحساس بالمتعة . وسألتـــك وهى تلملم قشر الـه. . . " الليل طويل بدك تأكل ؟ " .. قلت " بدى " . تجاعيد الوجه ، ترش الأثداء ، الأسنان الصدئة . تشرب وتدس الزجاجة تحت البطانية تسرح مابين القاهرة والصحراء .. مقبرتك القادمة : الجوع ، العطش ، البنادق . لكن .. لماذا ؟، وجاءت بالطعام ، تربعت ، شاركتك هذه المرة دون دعوة . وكلما تحركت ، انحسر قميصها حتى تجاوز . الركبتين بمراحل ، فرأيت سيقانا كالحليب بياضا لم تؤثر فيها لفحات الشمس ، وحين أتت بالأبريق والطشت لتغسل يديك ، وانحنت لتصب الماء : رايت بطنا عارية عرياً متعمدا .. وأنفاسها كاللهب . وأنت حائر فى أمرها وأمرك .. وكأنك تحلم ، ليلة تحت بطن الجبل مع كلب أجرب وليلة مع امرأة ، فهل تتخيل شيئا ليس له وجود ؟ .. لكنها تسألك لتقنين مشروعية وجودها معك بعد انتهاء حفل العشاء :

- **" إيش اسمك ؟ " .**

- **بلال ..**

- **" وليش مغرّب ؟ " .**

- **قدر ونصيب .**

- **وعندك أوراق ؟**

- طبعا ..

- " **وليش ماعديت من البوابة ؟** " .

- " **هيكى..** " .

تضحك لأنك ترد بالبدوى وتسألك .

- " **بالحق .. ليش ؟** "

- **الحكومة ،**

- " **إيش درت** " .

- **قتلت قناوى .**

- " **وهادا من الحكومة ؟** " .

- **من الشعب .**

- **ستار يارب .**

تبتعد عنك قليلا ، وتلمح الرعب البادى على قسمات الوجه ، تبتسم ، فتفهم مدى عبثك ومزاحك .. تطمئن وتضربك برفق على فخذك ، تقول معاتبة : " وحق الله . خوفتنى " ويدها مازالت ساكنة ، دافئة ، حيث استقرت ، فتشعر بالصحوة والانتباه . تلاقت الأنظار فى لحظة خاطفة وتم التعارف ، وضعت يدك فوق يدها ولبثتما صامتين . لا احد منكما يبادر .. خوفا من احتمالات الفشل ، فهذه الصحراء البور

---

*هيكى : هكذا .

*إيشى درت : ماذا فعلت .

المتروكة ، بماذا تحرث وكيف تروى ؟ وأمطارك فى مواسم الخوف والقلق تشح .. مجرد سحب خادعة . تسحب البراندى بيدك الخالية وتشرب دون تحرز ومن الزجاجة رأسا. تبعد يدك بهدوء. تقوم ،تخرج . فتندم لأنك خدشت مشاعرها الفطرية بتعاطى المنكر ، تنهض لتعتذر ، لكنك تفاجأ بها قادمة بوجه بشوش وكوبين فارغين تمدهما وتقول بجرأة أدهشتك : " هيا .. دير " . تصب كأسين وأنت منبهر : فهذه أول مرة تشاهد فيها بدوية تسكر . وتقول لك ممتعضة : " هادا الشىء مصرى .. ملغون والديهم .. حتى هادا ما يديروة مليح " . بدوية تسكر وتستخف بالصناعة المحلية .. يعنى فى جانب المعارضة . تشرب وتنافسك " . هيا د ير .. هيا دير " ثم غنت : " يرحم بوك الخيشة طاحت .. يرحم بوك " وتفسر لك معنى الأغنية ، بأن عروسين فى ليلة دخلتهما ، داهمتهما ريح عاصفة وأطاحت بالخيمة .. فأنكشفا عاريين أمام الناس الغرباء . وأنت تضحك وتقول لها : من حسن الحظ أننا لسنا تحت خيمة وإلا ذبحنا البدو فتلتصق بك حتى دخلت معك تحت البطانية وغنت أغنية البدو الفاضحة : " ظنبورك طار طرف عينى .. يابنية بإيش تداوينى " . لقاء الغناء ونهايات الأعمار ويدها الدافئة تضغط ، تجوس حتى لامست منبع الحياة وسر الأسرار وأنشودة الكون .. فاشتعلت ، وكان الحريق وكان الجنون الحقيقى . أنت وهى فى قلب الصحراء

دير : بمعنى أعمل أو افعل .

ومحاولة يائسة للبقاء ومقاومة عوامل الدمار . لاعقل ولا منطق . كيف صرت كما أنت الآن : فحلا قويا ، قادرا على اختراق ألف امرأة فى ليلة واحدة هل من تفسير ؟ أى شيطان لبسك فاصبت هذه البدوية المهملة بلوثة ؟ فتعرت وعرتك وبدأت تهلوس بلغة لا تفهم منها سوى القليل : الله .. الله .. زيد يا مصرى .. زيد . وتأكلك باسنانها الصدئة فأصابك السعار مثلها ، تتمادى فى مجونك ونزقك فتسكب أمطارك الغزيرة فى الشقوق والنتواءات والكهوف كل قدراتك تتحرك : أناملك تعبث ؛ أسنانك تعضعض ؛ لسانك يلحس ، أنفاسك نيران ، صوتك الهامس كالموسيقى الملائكية تصدر أنغاما تنصت لها عفاريت الكون ، وكان الرخاء ؛ ارتوت الأرض الشرقانة وتوقفت السيول إلى حين . وقامت تغنى ، تكاد ترقص . أعدت لك حماما بدائيا .. حممتك وليفتك كأنها جارية وأنت الأمير ، أنت الطفل وهى الأم ، أنت العمدة وهى شلبية ، تدعك جسدك بالليفة وتداعب مناطقك فتتجمع السحب من جديد .. تشعر بنذير البرق والرعد . أكلتما معا ، عدتما للفراش ، نمتما عاريين . واستمرت تناوشك ، تغنى للأمطار لكى " ترخ " . وتسمع دوى الرعد يأتى من تحت لا من السماء . أعطتك الناى فعزفت ، لم يكن لحنا مجنونا صاخبا كالسابق ؛ كان هادئا شاعريا ملائكيا . وتسمع صوتها هذه المرة مغايرا : " بالله كفى .. هلكتنى يرحم والديك .. يرحم بوك .. كفى .. كفى " . تقولها وهى متشبثة بك ، تطوقك بأيد من حديد ، وأنتهت

الحرب بالسلام والطمأنينة والشبع والأرتواء . تبدد الجفاف وازدهرت الحياة ، فتوسدت يدك ونامت فى حضنك . ونمت مثلها نوما هادئا عميقا لم تهنأ بمثله منذ عشرات السنين .. وكأنك قادم لتوك من حرب طاحنة انتهت بالنصر والسلام والحب : نصر لم يكن متوقعا ولا فى الحسبان ، وكانت أحلامك ، تدور كلها ، فى أرض غير الأرض التى عرفتها ، وبين بشر ، غير الذين طاردوك . كنت فى الجنة التى يتحدثون عنها فى الكتب المقدسة . وقمتما على نداءات الحمار الذى جاء يسألك ويخبرك بمغامرة العبور فى جو الحصار فأنابت عنك فى الرد : " المسكين مريض .. خليه اليوم .. هاك .. إشرى حاجة لصغارك " . رشته فانصرف ، فاستسلمت للنوم والكسل لا تود المغادرة .. تتمنى ديمومة هذه اللحظة ، تتوقف عقارب الساعة ودورة الأرض ، فتتجمد الحياة : هنا ، ومنذ الآن .. إلى الأبد .. حتى يوم القيامة . لاتصدق .. تظن نفسك تحت بطن الجبل فى الليلة الفائتة والشبح الذى احتميت به ونمت ؛ حيوان مفترس ، أكلك فرحمك الإله وأخذك للجنة رأسا دون حساب . لشدة ما عانيت وتعذبت ، فغفرلك ماتقدم وما تأخر فاحتج أحد الملكين بدفتر الحساب ، متجاوزا حدوده ، لأن ربك أدرى بالقلوب . ثم تنتبه وتصحو على نداءات مبروكة : إذن .. أنت فى الأرض ماتزال ، وهذه البدوية البسيطة ،أتكون مصدر انتقالك لواقع مغاير تماما ، كيف ؟

---

*اشري : اشترى

وأنت الذى مرت بك كل أصناف النساء . هذا العطاء السخى وهذه القدرة الآنسانية الفذة على إسعاد الغير . من تكون ؟ مبعوث السماء ؟ وسام عذاباتك ؟ أهى من نساء الأرض حقا ؟ وتشدك لصينية الطعام : كبدة محمرة ، دجاج مسلوق ، فاكهة .. وتمد لك ورقة ملفوفة ، تفرح بها .. تهتف : " يخرب عقلك يامبروكة .. مش معقول .. جونى ووكر ؟ " وتسألها عن الثمن ، فتأبى .. تلح ، ترجو ، فتحلف بمقام سيدها العوام . هذه المجنونة تبدد تحويشة العمر لقاء ليلة ،

أبدا لم تمر بحالة كهذه فى مشوارك الطويل المضنى ، أم هى معزوفة ماقبل النهاية ؟ . وأنتما تقطعان ساعات النهار فى هدوء وألفة ، سألتك عن حكايتك ، فرويت لها القصة كلها فقالت مشفقة : " والله إنك مسكين .. لكن رحومة السنينى هادا .. خليك منه مايخاف فى الدنيا من مخلوق .. مثل مبروكة .. أنا نعرفه كويس .. الإبليس القواد .. " . وتسألها عن الظابط حتيته الزوام ، نائب مدير مكتب أمن الصحراء وابن هذه المنطقة .. الداهية المسيطر فتقول : " هادا والله كان زمان .. وتواوين .. بيقولوا صار شىء كبير غادى .. "* . وتسألها بدورك عن مشوارها ، تصب لنفسها كأسا ، تشعل أول سيجارة ، تشفط نفسا طويلا عميقا .. تنفخه مع زفرة وتعود لنقطة البداية : كان أبوها يجمع ويتاجر فى مخلفات الحرب مثل معظم بدو الصحراء ، يرص كل مايجد

---

*غادى : هناك .

من دانات نحاسية وخلافه ، يضعها فى جوال حتى تمر سيارة التاجر الكبير ، وفى أسبوع مولدها ، والأسرة تحتفل ، انفجر جوال المخلفات وطارت الخيمة بكل ما فيها ومن فيها وعثروا عليها مرمية تبكى .. لم يبق من أهلها سواها ، فأطلقوا عليها مبروكة المنحوسة . وكبرت وكانت جميلة ، وانتظرت عريسا ، لكن البدو نفروا منها متشائمين فالتحقت كخادمة عند الأكابر : المحافظين والمآمير ، فأعجب بها مأمور متسلط وتزوجها بالفاتحة ، ولما حملت ، أخذها سرا للإسكندرية وأجهضها وكادت تموت ، فتركتة وهجت رغم أنها حكمت الصحراء من خلال نفوذه ، ثم تزوجت صولا من الحدود على سنة الله ورسوله ، كان طيبا سخيا حنونا أحيانا وهمجيا بشعا حين يشرب العرقى ويصعد للفراش ، يتوه منه الطريق فتقول له ناصحة ، زاجرة ، محذرة : " ياخوى يرحم والديك .. أنت لوين ماشى ؟ وإيش تريد ؟ أنا حرمه والطريق من هيك* .

مثلما الله قال .. كنك يارجل .. هادا حرام ، " شهرا بطولة ، ثلاثين يوما وهى تحاول معه تعديل مسارعينه الحولاء .. بلا جدوى . فتبرأت منه ونزحت للسلوم وكرهت كل الرجال بسببه ؛ فتاجرت وهربت وكسبت وبنت دارا واسعا واشترت دكانين تؤجرهما : ثم اقتنصها

---

*هيك : هنا أو هناك

رحومة السنيني .. أتخذها وسيلة ومخزنا للأسرار والبضائع في ذلك الزمن منذ ربع قرن ، ولم يكتب عليها أبدا ذلك الفاجر السمسار ومازال مدينا لها بالمال .

تتوقف عن الحكي ، فترى دمعتين تتنحدران ، فتشعر بالألفة والأسى والتقارب .. شقيان في كون شقي : دانة تركها الحلفاء وكانت الضحية ، ومأمور أناني بحث عن متعة عابرة ونسي عذابات البشر ، وصول همجي شاذ نشأ في عالم الكبت والقمع فانحرف وجرح كرامتها .. غابة وأنت مثلها ضحية . وهذه المرأة ، ينبغي اعتبارها محطتك الأخيرة ، فللأرملة أولادها .. وهذه لك . هدية . إن أضعتها ... ضعت . وكلما جاء الحمار ، ترشوه : " المسكين ما يقدر على الطريق .. " وحين يصر على مقابلتك تلف رأسك بفوطه وتضع فوقك البطاطين ، «كنك المسكين ما يقدر على الطريق في الليلة الخامسة . نمتما في هدوء وصمت ، صباح اليوم السادس تقرر الرحيل . فتسألك جادة : " ليش ما تقعد في السلوم ؟ " . وتزين لك الإقامة : بمتجر تفتحه وتساعدك بنقودها ونفوذها ، بعمل تختاره وتلحقك به بمالها من علاقات ، وتغريك بكل ما تملك عاشقة من طرق : تعدك بتوفير ضمانات الحماية من رحومة السنيني لأنها تملك أسراره ، ومن أي شبح آخر ، فهذه مدينتها وهؤلاء أهلها وستكون عيونها تحت مظلتهم . ولما صممت ، قررت توصيلك بنفسها حتى درنة . فلها أقارب هناك وسيجدون لك

ملازا وعملا ، وربما بقيت معك لفترة حتى تستقر أمورك ..وتصارحك دون خجل : " اسمع ياخوى .. أنا نريدك .. تمشى مشرق معاك .. مغرب معاك " .. أو تمِكث هنا .. لكنك سترحل . أنت والليل والطريق وامرأة عاشقة : مغامرة ، مقاتلة ، عنيدة ، جديرة بالإنتماء للمملكة الإنسانية فى أرقى صورها : فما صادفت مثلها ولن تصادف . درة الصحراء ووجها المعارض . أنشودة نساء العرب وهل فى مدينتك مثلها ؟ كل من صادفتهن سراب . حتى الأرملة كانت تفضل أولادها عنك . ومبروكة الآن تتقدمك وستفتديك عند الخطر . لها عينا زرقاء اليمامة وشجاعة نساء الفاتحين الأوائل . قبل السلك بمسافة تخيرت حفرة عميقة من مخلفات الحرب واختبئتما حتى آواخر الليل وينام العسكر . نفضت المكان ، فرشت بطانية ، قيدت الحمارين وفاجأتك بزجاجة ولحما مشويا . وكنت فى حاجة لكأس يشجعك على محنة العبور ، ولواحدة مثل مبروكة ترافقك ولديها حاسة خاصة تتعامل بها مع ليل الصحراء وغموضه ، تعرف جيدا أين يكمن العساكر وعن أى صيد يبحثون ، : " اللى مغرِّب .. إيش عنده ؟ إنما اللى جاى من غربة ... هادا معاه ويعطى " . لكن الحمارة .. نبهوها ، فهذه الأيام عصيبة، والعساكر يترصدون الخارجين أكثر من العائدين . " ردِّى * بالك يا مبروكة . طوالى .. طخ " .. ولهذا تحاول المرور من منطقة بعيده هادئه

*درنة : مدينة ليبية .   *عصيبه : صعبة *غربة : قادم من الغرب .   *ردى : تنبهى.

نوعا ، فقطعت بك شوطا طويلا بالعرض باحثة عن مخرج آمن . زرقاء اليمامة لها قدرة بصرية تفوق أجهزة الرؤية الليلية المعاصرة ، وتعرف متى يغفو جنود هذا الجانب ، ومتى يهمل جنود الجانب المقابل . وتقول لك : قبل الفجر ، فتفزع لأنك تتشاءم من هذا التوقيت :فكل الكوارث جاءتك أخبارها قبل الفجر .. تقول لها ، ترجوها ، " بلاش قبل الفجر ، أى توقيت يعجبك .. حتى قبل القيامة ، لكنها القائد والخبيرة وتريد ضمان سلامتك : " وليش لا . هادا ضرورى ، فى الوقت هادا كله يرقد ريح حتى الشياطين " . هذا صحيح ، لكن شيطانك كان يباغتك قبل الفجر ، فهذه الأنواع من الكائنات ، ليست بشرا ولا جنيا ولا شياطينيا . نوع جديد أوجدته ضرورات العصر .. لكنك لا تقول لها الأسباب ، تستسلم لقدرك . أكلت وشربت وتمددت تنتظر : أمامك .. أضواء مدن النفط ؛ وخلفك ظلام ، فراغ ، ذكريات ، طموحات ، أشباح ، مطاردات ، حنين غامض قوى ، رغبة عارمة فى التراجع بعد كل هذا العناء . وفوقك السماء : فراغ واسع عميق ، سماء محايدة ، ليست معك ولا ضدك ، ولا علاقة لها بكل . مايدور فوق هذا الكوكب الضئيل الحجم . ومبروكة ، سارات منحنية ، تحرت ، تصنتت ، ثم عادت، تمددت بجوارك وقالت : مازال . توسدت يدك ، داعبتك ، غنت لك بصوت خفيض ساحر ، ملائكى ، همست ، قالت : أنا نريدك ونمشى معاك حتى لجهنم . انطلقت دفعة رشاش ، مزقت السكون

وأرعبت الكائنات الصغيرة والتى تظن نفسها كبيرة فانكمشت فى حضنك مثل طفل رضيع . الليل ، الخوف ، الغناء وحياة تذدهر وتتفتح وسط احتمالات الشر : مؤخرتك للريح والعراء وثديها المترهل فى فمك تلقمه لك فترضع ، هى أمك وعشيقتك ووطنك .. وتهتف تحتك .. الله .. زيد .. زيد . وترجوك ؟ " هيا نرجع .. أنا أعطيك وأعطيك وادير* لك .. عندى فلوس ، فلوس تحت البلاط .. فلوس عند التجار .. فلوس عند الناس .

وإيش ندير بيها ، لا عندى ولد ولا بنت ولا أب ولا أم .. هادا كله لك .. تريد تمشى مصر أنا معاك .. هيا .. بالله هيا .. يرحم والديك .. نرجع " . تقوم فتشدها ، تحتويها بقوة وتعيد قراءة الكتاب من جديد .. صفحة .. صفحة ، حتى ظهر الغلاف ، ولم يعد لديك المزيد . سرتما صامتين حتى توقفتما أمام فتحة الاجتياز بمسافة ، وستحدد هى ساعة الصفر : قبل الفجر . وتقول لك هامسة : " الأنوار هاديك .. مساعد* .. وإن قابلنا عسكرى من مشرِّق .. أنت تسكت .. هادى تقول " وتشير لقبضتها الممسكة بالعملات الورقية الكبيرة ، وتضيف : " وإن قابلنا عسكرى من مغرِّب .. أنت ماتزعل .. وهادى ترد .. " وتشير إلى جسدها . فترفض . تغضب . تثور . تقول : لا .. أموت ولا يقع هذا . أموت ولا يمسك أحد . أموت ولا تدفعين ثمن نجاتى بهذه . الوسيلة .

---

*أدير : أعمل . * مساعد : أول مدينة لبيبية على الحدود

وتحذرها : إياك يامبروكة .. إياك ، إلا هذه . ومبروكة تندفع نحوك ، تقبلك .. تقول لك : راجل .. والله راجل . وتبصق على رحومة السنينى ملعون الوالدين ، الخسيس . أنت الآن على أبواب الخطوة الأخيرة ، قبل القفز إلى المجهول . وتفكر بعمق وموضوعية : شبحك هناك فى القاهرة .. ماذا لو غيرت خطتك ومكثت فى هذه المدينة الحدودية وتقود معركتك الفكرية منها وتفتح مكتبة فى قلب القفار ، ولديك هناك مئات الكتب ، تبيعها هنا وتعيش ، هذا مشروع جديد على الصحراء . وليكن موقعك فرعا يضم عصارة فكر رواد حركة التنوير . وكل ما ينادون به فى الأتيليه وزهرة البستان والتجمع والناصرى من مبادىء ورؤى وظلال وفن وأدب : تنقلة هنا .. كمركز إشعاع حضارى . لن تعود للقاهرة أو تفر غربا . هنا .. مع هذه البدوية المقاتلة العظيمة ستكون المحطة الأخيرة ..

وتسألها قبل اتخاذ القرار النهائى :

- " **تريدينى يامبروكة .. ؟** " .

- " **نريدك ..** " .

- " **وتساعدينى** " .

- " **وأموت معاك الحين** " *.

- " **هيا نرجع ..** " .

---

* الحين : الآن

- " **لوين ؟** " .

- " **عندك ..** " .

الذى حدث بعد ذلك ، شىء لا يصدق ، كان التوقيت قبل الفجر تماما ، ليس قبله ولا بعده ، ومبروكة الحريصة المحنكة ، صدمت ذهلت . جنت . فرحت . كان قرارك المباغت أمرا يفوق بمراحل مساحة عقلها . مبروكة أصيبت بلوثة عارضة فزغردت . زغروتة وكأنها فى عرس فكشفت عن موقعكما . فزغرد معها الرصاص . عرس همجى على أبواب مدينتين . دفعات من الرصاص الأهوج . تنزف . تجرى فى اتجاة السلك ، تحاول اجتيازة بالقفز فوقه . فتصطدم بسيخ مدبب طويل . ينغرز فى عينك . ألم هائل يمزقك . وكنت " تفلفص " . تحاول الخلاص ولا تقدر . ثم تهدأ .. ودمك يسيل .. يسيل .

- ٦ -

جثتك الآن ، معلقة بين مدينتين ، فوق سيخ مدبب طويل اخترق عينك وغاص داخله حتى ارتطم بعظام الجمجمة .والأسلاك مغروزة فى جسدك ، ودماؤك على الرمال . حتى موتك يبدو غريبا .. أيها الغريب الذى عبر الكون فى الزمان الخطأ : زمن الهمج والأشباح والفوضى والجنون والرصاص .

والذباب الوحشى ، يتراقص حول وجهك ، والنمل يأكل دمك المتجلط ، نجوت من اليمن وسيناء وسم البار والسيارة المداهمة ، لتموت هنا .. مجانا ، فى موقف ملتبس ، وكأنهم خططوا لذلك وفازوا . وكلهم أبرياء من دمك ، مجرو متسلل ، حادث عادى يقع نظيره كل يوم ولا أحد يدان . أيها الأحمق : ألقوا لك بالطعم وسحبوك بذكاء للشرك فلقيت حتفك بيدك ، وجاء قرارك متأخرا . ومبروكة ، عاشقتك ، ومعزوفتك الأخيرة ، نجت من الموت وهوت فى قاع الجنون ، نادت عليك .. يابلال .. يابلال . ولمّا رأتك هكذا ، معلقا كالذبيحة ، بين مدينتين ولا ترد ، جنت . انطلقت تعدو فى البرارى ، النجوع ، قرب معسكرات الجنود ؛ تغنى .. الأغنية التى غنتها لك طوال خمسة أيام خالدة ، وعزيزة من عمريكما : " ظنبورى طار طرف عينه .. يامصاروة بإيش تداوونى " . الفتيات يتجنبنها ، يخفين وجوههن خجلا ، والنساء يندهشن ، يردن معرفة الحكاية ، والرجال يغضبون ، يطاردونها ، يزيحونها خارج المدينة والنجع صائحين : " تحشمى يامرة .. وليش المصاروة* .. والعربان وين راحوا ؟ . " . وهى لا تتحشم : خلعت ملابس البدويات ، أرتدت قميص الأيام الخمسة ، وتتعطر بالكولنيا التى كنت تحبها وتعود للمدينة مغنية ، متحدية .. فيطاردها الأطفال ، يرجمونها بالطوب صائحين : " مبروكة المنحوسة .. مبروكة المصراوية .. مبروكة السلكاوية .. " . وهى لاتبالى .. تغنى لك ، تغيظهم

---

* المصاروة : المصريون

: " يامصراوى هيا .. نريدك تسهر لى حتى الفجرية " وتصعد للهضبة ، تمر على خيام الحدود المنتشره قرب السلك ، ترجمهم بالطوب وتشتمهم : " قتلتوه .. يامساخيط " .

لاتخشى بنادقهم .. تخلدك ، حاولت الوصول إليك وخطفك وإقامة ضريح يليق بك لكن العساكر حالوا بينها وبينك ، فتحلف لمن يقابلها بمقام " سيدى بلال " . صرت وليا دون رغبتك ولك مقام : مع أنك معلق هنا ، على السلك : شكلا .. جثتك فى الجانب المواجهه للوطن : قانونا .. أنت خارج الحدود . حتى الطليان تآمروا ضدك ، أقاموا السلك الشائك على بعد عدة أمتار من الحدود الدولية حتى تميع قضيتك بين المدينتين . وحمارك الميت يبدو فى حالة دهشة لكنة داخل الحدود ، ولن يتنصلوا من دمة . وأنت لا هنا ولا هناك ، حالة فريدة ، ملتبسة فى وجة الريح والذباب والعفار والنمل والكلاب . وقديما تنبأت أمك ، : " ودين النبى هتموت قتيل .. " . حياتك مشاكل وموتك مشكلة . من أين جاءت الرصاصات القاتلة ؟ ، من الذى سيغسلك ويكفنك ويدفنك ؟، لكن مبروكة تغنى لك : " ياسيدى بلال الله يخليك .. ياسيدى بلال بارك فى الدار الله يخليك " وتردد اسمك ، بركاتك ، معجزاتك ، تهلوس ، تخلط . فيردد البدو والعساكر هلاوسها يضيفون ويهولون. حتى أشاعوا أنهم فشلوا فى قتلك لأنك " محجب " لايؤثر فيك الرصاص : فأستعانو بصواريخ الطائرات ، مدافع الدبابات ، قاذفات اللهب ، استنجدوا

بالأسطول الأمريكى الذى أمطرك بوابل من صواريخ كروز وكافة وسائلهم الحديثة . ولما فشلوا ، جاءت فرقة كوماندوز خاصة من خارج الحدود ومعها سلاح سرى خطير ، سلطوه عليك فطرت فى الهواء ثم انكفأت فوق السيخ كما أنت الآن . وإلا .. كيف حدث هذا أى قوة شالتك وحطتك فوق السيخ هكذا ؟ كنت لحظتها جريحا تنزف .. فكيف أتتك القوة لتقفز : لا لعبت بالزانة فى شبابك ولا كنت بهلوانا ؟ . ورأى بدوى جثتك ، فى وضعها العجيب ، وسمع حكاية الفرقة الخاصة ، فقال مصدقا : " هادا هو ولولا هيكى .. ماصار اللى صار " . ورد علية آخر برأى مخالف : " ياجماعة .. هادا بركة .. ولى .. بركاتك ياسيدى بلال " . هلوسات ، شائعات ، أغان ، لكنك للأسف ، خرجت من التاريخ والذاكرة العاقلة : منبتا .. مجهولا . وعزاؤك الوحيد أنك قضيت أيامك الأخيرة فى أحضان امرأة ، كانت أما ووطنا وحبا وعشقا ، كانت رمزا .. فمسحت عنك غبار السنين .. فرحلت ممتلئا سعيدا . وكانت ثريا سرابا وكانت زوجتك حالة مستعصية ، وكانت الأرملة حالة انفصام بينك وبين أولادها ، لكنها مازالت تنتظرك ، وتحافظ على كتبك وشقتك وتنتظر ، ووضعت لك على المكتب ثلاث خطابات جاءتك من واحد اسمة شادى الصافى من بيروت . وهى أحبتك . بينما أنت مشغول عنها وعن نساء العالم بقضيتك . حرقت وقتك وأعصابك فى شوارع مدينتك وزهرة البستان ، توقع على

العرائض وتصرخ مع الصارخين : لاتصالح . لكنهم تصالحوا رغم أشعاركم وعرائضكم وتفرغوا لكم . ألاف العساكر بالعصى الكهربائية والخوذات والدروع ، يقضون أو يجلسون محنطين فى اللوارى أمام الجامعات والنقابات والمصانع وميدان سليمان باشا . وأنتم بين فكى الوحش : الهمج من ناحية والعسكر من ناحية . والذى سينتصر منهم ، سيلتفت لكم . وحين حاول بعضكم ، تلقيتم إنذارين : واحد استقر فى صدر فرج فودة والثانى فى رقبة العملاق . والويل لكم بعد انتهاء معركة البقاء . الآن ، يتسلى عليكم الأشباح وحلابوا البقرة وثمة وحش رهيب .. ينتظر نتائج الصراع على أبواب رفح . وأنت هربت والأرملة بكت وهى تودعك . ومبروكة جنت حين خطفوك منها ، انتزعوك بقسوة فى نفس التوقيت الهمجى : قبل الفجر .. توقيت قدرى محدد . ومبروكة كانت محطتك الأخيرة ، أغنية ومعزوفة الوداع . ولا أحد فى الكون يتذكرك سواها .. تنتقل بسرعة غريبة وتبدل الأمكنة ، وتغنى عن الذى طار وطرف عينك ، وتسأل " المصاروة " بماذا يداوونها عن فقدك ؟ . كانت أنبل وأسمى من لاقيت : أمتعتك ، أسعدتك ، ثم تخلدك .. أختصرتك فى الجزء الأسفل ، وتدعى للبدو أن العساكر تخلصوا منه ، خوفا من مدفعه الذى أوله عند الأهرمات ونهايتة فى مراكش . وتزعم أيضا : ما عند أولاد على والسنوسية والطوارق والمغاربة والبربر وأهل الصعيد والسودان والشوام وعرب الجزيرة وأهل بلاد برة شىء كهذا :

لو ذاقتة أى امرأة من الإنس أو الجن ، لصار لهن ماصار لها ، شيء يظل كالمنارة لا توثر فية العواصف والرياح ، كالخيل العفى يركض ، كالوطواط يسهر ، كالحديد لا يلوى .. شىء يدخل من تحت ويخرج من فوق ، ثم يمتد ويمتد ، ويمكن أن تتعلق به عشرات النساء ولا ينتهى ، ولهذا قتله العساكر لأنهم خافوا على حريمهم منه ويمكن (ملعون الوالدين هادا رحومة السنين) حرضهم لأن عنده من الحريم عددا لايحصي وتستدرجها امرأة مطلقة بعيدا وتسألها : (يا مبروكة .. المسخوط هادا .. كيف كان ؟ وإيش درتى* معاه ؟ إيش دار معاكى ؟) . فترد بتأن ، وعلى وجهها مسحة حزن وفى صوتها .. رنة أسى ودموع .. تتجمع كالسحب تنذر بالسيول : (والله يابنيتى .. إيش نقول لك : خمسة أيام وهو راقد فى الحوش كالتمساح .. يقول لى : هيا يامبروكة . أمشى له خايفة ، قلبى يدق و جسمى يرتعش .. وأسأله بعد مدة : تميت يامصرى ؟ .. يقول لى : مازال . وأنوض أمشى للسوق أسوى ، أمورى وأرجع .. ألقاه راقد : وهيا يامبروكة . استعيذ بالله من الشيطان الرجيم وأغمض عيونى وأرقد .. وأسأله وروحى قريب تطلع : توا كيف يامصرى ؟ يقول لى مازال . أنوض* وأكركب فى الحوش وأسوى الأكل وأسأله : تريد حاجة ؟ هيكى باهى ؟ . يقول لى : هيا يا مبروكة ، وأقول له مانى قادرة ، تاعبة* ياسيدى .. نخ الشئ هادا يرحم

---

*درتى : فعلتى   * أنوض : أنهض .

والديك وقلت له : اسمع يامصرى ياملعون .. الكلام هادا ما يصير ..
أنت من لوطة* وأنا من فوق وظليت يا بنيتى أدير له ألاعيب الحريم
وأسأله بين الحين و الحين : توا كيف ؟ توا باهى ؟ يقول لى : زيدى ..
زيدى . وظليت ياكبدى هيكى لما طلع النهار ، وتعبت ونمت فوق هادا
المسخوط ، وقال لى قومى يامبروكه ونبدل المسائل خلينى أنا من فوق
وأنت من تحت. قلت موافقة .. لكن راجينى وخرجت من الحوش وهربت
وظليت نجرى .. نجرى .. لتوا . وما ندرى إن كان مازال فى الحوش
واللاّ حريم العساكر خطفوه ..) .

وأنت مبدد هنا ، معرض للفناء ، و معلق بين مدينتين ، مبروكة
تخلد جسدك ، فينسجون حولك الأساطير : وقد يقيمون لك ضريحا
ويطلقون عليه مقام سيدى بلال أو الشيخ مسخوط أو مولانا سيدى أبو
صارى أو حتى أبو بتاع . وفى النهاية تخلد من طريق معاكس تماما
لقضيتك وقناعاتك : فتقتل جسديا وأدبيا وستتوافد على مقامك ،
العاقرات من نساء العرب ، من شتى المدن ، للتبرك بمقامك ووضع
النذور فى صندوقك – وحتما ستقع مشاكل معقدة عند توزيع حصيلة
الصندوق بين أهل الصحراء الذين خلدوك وأهل المدينة الذين طاردوك
. ومهما قالت عنك مبروكة وشوهتك ، فهى النقطة المضيئة فى حياتك :

---

*تاعية : متعبة . *لوطة : تحت .

احتفت بك ، استضافتك ، غامرت معك ، حافظت عليك ، وكادت تموت بسببك . هذه المقاتلة الباسلة ، أم نساء العرب ، أصدقهن أشرفهن ، وهى الآن تغنى للسانك الأسطورى حتى صدقوها . فصعد بدوى على نياته ليراك : فلم يجد غير جثتك المعلقة ، ولما عاد حائرا وسألوه : قال لهم أن الحكومة ، قطعته وحملته بقطار البضائع ليعرضوه فى المتاحف فيأتى السياح للفرجة .

وأنت هنا ، لا تجد من يدفنك ، يمسخون سيرتك ، يشوهون تاريخك ، يمجدون أسفلك ، مع أن قيمتك وقوتك ينبعان من جمجمتك المعلقة فوق السيخ . حتى قناوى ، كان أفضل منك : كرموه بشهادات الورق وشرائط الدمور وأوسمة البرونز ، ووجد من يدفنه . وأنت لم تأخذ حتى وساما من الصفيح . وما كنت تستحق هذه الميتة البشعة : النمل الهمجى يأكل دمك ، الذباب يطن ، الكلاب تحوم ، الذئاب تشم رائحتك .. تعوى .. تعوى وثمة مؤامرة حيكت ضدك : فقبل موتك ، ومنذ خروجك من مدينتك و والعيون تترصدك : تتابعك : آلو .. واحدينادى .. حول . آلو .. أسمعك بوضوح .. حول : الهدف فى قطار الإسكندرية : الهدف على الطريق البرى : الهدف يتلكأ فى مدينة مطروح : الهدف اختفى مؤقتا داخل مدينة السلوم وسنوافيكم بالجديد : الهدف ومعه امرأة فوق الهضبة : الهدف داخل الكمين : وتسلمنا رسالتكم : لا يخرج حيا وليس مطلوبا حيا .

منذ خروجك من مدينتك ونهايتك محددة : الموت فى موقف ملتبس . لهذا دفعوك للهرب لكى تنتهى بعيدا عن رفاقك كتاب العرائض وحتى لاتتحول إلى شهيد ورمز . لعبة الهمج فى زمن الهمج . وليلة موتك ، كثفت الحراسة وأعطيت الأوامر : اضرب فورا . لا أحد يجتاز السلك حيا .. اضرب ولا تنشن . وكانت أجهزة الرؤية الليلية مثبتة فى الكمائن .. كانوا سينالون منك مهما تحرزت وتخفيت ، وزغرودة مبروكة عجلت بموتك ولم تكن السبب .

ومع شروق الشمس ، تحرك مسئول أمن الصحراء شخصيا وفى سرية تامة ، لفرز حصيلة ليلة التوتر والشفرات والرصاص الحاصد . فمر على الضحايا واحدا واحدا حتى وصل إليك ، وعرفك ، فإستولى على بطاقاتك وحقيبتك وتأكد من وجود الأوراق المطلوبة بداخلها ووضع تحتك حقيبة أخرى بها مواد الإدانة ، وجلس بعيدا .

وقبل استدعاء وكيل النيابة ، بدأ يقرأ روايتك بدقة ، فصلا ، فصلا ، كلمة ، كلمة .. وكلما توغل ، ينظر إلى جثتك مغتاظا ، يبصق عليك ، يقرأ .. فينفعل ، يتمنى إحياءك وإبادتك مرة أخرى بيده : تمزيقا بالسكاكين ، حرقا بالبنزين ، تقطيعا لأطرافك وأناملك التى كتبت .. وأنت حى تتألم ، تصرخ ، تستغيث ، يسمعك تقولها بفمك : (حرمت ..أنا مرة ·· أنا ..) ويسبك ويسب أهلك .. ولما جاءه عسكرى يسأل ، عن تعليماته بشأن استدعاء سيارة إسعاف أو دفن موتى : صرخ بحدة وجنون : (إسعاف إية ؟ ودفن إيه ؟ هنولع فى ... أمه هنا ..) .

- ٧ -

وأنت تغنى هنا ، فى وضعك الدرامى الفريد ، وكلاب الدنيا حولك تنبح ولا أحد من رفاقك يعلم بمصيرك مقطوع الصلة بمدينتك وأهلك وما ضيك ، لا ورقة تفصح عن هويتك ، أو حانوتى جاء لغسلك وتكفينك ودفنك . ومبروكة تولول ، ترجم العساكر ، تغنى لبتاعها الذى طال حتى طرف عينك ، ولسانك الذى أوله فى السودان وآخره فى الشام . كان شبحك .. هناك ، على شاطئ مرسى مطروح ، فى فيلا صديقه ، رجل الصحراء الشهير : رحومة السنينى وصديقهما رجل الأعمال المعروف ، الحاج حتيتة الزوام ، يستجمون ، يتابعون عن كثب : أنباء حرب ما قبل الفجر ، وحين سمعوا ، عن السيخ الإيطالى ، الذى أودى بك ، هتف الحاج حتيتة مكبرا : سبحانك يارب .. تمهل ولا تهمل .. وأمر سكرتيرة بتوزيع صدقات بلا حساب من مال الله لأهل الله . وقلده رحومة السنينى ، فأضاف لأموال الزكاة ، دفعات سخية لدور العبادة وملاجئ الأيتام وخص مقام سيدى العوام بهبة كبيرة ، لأن كراماته ظهرت كما قال الحاج حتيتة .

وكان شبحك يفكر ، فى كيفية مكافأة رجلهم الذى قام بالمهمة : اجتمع الثلاثة ورصدوا من أجله عشرات البدائل ، ليختار بنفسه الأنفع : فيلا أنيقة فى مراقيا أو ماربيلا ، شقة فاخرة على نيل القاهرة . قطعة أرض منتقاه ومميزة . شبح على الزيرو . شيك على بياض . حساب

بالدولار فى بنوك سويسرا . منصب رفيع فى السلك الدبلوماسى . وتركوا له حرية الانتقاء ، مع التوصية بترقيته لأرفع المواقع الأمنية ، كوطنى مخلص وحارس أمين على سلامة الوطن وأمنه واستقراره .

واحتفالا بالمناسبة السعيدة ، أقاموا وليمة همجية ، دعوا إليها أبرز الأعوان والأعيان وأهل القمة وجلبوا الطعام بالطائرة من أحدث مطاعم العاصمة .. وكانت ليلة احتفلوا وأنت معلق هنا ..

طلبوك ميتا وقد كان . ومسئول الأمن الإقليمى بجوارك ، يقرأ روايتك يقرأ وينفعل : فهذه ليست منشورات ضد النظام أو أسرارا عسكرية كما زعموا ، لكنها أخطر : إنها حكايات فاضحة عن رجال حكموا الصحراء منذ أكثر من ربع قرن ، ربما ما توا أو تهمشوا أو صاروا مهمين .. تدينهم ، تشوههم وتمجد (حتة صول) وكأن البلاد خلت من الشرفاء ولم يبق سوى هذا الجلف .

ويتساء ل : أهذه حقائق وقعت أم هلوسات كاتب مخبول ؟ وهو حائر فى تفسير سر اهتمام الباشا بأمرك . وثمة من وراء الباشا من هو أكثر اهتماما ولايدرى من يكون ؟ وعلى أى جهاز جهنمى يسيطر ؟

ويفكر فى ظروفك أيضا : فأوراقك لاتبين توجها دينيا أو حزبيا مناهضا بطاقتك توضح : قوات مسلحة بالمعاش . وكرنيهات عديدة تبين اعتدالك : عضو اتحاد الكتاب ونادى القصة وجماعة الأتيليه للفنانين والأدباء وعضو نادى رياضى ، فما هو أمرك ياترى ؟ ولماذا تقول التحريات والمطاردات عكس هذا كله ؟ ففكر وحسم موقفه منك :

فلو أعلنك إرهابيا كما طلبوا ، ستجد من يخلدك ، يكتب عنك ، تتناقل وكالات الأنباء اسمك ، وقد يجعلون منك بطلا ورمزا . فقرر تبديل الخطة وإخراجك من التاريخ وكأنك لم تكن : سحب حقيبة المفرقعات من تحتك ورأى تجميد وضعك .. هكذا : معلقا بين مدينتين . ولما جاء وكيل النيابة لمعاينة جثتك ، أمره مسئول الأمن ، بعدم الاقتراب ..

- **حذاريا أستاذ .. الجثة ليست فى حدودنا ..**

- **وماذا أكتب إذن ؟**

- **لا شئ**

- **وهذه الجثة ؟**

- **لاشأن لنا بها**

- **لكنها شكلا ناحيتنا ..**

- **وقانونا عندهم .**

- **ومن الذى أطلق عليه الرصاص ؟**

- **لا ندرى .**

- **وبماذا تأمر سعادتك ؟**

- **لا رأينا ولا سمعنا**

- **ونتركه هكذا ؟**

- **هذا شأن الجانب الآخر**

وهكذا بقيت فى وضعك الدرامى : لا أنت هنا ولا هناك . وعندما عاد المسئول إلى مكتبه ، جهز سلة حديدية ، وفى تكتم ، حرق أوراقك كلها حتى صارت رمادا ، وهكذا ، خرجت من التاريخ رسميا .

-٨-

وأنت معلق هنا ، فوق سيخ مدبب ، بين مدينتين ، فى وجه الريح ، لليوم الثالث ، تنتظر الديدان ، تتوالد منك ، تفنيك ، تبيدك ، والذباب يتكاثر فوقك ، والكلاب تنبح .. تحلم بالوصول إليك ونهشك . وجنديان يقظان يحرسان جثتك : واحد من هنا والثانى من هناك ، حتى يتقرر مصيرك . والمكاتبات تتوالى بين مأمورى الجهتين ، لوجود جثتك فى المساحة المائعة بين الدولتين ، خطأ وقع فيه مهندس إيطالى منذ سنين . وربما الأتراك أو السنوسية ، وتدفع أنت الثمن الآن . وبالتأكيد ، سيحولون مشكلتك لجامعة الدول الناطقة بالـ ... ، التى ستفشل كالعادة وتلجأ للأمم الـ ... ، التى ستحتار وتكلف خبيراً دولياً للاطلاع على وثائق الحكومة الإيطالية لمعرفة السبب الذى أقاموا السلك من أجله بعيدا عن الحدود الدولية بعدة أمتار . وحتى يصلوا إلى قرار ، ستظل معلقا هنا : لا ورقة تفصح عن هويتك ولا شاهد يحلل ملابسات وصولك هنا . وشبحك هناك ، مع صديقيه رحومه السنيني وحتيتة الزوام ، يحتفل بخروجك من رأسه ، بعد أن سببت له سرطانا ، وكدت تبدد ثمرة كفاحه على مدى سنوات شاقة . وعلى مسيرة دقائق من جثتك ، كان قائد مكتب الأمن الإقليمى ، وبعد حرقة لأوراقك ، وروايتك

الملعونة ، وإخراجك من التاريخ ، يحاول النيل من هذه المجنونة : التى تشوش وتهلوس ، فأصدر تعليماته المشددة ، باعتقالها وقطع لسانها . لكنها تراوغهم ، وتزوغ ، تجوب البرارى ، تتحدث عنك ، تخلد جسدك ، تبقيك فى الذاكرة ، مشوشا ، مشوها . ويتساءلون : (إيش هادا ؟ نبى ؟ ولىّ ؟ جنى ؟ شيطان؟) أنت الذى حاربت هده المسائل فى حياتك ، أسقطتك مبروكــه من مملكتك العقلية بعد مماتك ،وأسمتك (سيدى بلال) تخلد جسدك الذى أهملته ولم تنتبه له إلا قبل فنائك . ولو اكتشفت مزاياه فى وقت مبكر ، واستثمرته ، لصرت الآن شيئا مهماً : تساندك نساء الخريف بمالهن ونفوذهن وتطل يوميا من الشاشة الجميلة وتتصدر صورك أغلفة المجلات ، وتكتب كلاماً فارغاً وتنشره فى عدة أماكن إعلامية بارزة . لكنك أهملته وشغلت نفسك بوطن بعيد المنال حتى المرأة التى كانت زوجتك .. رفضتك ؛ شكتك لأهلها وفضحتك ، قالت لهم بوجه مكشوف : ياناس .. افهمونى .. هذا رجل مجنون .. يحتضن الكتب ، يحاورها ، طوال الوقت .. كتب .. كتب . فتنصحها أمها العاقلة : يابنتى .. هذا إنسان طيب يتفقه فى الدين .. فكيف تتجاسرين على طلب الطلاق ؟ . فتثور ، تصرخ ، تشد شعرها : يا أمى .. صدقينى .. هذه ليست كتب دين ، إنها كتب مساخيط ، قلة أدب ، كفر . يا أمى .. هذا لايصلى ولا يصوم ؛ أنصحه مليون مرة : يارجل .. قبل أن تهبب معى .. سم .. حتى ننجب أطفالا صالحين .. ولا

فائدة . ولأنه لا يبسمل ، .. لا أنجبنا .. ولا روانى .. أقوم يقتلنى الظمأ ويكوينى الشوق ، يتركنى وينصرف لمساخيطه . يا أمى .. هذا ليس لى ولا لأى مؤمنة سوية ؛ لقد رأيته مرة يقبل كتاباً ولا يستحى . ولو كانت ضرتى امرأة .. لهزمتها ، لكنها كتب من ورق .. زحم بها الأرفف ، الدواليب ، المقاعد .. حتى جاء بها إلى فراشى .. ياأمى .. لقد رأيته يضاجع كتابا فوق سريرى . اعتقونى حتى لا أجن فأحرقه مع كتبه وأحرق نفسى وأرتاح . كانت تجربة قاسية ، أليمة .. والهوة بينكما واسعة ، كل وقتها كرسته للصلاة وسماع القرآن المرتل وأحاديث الشيخ المشهور ولم تترك لك مساحة تتحرك فيها سوى الفراش ، فهذا وحده الحلال عندها ، وكل ما عداه حرام . حتى صورة زفافكما ، أخفتها .. لأن الصور تطرد الملائكة .. فتخليت عنها غير آسف . وأكتفيت بعدها بالسياحة بينهن كلما عضك الجوع .. تأتى بهن من الشوارع ، المشارب ، محطات الحافلات ، كزائرات لليلة واحدة . بعضهن كن يفزعن : تصرخ الواحدة منهن هلعة : (يانهار أسود .. كل دى كتب .. أقعد ازاى أنابقى والا هنام فين ؟) وتزيح كتبك بهمجية ، ترميها على الأرض .. فتثيرك وتذكرك بزوجتك ، تسد نفسك ، فتنصرف عنها .. تقرأ كتابا ، وتهينها تغتاظ ، ترتدى ملابسها بعصبية .. وتشتمك : (اخص عليك .. لما أنت كدة .. أمال جايبنى هنا ليه ؟) . واحدة فقط تفاعلت معك ، تفوقت عليك ؟ هزمتك : التقطتها من بين

مخالب قناصة زهرة البستان . وكان المزيفون والكذابون يصفقون لنثرها المتواضع ويشبهونها بالشاعر نزار قبانى ويبدون إعجابهم بشَعرها وهى تظنهم يقصدون شعرِها . فتدخلت مفسرا الفرق بين الكلمتين رغم مصدرهما الواحد ؛ الرأس .. لكن الشعَر للزينة والشعِر للعاطفة والوجدان والجمال والسمو . تشاجرت معك وسبتك .. ثم اختارتك للسهرة واستكمال الحديث فى مكان أهدأ . تسكعتما تتأملان وجوه المتعبين ودخلتما مقهى على بابا .. لأنها تعبت من المشى ..

– ما نجو أو ليمون للأنسة .. وبيرة لى .

اعترضت لأنها لا تحب أن يختار لها أحد وطلبت بيرة مثلك . وفسرت سبب ثورتها هناك لأنهم شبهوها بشاعر النساء والمخادع الذى صنع من حلمات أثدائهن أهرامات ومن جلودهن عباءة .. قالت : همجى . وهى تحب أمل وصلاح عبد الصبور وعفيفى مطر ومحمد سليمان وغيرهم وشتمت شاعرا شابا تعرفه وقالت عنه كلاما وقحا لأنها وثقت به وطارت معه للسماء ثم هوت . شربت كثيرا ، غنت ، أشعرت ، بكت ، بانت تعاستها وتعاسة العالم كله حين فشلت فى فرملة دموعها وأحزانها .. لكنها تجمدت عند فقرة واحدة من أغنية غريب الدار : (أنا اللى الدهر عادانى .. وبعنى واشترى فيه) . أبدا لا تتزحزح .. تعيد وتعيد . ثم هبت واقفة وقالت : (عاوزة أنام .. تعبانة قوى .. عندك مطرح ؟) . تلك الليلة ، نامت فى حضنك كقطة وديعة ..

فسموت ، قمعت رغباتك الهمجية احتراما لحزنها الشفيف .. كانت تهلوس ، تتوعد ذلك الشاعر . وأنت تعلم بخبرتك أنها واحدة من الحالمات ، والشاعر مجرد قناص عابر . قامت قبلك ، رتبت كتبك ، بوبتها ، أزالت عنها الأتربة ، صنعت إفطاراً وشكرتك على المأوى والسلوك الحضارى النادر بين القناصة . تأملتها فوجدتها جميلة رغم التشرد والهزيمة والانكسار . وتأملتك وسألتك عن مصدر سمرتك الخفيفة عن حياتك وأفكارك : قلت لها الكثير عن أبيك الجنوبى الذى جرفه الخزان شمالا ، فجاء متعبا يبحث عن حقه فى حياة أفضل .. وأمك الشمالية الطيبـــة التى رحبت به ومسحت عنه آثار الغربة والمرارة ، وخرجت أنت من هذا الكوكتيل الجنوبى الشمالى لتصطدم بالجميع وتحاول إعادة تشكيل عالم جديد على أنقاض الكتب الصفراء والنصوص القديمة . فلا أنت أمك ولا أبوك .. لا أنت أبيض ولا أسمر ، لا عربى ولا نوبى ولا فرعونى . إنما أنت واقع جديد تشكل من طمى المكان وعذاباته وتجاوزت الماضى .. لتواجه العالم برؤية جديدة تواكب العصر . أسكتتك بإشارة وقالت : دعنى اكتشفك من خلال سلوكك وكتاباتك لأنى شبعت من المتكلمين والمناظرين والشعراء وكتاب العرائض واللافتات ، فنزلت وأحضرت كبابا وشرابا ووردتين . جهزت المائدة وأكواب الشراب ومازالت جالسة تقرأ كتاباً صعباً .. تقول لها هيا .. فترد بزهد : (بعدين .. بعدين ..) . أكلت وشربت

وحدك ، استلقيت على السرير وحدك وطلبتها بإلحاح وتذلل .. فقالت : (بعدين .. بعدين) . مكثت معك شهرا .. فأدمنتها وتعذبت معها . كانت ضالتك وجلادك واستعصى عليك ترويضها كغيرها . هذه الشاعرة الحالمة ، تأكل حين تجوع ، تنام معك عندما تشتهى وتكره أفعال الأمر بكل صيغها وتتوغل لمناطق الحرج وكأنك المشرع : أرفض رجلا يهجرنى فى المضجع وأرفض رجلا يؤمن بالمثنى والثلاث والرباع .. هذا كلام سلفى يلائم حريم الخيام والإبل .كانت امرأة من نار، بركان ، ثورة .. كأنها من الزمن الآتى ؛ جميلة راقية ومن تحلم بها ، ومهما ثارت واحتدت كما حدث مرة وأهانتك : أنت مثقف داعر .. شأنك شأن معظم الناطقين بالعربية .. تبيعون كلاما وشعارات .. واتعجب .. كيف تحوز كل هذه الكتب وتبدد وقتك فى المقاهى والبارات والشوارع وندوات النفاق : اجلس لتقرأ أوتكتب .. أو على الأقل .. قم بدور فى هذه الأيام الهمجية ..قاوموا هؤلاء المجانين : تصدق .. أكثر من مرة يهاجمنى معتوه ويضربنى بعصاه على سيقانى وأذرعى . وأحدهم صفعنى .. وصرخ فى وجهى : ياعدوة الله والدين .. تحجبى تنقبى . حتى صار المشى فى الشوارع جنونا ومغامرة .. فأين دوركم مع هؤلاء ؟ .. أنتم ولا حاجة .. فقاقيع وبالونات فارغة . أغاظتك ، فرميتها بقذيفتك فى لحظة غضب : ومن أنت ؟ مجرد عاهرة تتاجر بجسدها ؟ . كنت قاسيا ، همجيا .. لكنها امتصتك وردت بهدوء وأسى : كانت غلطتى الوحيدة

أننى صدقت همجيا فى لحظة غيبوبة عابرة فرمانى لكم وماكنت أستحق هذا .. ولا تاجرت بجسدى .. فماذا أعطيتنى خلال ثلاثين يوماً ؟ كل ما أحلم به : مأوى آمن ، قليلا من الطعام ، كتب كهذه أبحر معها لعالم أقل ضجيجا وتآمرا .. ورفيقا أتساوى معه ولا يملكنى .. وقد تعبت فى العثور على هذا الرجل المستحيل فى مدن الهمج .. هل فهمتنى ؟ قلت لها فهمت .وتصورت أنك هذا الرجل . استأذنتها لساعة واحدة . لتأتى بالمأذون وشاهدين وعندما عدت بهم فرحا ، وجدت مكانها رسالة قاسية : أيها الصديق .. شكرا على مبادرتك النبيلة .. لكنك لست من أريد ، منذ شهر أحاول اكتشافك : تخرج وتعود بما يخصك : الكباب والشراب . أبدا لم تفعلها مرة واحدة .. حتى فى يوم زفافنا المفترض ، لم تفكر فى فستان أرتديه .. على الأقل أمام شهودك المزيفين ، وأظننى فهمتك : أنت تريد أنثى مجانا وتحاول تسجيل بطولة على حسابى .. وأنا أرفض مبادرتك وأرفضك .. لاتحاول ملاحقتى ، لو اقتنعت بك .. ستجدنى عندك بإرادتى .. وداعا .

وأنت معلق هنا وعلى وشك الفناء : مبروكة تخلدك ، تقتص لك منهم بطريقتها : تولول وتزعجهم ، وتسألها النسوة المحرومات : (إيش تقولى يامبروكة على المسخوط ؟) فترد بحزن وهى تمسح دموعها : (والله يابنياتى كان بدى تشوفوه .. لكن رحومة الله يجازيه طخه بالخرطوش) . فيسألن مستغربات : (ورحومة إيش دخله ؟ سمعوكى

تقولى العبدة ؟) *. فتقول مؤكدة : (وكان معاهم رحومة وحتيتة الزوام .. هادا اللى صار ومقام سيدى بلال) . والبعض يصدقون ، يتحايلون للاقتراب منك ، فلا يجدون شيئا .

فيسألون عسكرى الدرك الذى يؤكد لهم أن الحكومة قطعته فعلا وأرسلته للمتحف لجذب السياح ، كمصدر جديد للعملة ، أحسن من البترول والقطن وقناة السويس والأهرامات .. رزق وهبط من السماء .. ربك قادر . ومبروكة لا تهدأ ، تقوم بغارات ليلية ونهارية لاختطافك ، لكى تشيد لك مقاما وتسميك الشيخ أبو طويل .. فتدخل التاريخ من باب الهمج بعد أن سدوا أمامك منافذ العقل ، لكنها تفشل فى الوصول إليك ! فتولول متحسرة على مسخوطك الذى كان أوله فى رفح وآخره فى حلايب . لكن شادى قام بعمل فريد ومدهش وأعادك للذاكرة من جديد ، استطاع الحصول على النسخة التى هربها من روايتك قبل ترحيله ، وأصدر الطبعة الأولى فى بيروت وراسلك مرات وأنت لا ترد ، وسأل عنك عشرات الأصدقاء ولا أحد يدرى عنك شيئا . أنت تفنى هنا .. ورواياتك خرجت من المطبعة للتوزيع . وهناك ، فوق مقاعد زهرة البستان ، وحديقة الأتيليه ، وتجمعات الكتاب ، يتحدثون عنك ، ينمون ، يفسرون اختفاءك كما يحلو لهم ، يقولون إنك بعت قضيتك وهاجرت سعيا وراء الدنانير .. والريالات . ويخمنون ، أين تكون الآن ؟، غربا

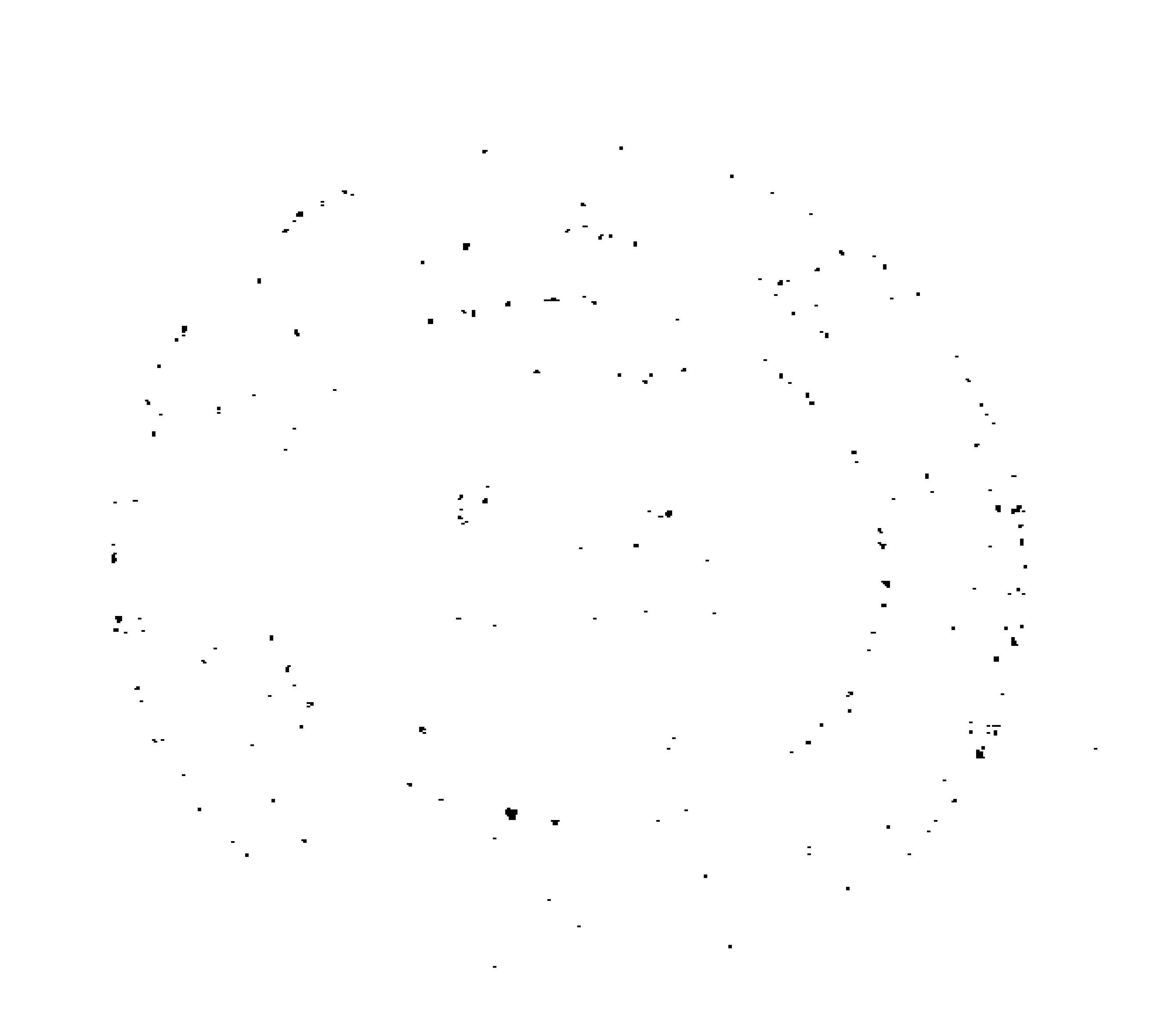
---

*العَبده : عساكر الحدود

لتمجد العقيد ونهره العظيم وكتابه الذى بلون البرسيم ، أم فى بلاد الجنادرية لتهتف : هذه خير أمة أخرجت للناس ، ويارسول الله أمتنى على أعتابك . أم اخترقت الحصار ووصلت إلى بطل أم المعارك ، لتكتشف سر عبقريته وخططه العظيمة التى هزمت جيوش العالم . أم توغلت جنوبا لتحرض أهل أبيك وتزحف بهم شمالا إلى بلاد أمك الطيبة والتى عرفت نزواتك وجموحك وتمنت قصف رقبتك فى وقت مبكر. وأحدهم عارضهم جميعا ، أختلف معهم ، زاعما أنك ضعفت وسلمت وذهبت لبلاد الكاوبوى الذى عاديته زمنا فجوعك ودمرك وأطلق عليك أشباحه وأنت الآن ، فى البيت الذى بلون الحليب .. تسجل اعتذارك رسميا . بينما أشاع أخطر منافسيك وأحقدهم أن صديقاً له ، شاهدك عند معبر رفح البرى .. فى طريقك إليهم . وزعم أحد التافهين المسطحين ، بأنك ركبت الموجة : أطلقت لحيتك ، باحثا عن الحل فى الحبل .. وتتدرب الآن فى إحدى معسكراتهم السرية . بينما شادى ، لا يكف عن السؤال الدائم واستمر يتصل بتليفونك طوال اليومين الفائتين .. ليلا ونهارا . وروايتك وصلت للباعة .. على أرصفة بيروت ومكتباتها . يحدث هذا كله ، وأنت معلق هنا ، بين مدينتين ، تاركا ضحاياك خلفك ؛ والأرملة الطيبة فى حالة انتظار وترقب . والهمج ينتشرون ، وشبحك صار حقيقة ، و نمط حياة وسلوك ولغة عصر ، من معه يرتقى ، من عليه ينتهى نهايتك . وقد تساءلت يوما عن العلاقة بين الأشباح والهمج ؟ . وتساءلت عن سر وداعة هذه البقرة التى تقف مستسلمة ، فاشخة

ساقيها ، تاركة ثدييها لكل حالب : لا ترفس ولا تعض ؟ و تساءلت وأعياك التفكير ولم تحصل على إجابات شافية حتى وصلت إلى هنا ، وانتهيت هنا فى وضعك الدرامى المأساوى . والجندى الذى هنا والذى هناك ، ضاقا منك ومن عفونتك ورائحتك الكريهة التى تهب عليهما فيشعران بالقرف والغثيان . وينتابهما الخوف من احتمال ظهور عفريتك ومن احتمال امتداد لسانك الذى تحكى عنه مبروكة ويلتف حول عنق أحدهما كالثعبان الخرافى . ضاقا منك ومن نباح الكلاب . ورغم إيمانهما بأن إكرام الميت دفنه ، فقد تهور أحدهما : غافل زميله ، متسترا بالظلام . وفعلها . قبل الفجر تماما ، ليس قبله ولا بعده ، أصيب بلوثة عارضة ، فوضع تحتك أعشابا وحطبا وأشعل فيك النار ، وقبل الفجر أيضا ، كنت تحترق ، عظامك تطقطق ! تتساقط ، وجمجمتك تنفجر ، تحدث دويا . ولم يبق معلقا فوق السيخ سوى بقايا جمجمة . ودخانك يعبئ سماء المدينتين ، وينتشر .. يتصاعد .. يتصاعد . ينتشر ، يتسلل للخيام ، البيوت والناس يختنقون ، يهبون من نومهم مذعورين ، يصرخون : حريقة .. حريقة .

المحتوى



للمؤلف

١ - المبعدون (قصص)................... مطبوعات الفجر ٨٥ نفدت

٢- واحد ضد الجميع (قصص) .... كتاب المواهب ٨٧

٣ - دنقلة (رواية)..................... هيئة الكتاب ٩٣

٤ - وقائع غرق السفينة (قصص)........ قصور الثقافة ٩٤نفدت

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٣٢٠٢ / ١٩٩٧

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 235 - 926 - x)

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٢٠٤٥ - ١٩٩٧ - ١٠١٤

هذه الراوية شهادة عن الجريمة والجثة ترفض المحقق وتتهم كل المحققين ويعلن صاحب الشهادة عن ضعفة وقوته وسوء سلوكه ونصاعة صدقة وهو يجوب مصر من أقصاها إلى أقصاها لايتردد فى الاعتراف بخطاياه متحديا الذين يحاصرونه أو يراقبونه . واعترافاته انفجارات تنطق فيها الكلمات شظايا جارحه ، لكن ما الذى تنتظره من أنفجار الذى يعد أحد ملامح هذا العصر ، إن المشاهد يتتابع في إيقاع سريع ، والحوار حاد يفضح ما تسمعه فى أغرف الأزمة والدروب وينقل إليك صدقه الانفجار الذي يختلف تماما عن الانفجارات التى تعود القارىء أن يقرأ عنها فى الصحف أو يشاهد لقطات منها على شاشة التليفزيون .

